



المجلس الإسلامي السوري
SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مقاربات

أبحاث ومقالات في
الشريعة والفكر والحضارة

العدد ٣ شوال ١٤٣٩هـ / تموز ٢٠١٨ م

التعليم
آفاق وآمال

منهجية التعامل مع أحاديث الفتن

التهجير القسري في سوريا
وأثره على أهل السنة فيها

مفهوم الحضارة وشروطها
عند مالك بن نبي

المصطلحات وأثرها في
الفكر الإسلامي

حقول دلالية استحدثتها
الثورة السورية

إِلْفَةُ الصَّادِكَانِ خُتْمَانِ وَأَزِيْمَاتِ قَوِيٍّ فَيُخَوِّرُ

خطوة
نحو
تطوير
علومنا
اللغوية

33 الصيغ الزمانية في اللغة العربية، دراسة تقابلية مع اللغة التركية

محتويات العدد

- ٢ « لتعارفوا » خطوة نحو المشترك الإنساني - رئيس التحرير: د. حسين عبد الهادي آل بكر
- ٤ منهجية التعامل مع أحاديث الفتن - الدكتور: معاذ الخن
- ١٣ المهدي بين الشيعة وأهل السنة - الدكتور: علي محمد حسن الأزهري
- ٢٣ التهجير القسري في سوريا وأثره على أهل السنة فيها - الباحث: فراس رياض السقال
- ٣٣ خطوة نحو تطوير علومنا اللغوية - الباحث: محمد علي النجار
- ٤٤ التعليم في المناطق المحررة، آلام وآمال - الباحث: عبد الكريم محمد بهلول
- ٥١ الكتابات القرآنية، نشأتها ودورها في المجتمع المسلم - الباحثة: آسية بنسلمون
- ٥٦ المكتبات ودورها في نهضة الأمة - الأستاذ: محمد عبد الحميد بكور
- ٦٠ لماذا نعلم؟ - الدكتور: عبد الكريم بكار
- ٦٣ أثر الشعوبية في المجتمع العربي المسلم - الأستاذ: تميم اليونس
- ٦٩ مفهوم الحضارة وشروطها عند مالك بن نبي - الباحث: غرابي عبد الحي غرابي
- ٧٣ من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل - الباحث: عبيدة خالد عبد القادر
- ٧٦ التنظيم والإدارة ومدى التطبيق في الثورة السورية - الدكتور: زكريا ملاحجي
- ٨٠ حقول دلالية استحدثتها الثورة السورية - الدكتور: عبد السميع مصطفى أحمد
- ٨٣ حرية القلم الإعلامي في وسيلة إعلام إسلامية - الأستاذ: نبيل شبيب
- ٨٦ المصطلحات وأثرها في الفكر الإسلامي - الدكتور: محمد العبيدة
- ٩٠ الدعوة المفتوحة من أجل عمل مشترك يجمع السوريين - الدكتور: عبد العزيز الحاج مصطفى
- ٩٣ المفسدون في الأرض والحج - الدكتور: محمد أيمن الجمال

ملف العدد



مُقَارِنَات

تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

أسرة التحرير

رئيس التحرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر
مدير التحرير: الدكتور حسن أحمد الخطاف
مستشار علمي: الدكتور محمد أيمن الجمال
المحرر: الأستاذ محمد علي النجار



تسعى للحفاظ على حقوق الإنسان.

لقد بات المعجم البشري في منعطف خطير تسيطر عليه ماديّة الحضارة الغربية بكل ما فيها من صديد أخلاقيّ وتبجحاته سلوكية وتغييب للقيم التي يتشدد بها الأعداء من أهل الزيف وأنصار الشعارات، وهذا يستدعي حتمية مراجعة ما يسمى بالمنظمات الدولية العالمية وما أفرزته من قوانين في غيبة الضوابط وبنود الشرعية الدولية.

يتشدد دعاة الحضارة المادية والأنظمة الاستبدادية بإسناد الإرهاب إلى الإسلام وأهله ظلماً وبهتاناً، والحق أن الإسلام منه براء، وهؤلاء لجؤوا إلى تحويل الأنظار عما صنعوه من إرهاب في حق الإنسانية ماضياً وحاضراً عبر إلصاقه بدين الله، وحتى لو فرضنا أن هناك إرهاباً يصدر عن بعض المسلمين فإنما هو ردة فعل على إرهابهم لا أكثر، ولا يمثل نقطة في بحر جرائمهم البغيضة.

لقد أصبحت لغة العالم شاخصة في منطق الصمت والتخاذل دون استنكار لما يقع من اختراق للقانون، حتى أصبح احترام القانون الدولي ضرباً من الوهم مقابل التجرؤ على اختراقه أو القفز على قرارات الشرعية الدولية من قبل سفاكي الدماء ومجرمي الحرب، وإلا فأين العالم من شعب أعزل يواجه عدواناً مسلحاً من الأنظمة والقوى الإقليمية والعالمية؟ بل أين القانون والخطاب الحضاري الذي يدعيه إنسان القرن الواحد والعشرين؟ أم إن جحافل العصور الوسطى ما زالت تسود الساحة الإنسانية؛ والعالم تُجاهها يؤثر الصمت، فهو أصم أبكم لا يسمع ولا يرى.

ويكفي دليلاً على الانحطاط والتوحش الذي وصل إليه عالمنا اليوم استخدام الروس حق النقض ضد كل القرارات والقوانين التي تحمي الشعب السوري وتنقذه من جلاده، فباللعار لمجلس لا يستطيع حماية الضعفاء!

لقد عادت الهمجية أدراجها مع رحلة الضمير الذي سقط سهواً أو عمداً في مستنقع الجشع البشري، وزاد الأمر تعقيداً صمت الشرفاء في هذا العالم حتى عدنا إلى عصر العبودية وقهر الإنسان في ظل سلطة أعداء الحضارة والمثل الإنسانية، وكان ذلك نتيجة لتخلي الحضارة الإسلامية عن قيادة الركب الإنساني، وإنه مع عودة هذه الحضارة سيعود الاستقرار إلى عالمنا وسنشهد انحساراً في رقعة الصراع الإنساني وما ينتج عنه من تخلف ودمار... وما ذلك على الله بعزيز.

لقد صدرنا للغرب الأوروبي في عصور ظلامه فكر ابن سينا وابن رشد والكندي والفارابي وابن حيان وابن الهيثم والإدريسي والخوارزمي والرازي، وغيرهم كثير... هذا ما تشهد به صفحات التاريخ، بينما في المقابل نجد عدواناً بكل الوسائل على أمتنا في الماضي والحاضر هدفه منعنا من أي تقدم في الميدان الحضاري.

نحن نريد بخطابنا تجلية الحقائق وكشف الأباطيل، وبيان الزيف الذي يحيط بالإسلام وأهله إما من معاند أو مغامر أو جاهل أو مغالط أو حاقد، وإما من غير أهله قصوراً أو عجزاً أو افتراءً.

إننا اليوم بحاجة إلى تفعيل خطابنا الحضاري الإنساني على مستوى العالم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يوم أن وضع للبشرية قانوناً شاملاً للعدالة والمساواة؛ فنحن مطالبون اليوم ببيان القيم الإنسانية العليا التي باتت ضرورة لا غنى عنها لكل البشر، وواجبنا - نحن المسلمين - أن نقرّبها إلى ذاكرة الناس في عصر طغيان المادة وتجاهل المثل العليا وضياع معنى الفضيلة والأخلاق.

لنعلم العالم أن الهدف من خطابنا الإسلامي هو إنقاذ الإنسانية من رداءة واقعها المظلم، فقد غدت جرائم الإنسان ضد أخيه الإنسان - قتلاً وخيانة أو غدراً وكراهية أو عدواناً وسرقة - مظهرًا مألوفًا من مظاهر الحياة الإنسانية، وإن كل هذه الأفعال البغيضة عبارة عن مظاهر للفساد والبغي في الأرض تنافي خطابنا الإيماني جملةً وتفصيلاً.

في نّير النظام العالمي الجديد عادت البشرية لتقترب من شريعة الغاب، وعاد منطق الغزو وقهر الضعفاء وانتهاك محارم الإنسان تحت طغيان القوة والبطش، وهو ما ينافي مبادئنا التي تحرم قطع شجرة أو قتل طفل أو إيذاء شيخ أو امرأة.

عاد المجتمع الإنساني اليوم في أوار العولمة إلى دورة الإجرام من قتل للنفس وتجريف للأرض وتدمير للحرث والنسل وتخريب للعمران، وتلك هي طريقة أعداء الحضارة وحقوق الإنسان على مدار حقبة التاريخ.

وما يُرتكب في سوريا من جرائم يندى لها جبين الإنسانية وكذا في فلسطين والعراق واليمن وبورما وغيرها يستحق من العالم كله صحوة كبرى، هذا إن كان ثمة بقية من ضمير

كلمة رئيس التحرير

«لِتَعَارَفُوا»

خطوة نحو المشترك الإنساني



الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [سورة الحجرات: آية ١٣].

واليوم يحتاج العالم إلى خطاب ديني حضاري إنساني جامع بين احترام الوحدة والتنوع معاً، وليس في هذا أرقى من خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حينما قال: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»^(١) فهذا الخطاب يمثل إرهابات حقيقية للمشارك ومداخل رحبة للتعارف بين الشعوب والأمم والحضارات.

إن البحث عن المشترك مدخل إلى السلام الإنساني ونشر لقيم الصفح والتسامح بدلا من الدموية والعنف، لا سيما في ظل ما يدعو إليه البعض من صدام الحضارات.

وفي هذا السياق ستتوالى الدراسات بعطائها الحضاري حول الإنسان وحقوقه وقضايا ومشكلاته في زمن غابت فيه قيم العدل وشاعت فيه ازدواجية المعايير، وسيكون هذا الخطاب تأصيلاً للدور الحضاري ليتعلم الإنسان كيف يكون إنساناً؛ فلا يتحول إلى وغد أو إرهابي دموي عدواني، ولا يلجأ إلى التعتن والقهر أو استعباد خلق الله أو كراهية البشر والعريضة على حساب الأبرياء على النمط الذي انتهجته حركات الاحتلال وأنظمة الاستبداد في سباق خطاب عدواني مخيف وثقافة تبريرية لمنطق الطغيان والعدوان على الآخر.

إذا ما قرأنا صفحات التاريخ فإننا سنجد أن سلوك المسلم كان حبا للآخر، واحتراماً لمساحات التلاقي معه والتفاعل مع فكره والتداخل في نتاج عقله والرقى في مجادلتة أو مناظرته، وهو ما ظل سمّاً للثقافة الإسلامية في مُثاقفَتِها وتلاقحها مع كل ما حولها.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده رقم (٩٨٤٣٢).

لِنَتَقَلَّ من صدام الحضارات الذي دعا إليه هتنتغتون إلى حوار الحضارات، ومن العولمة التي تُفرض قسراً على البشر إلى العالمية التي تدعو إلى التعارف للوصول إلى المشترك الإنساني، لكن ليس من السهولة أن تبلور النظرية أو المشروع بين عشية وضحاها؛ فهي تحتاج إلى دراسات وقراءات ولقاءات وحوارات تشهد التعددية والاختلاف في الساحة الدولية.

وفي زحام التيه والقلق الذي رسخه فوكوياما حول نهاية التاريخ، أو ما طرحه بوش الابن حول الحرب الصليبية وصولاً إلى ترامب الذي يعلن الحق الأمريكي في السيطرة على الثروات العربية، أو غير ذلك من صيحات غريبة غير عقلانية باتت تنفخ في نيران الصراع الإنساني؛ بدأت تُقرع نواقيس الخطر في العالم كله على نحو يمكن أن ينذر بحرب كونية مدمرة لا تبقي ولا تذر.

ولتفادي هذا الخطاب لا بد من دراسة المنطقة المشتركة على المستوى الإنساني، القادرة على الجمع بين الفرقاء مهما اتسعت بينهم شقة الخلاف، ولعل أرقى الأنماط الجدلية في التاريخ ما دعا إليه الإسلام ورسوله الخاتم من المجادلة بالتي هي أحسن بناء على منطق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو قياس حضاري إنساني رائع.

إن البحث عن المشترك يتجاوز منطق الخصومة والصدام، ويؤدي إلى التلاقي واحترام مساحات التشابه بين الأمم والشعوب على مستوى الفكر والإبداع للوقوف على أرض صلبة ورؤى متجانسة يحكمها ذلك التقارب، وغالباً ما يظل المشترك ضامناً لاحترام الخصوصية والهوية الذاتية لكل أمة دون التضحية بثرواتها وتاريخها أو تراثها الإنساني، قال الله تعالى في كتابه الكريم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

التدليل على صدق القرآن والسنة: هذه النصوص هي حديث عن المستقبل، فإذا وقعت كما أخبر عنها كانت دليلاً على مرجعية الرسالة وبرهاناً على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: آية ٢٢].

كيفية التعامل معها إذا وقعت: من فوائد ذكر أحاديث الفتن إرشاد الناس إلى كيفية التعامل معها إذا وقعت:

فقد يكون النص توجيهاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً»^(١١) وزاد في صحيح مسلم: «فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال: فيقتلون عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون»^(١٢) فالحديث جمع إخبارين: انحسار الفرات عن جبل من ذهب وحصول مقتلة كبيرة عند ذلك، وذكر توجيهاً بعدم الأخذ والمشاركة، قال القسطلاني: (فلا يأخذ منه شيئاً بجزم «فلا يأخذ» على النهي، وإنما نهى عن الأخذ منه لما ينشأ عن الأخذ من الفتنة والقتال عليه)^(١٣).

وقد يكون حكماً شرعياً، جاء في أحاديث الدجال: «يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وباقي أيامه كسائر أيامكم، فقالوا: يا رسول الله هل يكفي في اليوم الذي كسنة صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره»^(١٤) قال النووي في شرحه للحديث: (ومعنى اقدروا له قدره: أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينها وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر... إلخ)^(١٥) ويمكن تقدير ذلك في هذه الأيام عن طريق التقويم وضبط الوقت بواسطة الساعة.

وقد يكون تجلية لحقيقة قدرته كما جاء في الحديث «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»^(١٦) وقد ورد أن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه كف سلاحه يوم الجمل حتى قُتل عمار بصفيين، فسل سيفه فقاتل حتى قتل وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تقتل عماراً الفئة الباغية»^(١٧).

(١١) متفق عليه عن أبي هريرة: البخاري: كتاب الفتن - باب خروج النار، رقم (٢٠٧٦)، مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، رقم (٤٩٨٢).

(١٢) أخرجه مسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه، كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، رقم (٥٩٨٢).

(١٣) إرشاد الساري (٤٠٢/١).

(١٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم (١٠٩٢).

(١٥) شرح صحيح مسلم: النووي (٦٦/٨١).

(١٦) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري، كتاب الجهاد والسير - باب مسح الغبار عن الناس في السبل، رقم (٧٥٦٢).

(١٧) مستند الإمام أحمد - مستند الأنصار، حديث خزيمة بن ثابت رضي الله عنه، رقم (٢٢٩١٢)، المستدرک: الحاكم، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم - ذكر مناقب خزيمة بن ثابت الأنصاري، رقم (٧٩٦٥).

قبل قيام الساعة، فيكون من أشراطها - أي: علاماتها - كخروج الدابة والدجال والافتتال... إلخ، وعلى هذا بؤب المحدثون للفتنة في كتبهم كما في (كتاب الفتن) من صحيح البخاري، وكذلك (كتاب الفتن) في صحيح مسلم وغيرهما من أمهات كتب الحديث.

مما سبق تبين أن الأصل في معنى الفتنة لغة الاختبار، ثم استعملت في المعاني الأخرى، قال ابن حجر: (إن أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجه المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريق والفضيحة والفجور وغير ذلك)^(١٨).

وإن المعنى المراد ببحثنا هو الأخير أي ما يحدث من أمور كبرى فيها اختلال وتنازع واقتتال، ويعبر عنها بالفتن، وهي التي تكون بين المؤمنين - أي داخل مجتمعاتهم - بينما الملاحم تكون بين المؤمنين وغيرهم من الأمم^(١٩)، وإن كان يدخل فيها معان أخرى كالابتلاء والصد عن سبيل الله والمعاني الأخرى، كما أن الفتن التي يدور حولها بحثنا الفتن العامة لا الفتن الخاصة التي لا يخلو منها أحد.

الحكم التي ذكرت من أجلها نصوص الفتن

كثيرون أولئك الذين يتساءلون عن الحكمة من ذكر القرآن والسنة لأمر المستقبل التي سيراها المؤمنون في قادم أيام الدهر، ويتساءلون عن الحكمة من الإخبار بفتن آخر الزمان والنص على بعض أسبابها ومعالمها، وسأذكر الآن - بما يسمح به المقام - من حكم الشرع ما يشفي صدور قوم مؤمنين:

ترسيخ عقيدة الإيمان بالغيب: ومن أهم ذلك الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا هِيَ إِلَٰهٌ لَّكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة: آية ١ - ٢] والفتن من علامات قرب يوم القيامة ومن الغيب الذي أخبرنا به ويجب علينا الإيمان به.

الدلالة على قدرة الله تعالى: فقد أخبر القرآن الكريم عن الدابة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة النمل: آية ٨٢] فهي آية من آيات الله للدلالة على قدرته، فالدابة لا تعقل ولا تنطق عادة، وهذه الدابة التي يخرجها الله تعالى آخر الزمان تعقل وتنطق، فهي كما جاء في الآية تكلم الناس، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنها تسميهم، قال ابن عباس: (كلأ تفعل، أي المخاطبة والوسم)^(٢٠).

(١٨) فتح الباري (٣/٣١).

(١٩) إتجاه الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: حمود التويجري (٣٥٣/١).

(٢٠) تفسير ابن كثير (٧٨٣/٣).



مَنْهَجِيَّةُ التَّعَامُلِ مَعَ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ

د. معاذ الخن - رئيس مجلس الإفتاء السوري



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمد الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فنظرًا للاضطرابات والفتن والحروب التي تعيشها الأمة الإسلامية اليوم وجد كثير من الناس أنفسهم يبحثون في أحاديث الفتن ومروياتها، ويلقون السمع لمن يحدثهم بها؛ لعلهم يجدون فيها ما يروي ظمأً استشراف البشر للمستقبل والتطلع لمعرفة.

وبالنظر إلى الجهل الذي يضرب مجتمعاتنا اليوم أصبحت مرويات الفتن مادة دسمة لكل صاحب هوى وبدعة، يتخذ منها ستارًا يخفي خلفه ولاه لأهل الظلم والفسق والفجور، أو يسوق من خلالها أهواءه السياسية، بينما وجد فيها أهل الدعة والراحة حجة في القعود عن العمل واتباع أوامر الله، في حين تجد فريقًا آخر قد أوغل فيها حتى أصابه اليأس والقنوط.

ومن أعظم المصائب ما نراه في الفضاء الإعلامي من اشتغال بعض الجهلة في تفسير هذه النصوص وإصاقتها بكل حادثة يرونها قصداً للشهرة وإرضاء لشغف عامة الناس بهذا النوع من المرويات... وذلك هو ما دعا لبيان قواعد أهل السنة في تفسير نصوص الفتن وأشراف الساعة باختصار غير مخل، يسلط الضوء على جوانب هذه المسألة لعلها تُعنى بمزيد من الدرس والتفصيل لإعادة الأمور إلى نصابها ولجم الجهل بلجام العلم والمعرفة، وقد تم هذا المختصر من خلال الحديث عن خمس مسائل تغطي جوانب هذا الموضوع، وهي:

المسألة الأولى: معنى الفتنة، المسألة الثانية: الحكم التي ذكرت من أجلها نصوص الفتن، المسألة الثالثة: ضوابط التعامل مع أحاديث الفتن، المسألة الرابعة: المناهج المخطئة في التعامل مع أحاديث الفتن، المسألة الخامسة: موقف المسلم زمن الفتن.

معنى الفتنة

وردت هذه اللفظة «الفتنة» بتصريفاتها في الكتاب والسنة على عدة معانٍ^(١)، أهمها:

الشرك والكفر كما في قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [سورة البقرة: آية ١٩٣] قال ابن عباس وغيره من التابعين: (أي: شرك)^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَفْئِدَةُ سَقَطُوا﴾ [سورة التوبة: آية ٤٣] أي: (في الكفر)^(٣).

العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [سورة الذاريات: آية ١٣] أي: (يعذبون، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن)^(٤).

صرف الإنسان وصدده عن دينه بالقوة أو بالإغواء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [سورة الإسراء: آية ٧٣] أي: (يصرفونك)^(٥) وهذا المعنى من أكثر المعاني استعمالاً في القرآن الكريم.

الضلال والانحراف، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [سورة الصافات: آية ١٦١ - ١٦٣] أي: (ما أنتم عليه بمضلين)^(٦).

الابتلاء والاختبار، قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [سورة العنكبوت: آية ٢ - ٣] أي: (يبتلون ويختبرون، ولقد اختبرنا من قبلهم)^(٧).

اختلال الأمور: ما يحدث من اختلال في الأمور وابتلاءات عامة

(١) ذكر ابن الجوزي في كتابه (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر) خمسة عشر وجهاً لمعنى الفتنة (٧٧٤)، وذكر يحيى بن سلام البصري في كتابه (التصاريف) أحد عشر وجهاً لها (٩٧١).

(٢) تفسير ابن كثير (١٢٣/٢).

(٣) تفسير الرازي (٨٦/٦١).

(٤) تفسير ابن كثير (٩٤٢/٤).

(٥) تفسير الرازي (٨١/١٢).

(٦) فتح القدير (٤١٤/٤).

(٧) المرجع السابق (٢٩١/٤).

اثنان:

الأول: التثبت من صحة النص معتمداً على قواعد المحدثين في التصحيح والتضعيف.

الثاني: التريث في تنزيل الخبر على الواقع لئلا يكذب الله ورسوله، فقد يلزم من تنزيله الحديث على واقعة ما من غير تثبت مواقف وأحكام، وحمل الناس على العمل بغير هدى، كما قد يتسبب تنزيله الخاطيء للأخبار بإراقة دمائهم واستباحة أموالهم، وقد امتدح النبي صلى الله عليه وسلم أشج عبد القيس فقال: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة»^(٣٠) وإذا كانت هاتان الخصلتان ممدوحتين في كل شأن فإنهما في الفتن تكونان أشد مدحاً وأكبر أثراً، ولعل في حديث المستورد ما يشير إلى قدر الحلم والأناة كما في صحيح مسلم: «أن المستورد القرشي تحدث بوجود عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» فقال له عمرو: أبصر ما تقول، فقال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمرو: لئن قلت ذلك فإن فيهم لخصلاً أربعاً: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كربة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»^(٣١) فقولهم «إنهم لأحلم الناس عند فتنة» يعني أنهم لا يتعجلون ولا يغضبون ولا يُستفزون، بل يحافظون على عقولهم وحسن تفكيرهم، فيجنبون قومهم القتل والفتن، ويتخذون الموقف الصحيح السليم، ولعله يكون سبب حفظهم واستمرارهم، ولقد وصف حذيفة الفتن فقال: «تُشبه مقبلةً وتبين مدبرة»^(٣٢) ولقد سأل حفص بن غياث سفيان الثوري عن المهديّ فقال له: «إن مرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه»^(٣٣).

وإن التريث لا يمنع أن ينزل العالم الخبر على الواقعة إذا تحققت معالمها الواضحة أو كانت متسلسلة بأن سبقها ما يثبتها على وجه اليقين، ومما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام مرتباً ظهور الدجال قبل نزول المسيح، وكلاهما قبل يأجوج ومأجوج، فلو حصل أحدهما فسوف يتبعه الآخر، ومثله انحسار الفرات عن جبل من ذهب فإنه لو حصل يمكن للقائل أن يقول: إن مقتلة كبيرة سوف تقع، ويمكن أن ينبه الناس ألا يشاركوا فيها وألا يأخذوا منه شيئاً كما في الحديث.

الضابط الثاني: مراعاة النسبية الزمانية فيها.

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث أنه قال: «بعثت

أنا والساعة كهاتين، وضم الساعة كهاتين، وجاء في حديث آخر عن الساعة: «أنها كالحامل المتمّ التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً»^(٣٤)، وضرب الأمثال لهذا المعنى كثير في الأحاديث النبوية، فإذا كان عليه الصلاة والسلام قد قال هذا قبل أربعة عشر قرناً فالأمر نسبيّ إذا ما قُورن بعمر البشر على الأرض وما بقي مقارنة بما مضى، وكل آت قريب كما يقال، وبالأخص الفتن الكبرى كالدجال ويأجوج ومأجوج فهي من هذا القبيل في نسبية الوقت.

الضابط الثالث: اعتبار جميع الصفات.

ما ذكرت فيه عدة صفات لا يكفي في التنزيل قيام بعضها وانتفاء بعض آخر، فلا بدّ من اجتماعها جميعاً، ومنه قول بعضهم في عمر بن عبد العزيز إنه المهديّ كما نقل ذلك عن الحسن البصري وسعيد بن المسيب^(٣٥)، فقد اجتمعت في عمر بعض الصفات وتخلّفت عنه بعض الصفات، فمما تخلّف عنه أن اسم المهدي (محمد بن عبد الله) وأنه من ولد فاطمة رضي الله عنها، فهذان لم يتحققا فيه، وهذا ما حمل ابن القيم على القول: (لا ريب أنّه كان راشداً مهديّاً، ولكن ليس بالمهديّ الذي يخرج في آخر الزمان)^(٣٦).

الضابط الرابع: ليس من الضرورة ربط كل فتنة بنص أو البحث لها عن حديث.

عندما تقع حادثة كبيرة يُهرع الناس إلى أحاديث الفتن لعلهم يجدون لها ذكراً أو إشارة، وهذا لا بأس به لكن إذا لم يجدوا فينبغي ألا يتكلفوا، فليس كل ما حدث أو سيحدث قد أشارت إليه النصوص، وكم من حوادث كبرى مرت على المسلمين ليس لها ذكر في السنة، من ذلك ما فعله القرامطة من قتل الحجاج في مكة واقتلاعهم الحجر الأسود وأخذهم له والحروب الصليبية، فلا يصح التكلف في تنزيل النصوص بليّ أعناقها لتخدم حادثة بعينها.

الضابط الخامس: إعطاء كل تنزيل للنصوص حقه من القطع أو الظن.

يمكن للباحث في أحاديث الفتن القطع في أمر حدث وقد استكمل الأوصاف كحديثه عليه الصلاة والسلام عن الحسن رضي الله عنه: «إبني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣٧)، فنحن نقطع أن المراد هو الصلح الذي جرى بين

(٣٠) متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه: البخاري في كتاب الطلاق - باب اللعان، رقم (٥٩٩٤)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب قرب الساعة، رقم (١٥٩٢).

(٣١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الفتن والملاحم، رقم (٢٠٥٨)، وأحمد في المسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رقم (٦٥٥٣).

(٣٢) الطبقات الكبرى، رقم (٥٤٢/٥)، تهذيب التهذيب، رقم (١٠٥٣/١).

(٣٣) المنار المنيف (ص ٥١).

(٣٤) أخرجه البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه، كتاب الصلح - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إبني هذا سيد، وسيصلح الله به...»، رقم (٧٥٥٢).

(٢٦) رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه في كتاب الإيمان - باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتليغته من لم يبلغه، رقم (٨١).

(٢٧) أخرجه مسلم عن المستورد بن شداد القرشي في كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس، رقم (٨٩٨٢).

(٢٨) أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب الفتن والملاحم، رقم (٥٨٣٨).

(٢٩) حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم (١٣/٧).

مؤخرًا خاصة مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر إذ حظيت كتاباته بانتشار كبير، وشاع طرح تنبؤاته في مختلف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة.

فتح باب الأمل، ومنه:

الاستبشار بحسن العاقبة: فهو يزود المؤمنين بطاقة كبيرة للإنجاز والاستمرار والصبر، فقد نزل قوله تعالى في يوم بدر ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [سورة القمر: آية ٤٥] فرفع المعنويات وثبت الأقدام، ومن ذلك حديث قتال المسلمين لليهود آخر الزمان: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله! هذا خلفي يهودي فعّال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»^(٢٣) فهذا الوعد يدل على أن النصر سيكون بكرامة خارقة للمؤمنين، وقد يكون ذلك لتمكن اليهود وانحياز العالم لهم وقلة المؤمنين الصادقين الذين يقاتلونهم، وهذا النطق حقيقي وليس مجازيًا؛ لأنه لو حمل على المجاز لم يبق لاستثناء شجر الغرقد أي معنى، ولما كان لانتصار المؤمنين على اليهود بطريقة تقليدية عادية أي دلالة على قرب الساعة، فقد قاتلهم المؤمنون مرارًا وانتصروا عليهم لكن ليس على هذا النحو.

والاستبشار بقدرية المؤمن على مواجهة فتنة الدجال في حديث الرجل الذي يقتله الدجال ويقطعه جزلتين، فيخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الرجل المؤمن يقول: «أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه»^(٢٤) فقد أعانت أحاديث رسول الله عن الفتن والدجال هذا المؤمن على معرفة الدجال والصبر والثبات في الفتنة الكبرى.

وكذلك حديث فتح القسطنطينية الذي كان حافزًا لكثير من الخلفاء في وقت مبكر لتجهيز الجيوش والتوجه لفتحها حيث جاء في الحديث «لنفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»^(٢٥).

ضوابط التعامل مع أحاديث الفتن

الضابط الأول: يبنى العلم على الثبوت، ويبنى التنزيل على الحلم والروية.

إن الواجب على المشتغل بعلم علامات الساعة ووقائعها أمران

(٢٣) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب قتال اليهود، رقم (٨٦٧٢)، مسلم بهذا اللفظ في كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم (٢٢٩٢).
(٢٤) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في كتاب أبواب فضائل المدينة - باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم (٣٨٧١)، ومسلم في باب الفتن وأشرط الساعة - باب في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقلته المؤمن وإحيائه، رقم (٨٣٩٢).
(٢٥) أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبيد الله بن بشر الغنوي، كتاب الفتن والملاحم، رقم (٥٠٣٨)، وأحمد في مسند الكوفيين - حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه، رقم (٧٧٩١).

وقد يكون عهدًا خاصًا كما جاء في الحديث عن حصار عثمان رضي الله عنه: «قال عثمان يوم الدار: إن رسول الله قد عهد إليّ عهدًا؛ فأنا صابر عليه»^(٢٦) وهذا العهد ألا يسلب السلاح ولا تراق سببه محججة دم كما في بعض الروايات.

التنصيص على خاصية بعض البقا مثل:

بيان فضل بعض الأماكن عمومًا، وذلك كفضل المدينة عمومًا وفي الفتن خصوصًا كما جاء في بعض الأحاديث: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»^(٢٧) وحديث «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»^(٢٨).

وبيان فضل بعضها على وجه الخصوص أي وقت وقوع الفتن؛ فليست أفضلية عامة من كل وجه، فبلاد الشام عمومًا وبعض مدنها خصوصًا كدمشق مثلًا هي فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى، والأحاديث في فضائل الشام في الملاحم والفتن كثيرة، منها حديث عبد الله بن أبي حوالة الذي جاء فيه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ستجندون أجنادًا بالشام وأجنادًا بالعراق وأجنادًا باليمن، فقلت: خر لي يا رسول الله، فقال: عليكم بالشام، فمن أبى فليلحق باليمن وليسق من غدّره، فإن الله تكفل لي بالشام وأهله»^(٢٩).

والتحذير الخاص من بعض المناطق دون ذم مطلق لها، منها جهة المشرق كالعراق وما يليها من بلاد العجم كبلاد فارس وكانت تدعى عراق العجم، فقد جاء في الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «الفتنة من ههنا - كررها وأشار إلى المشرق - من حيث يطلع قرن الشمس»^(٣٠) وفي رواية «قرن الشيطان».

إرواء حاجة التطلع إلى المستقبل من مصدر أمين: إن التطلع إلى المستقبل حاجة بشرية ملحة، وإن ثقافة التساؤل واستشراف المستقبل أحد أهم أسباب البحث والتقدم العلمي والاختراع، وهي من أهم ما يشغل أفكار الأمم الإنسانية جمعاء، وإن الأخبار النبوية عن بعضها تقطع الطريق على السبل الفاسدة لاستقراء المستقبل والإخبار به كالعرافة والتنجيم وادعاء علم الغيب، وإن من أبرز ما يظهر إلحاح الإنسان لمعرفة المستقبل ما رأيناه من اهتمام غربي كبير بنبوءات المنجم اليهودي (ميشيل نوسترا داموس)، فهذا الاسم برز بشكل ملحوظ

(١٨) أخرجه الترمذي عن أبي سهلة، كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم (١١٧٣).

(١٩) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم (٣٦٣١).

(٢٠) أخرجه مسلم عن عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان - باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وإنه بآرز بين المسجدين، رقم (٧٤١).

(٢١) صحيح ابن حبان، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة - باب الحجاز واليمن وفارس وعمان، رقم (٦٠٣٧)، مستدرک الحاكم، كتاب الفتن والملاحم، رقم (٦٥٥٨).

(٢٢) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنه: مسلم في كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان، رقم (٥٠٩٢)، البخاري، كتاب الفتن - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (الفتنة من قبل المشرق)، رقم (٩٧٦٦).

فوقوق الرؤيا في الواقع كما رثيت وعبرت مما يمدح ولا يذم.

المناهج المخطئة في التعامل مع أحاديث الفتن

نجد لدى قلة من الأقدمين وكثير من المحدثين نماذج للخطأ في التعامل مع أحاديث الفتن وعلامات الساعة؛ ذلك أنهم استندوا في ذلك إلى قواعد خاطئة، أو حكّموا العقل فيما لا حكم له فيه أحياناً، وسأذكر صوراً من تلك الأخطاء ونماذج لها، فمن تلك الأخطاء:

تكذيب النصوص الصحيحة أو إنكارها.

مثال ذلك ما فعله ابن خلدون ومن تبعه من المعاصرين من إنكاره لأحاديث المهدي مع أنها صحيحة رواها ما يزيد على ثلاثين صحابياً، وهي مروية في صحيح أبي حنبل وابن خزيمة ومستدرک الحاكم، وفي سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني، وفي المسانيد كمسند أحمد والبخاري وأبي يعلى وعبد بن حميد وأبي عوانة، وفي مصنف أبي شيبة وعبد الرزاق الصنعاني ومعجم الطبراني الثلاثة، وفي كتب الرجال والسير والتاريخ كتاريخ ابن عساکر وابن الجوزي وطبقات ابن سعد ودلائل النبوة للبيهقي، ورواه ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار، واحتج بها كبار الأئمة من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمؤرخين، بل أفردوها بعضهم بالتصنيف كنعيم بن حماد وأبي داود السجستاني وأبي نعيم الأصبهاني وابن كثير وأبي زرعة العراقي والسخاوي والسيوطي وابن حجر الهيتمي والملا علي القاري والبرزنجي والصنعاني والسفاري والشوكاني ومحمد صديق خان وغيرهم، بل جزم بصحتها كثير منهم كابن تيمية في (منهاج السنة النبوية)، ومثله القاضي عياض في (الشفا)، والقرطبي المفسر وابن حجر في (فتح الباري)، وجزم الشوكاني والبرزنجي والسفاري والكتاني بتواترها (التواتر المعنوي)، قال الشوكاني: (والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول) (١٠٠) وقال المحدث صديق حسن خان القنوجي: (والأحاديث الواردة في المهدي - على اختلاف رواياتها - كثيرة جداً تبلغ حدّ التواتر) (١٠١) ويقول المحدث الكتاني: (الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة) (١٠٢) وليس المجال هنا لسرد هذه الأحاديث ومناقشة المخالفين وبيان الفرق بين مهدي السنة ومهدي الشيعة فهذا يحتاج إلى بحث خاص.

رد بعض الأحاديث الصحيحة بدعوى مختلفة.

من ذلك رد حديث الزبير بن عدي: أتينا أنس بن مالك رضي الله

أسير وهم العجز وعدم القدرة على فعل أي شيء في حالة من الجبرية القاتلة، وقد تجد بعضهم يعيش عقدة المؤامرة في كل الأمور، فلا ينطلق إلا منها ولا يفسر الأحداث إلا على ضوءها، فتضيق عنده فرجة الأمل في التغيير والتمكين.

وإن من أشكال تجاوز الشرع في ذلك أن يتركب المحرم شرعاً بذريعة التوصل بذلك إلى دفع الفتن ومنع أسبابها، وليس ذلك من الشرع في شيء؛ فقد امتنع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل ابن صياد رغم ما كان يعمل، وقد اشتبهوا أنه الدجال فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: «إن يكنه فلن تسلط عليه» (١٠٣)، ولم يقتل مسيلمة وقد وفد عليه مع قومه بني حنيفة في آخر حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لم يفعل ما يوجب قتله وإن علم أنه في المستقبل ستقع على يديه فتنة كبيرة (١٠٤)، وقد اعترض على قسمته ذو الخويصرة فقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فلما قفى قال عليه الصلاة والسلام: «يخرج من ضئضئ هذا قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم» إلى أن قال: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، والله لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وإرم» (١٠٥) والمراد هؤلاء الخوارج، فقد علم عليه الصلاة والسلام فيما علمه الله أن من نسل هذا ستكون بداية فتنة الخوارج ومع ذلك لم يأمر بقتله، ومن جهلة الشيعة الروافض اليوم من يقتلون الأبرياء بحجة أن المهدي يخرج عند كثرة الهرج والقتل فيكثرون القتل تعجباً لخروجه، ومنهم من يسمح أو يبرر هجرة اليهود إلى فلسطين بدعوى جمعهم لتقع عليهم الملحمة الكبرى آخر الزمان، وهذا أمر محرم شرعاً ولا يسوغه الخبر القدري.

أما إذا كانت أسباب دفع الفتن مشروعة فالإتيان بها موضع اجتهاد؛ فقد امتنع عن قتل المنافقين لئلا يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، وحرقت مسجد الضرار الذي بناه المنافقون.

وليس من الضرورة أن يكون كل وصف أو شرط ذكر في أشراف الساعة شراً يتقى أو فساداً يمنع، فقد يكون مجرد علامة، والمعول في ذلك على التحذير مما وراءه، وأما هذا الأمر فيبقى على حكمه الأصلي شرعاً، ومثاله حديث «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً» (١٠٦) فزراعة الأرض واستصلاحها رغبت فيه الشريعة، فهذا مما يمدح ولا يذم، وذكره هنا مجرد علامة، وكذلك صدق رؤيا المؤمن كما في الحديث «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً...» (١٠٧)،

(٤٥) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: رواه البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم (٩٨٢١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب ذكر ابن الصياد، رقم (٣٩٢).

(٤٦) فتح الباري (٤٩/٨) وما بعدها، وزاد المعاد (٨٣/٣) وما بعدها.

(٤٧) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: رواه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قول الله عز وجل {وَأَمَّا عَادُ...} رقم (٦٦١٣)، ومسلم في كتاب الزكاة - باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (٤٦٠١).

(٤٨) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة - باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم (٧٥١).

(٤٩) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في كتاب التعبير - باب القيد في المنام، رقم (٤١٦٦)، ورواه مسلم في كتاب الرؤيا، رقم (٣٦٢٢).

البلعوم»^(٣٠) وهكذا فعل حذيفة بن اليمان عندما أوماً إلى الباب الذي يكسر ولا يغلق في الفتنة عندما سأله عمر رضي الله عنه^(٣١)، والذي حمل حذيفة على كتمان بعض ما أخبره به النبي -عليه الصلاة والسلام- ما يترتب على التحديث بذلك من فتن كبيرة، وعلى العموم من أراد تحذير الناس من الفتن ينبغي أن يكون حكيمًا بحيث لا يوقع الناس في اليأس والقنوط؛ فيتركوا العمل.

الضابط السابع: ما أشكل علينا تأويله نكل علمه إلى الله تعالى.

على المسلم ألا يتعجل في إنكار ما ثبت من أحاديث الفتن ثبوتًا صحيحًا، وألا يتكلف تأويله بناء على الواقع الذي يعيشه، فإن الواقع يتطور ومفردات الأشياء التي يتعامل بها البشر تتغير، وفي هذا يقول الإمام الغزالي رحمه الله: (لو سكت من لا يعرف قل الاختلاف، ومن قصر بابه وضاق نظره عن كلام العلماء فما له وللتكلم فيما لا يدريه والدخول فيما لا يعنيه؟)^(٣٢)، ومثال ذلك ما ورد في وصف الاقتتال آخر الزمان والأسلحة التي يستعملونها كالسيوف والتروس والرماح والخيول، فقد ورد ذلك في أحاديث صحيحة منها في صحيح مسلم «وقد علقوا سيوفهم بالزيتون»^(٣٣) فبعضهم يرى أن التقدم الذي عليه البشر سيزول، وستدمر البشرية نفسها ويعود الناس كسابق عهدهم في الحروب وأدواتها، وبعضهم يتأول هذه الأوصاف ويجعلها من باب ضرب المثل فتعليق السيوف أي السلاح الفردي مثلًا وهكذا، ونحن نقول: الله أعلم والخوض في هذا لا يقدم ولا يؤخر، فإذا وقع الأمر كان على المسلمين أن يعدوا ما استطاعوا من قوة بحسب عرف زمانهم ووسائله.

الضابط الثامن: لا نعطل الأمر الشرعيّ تذرّعًا بالخبر القدريّ.

حصل الخلط بين الخبر القدريّ والأمر الشرعيّ من كثير من الناس في عصرنا نظرًا للجهل الذي يشيع في طوائف من الناس، فتجد من يعطل الأحكام ويترك العمل انتظرًا للمهدي، وتجد من الناس من خالطه اليأس وترك السعي بحجة أن الأمور تمضي نحو النهاية؛ فلا فائدة من طلاء سفينة أيلة للغرق، متناسيًا قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»^(٣٤)، ومنهم من جلس ينتظر الخوارق والمخلص البطل، فعطل دوره ونسي أن الحياة ابتلاء للجميع وأن من بشر بهم عليه الصلاة والسلام سيولدون ولادة طبيعية، ويمضون وفق السنن الربانيّة ويصنعون قيادة لقاعدة صلبة موجودة ولأمة استكملت شروط النصر وبقي من يقودها إليه، وبعضهم وقع

الحسن ومعاوية رضي الله عنهما، وتنازل فيه الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ، وسُمّي ذلك العام عام الجماعة، ويمكن القطع بأن المقصود من حديث «أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطم فقال: هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا، قال: فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»^(٣٥) ما وقع وجري بين الصحابة رضوان الله عليهم من فتن واقتتال في أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنهما وما حصل بعد ذلك، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: (والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي إنها كثيرة وتعم الناس لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل وصفين والحرّة ومقتل عثمان ومقتل الحسين رضي الله عنهما، وهي معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم)^(٣٦).

وإذا لم يستكمل الأمر أوصافه وكان محتملاً لهذا الحدث وغيره فلا تقطع به، ويجوز التنزيل على سبيل الظن، مثاله ما صح من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما في قصة مقتل ابنها عبد الله بن الزبير، فقد وقفت وخاطبت الحجاج فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا فقال: «إن في ثقيف كذابًا ومبيرًا، فأما الكذاب فرأيناه -وتعني المختار بن أبي عبيد الثقفي- وأما المبير فلا إخالك إلا إياه»^(٣٧) فجزمت في الأول ولم تجزم في الثاني، والمبير: المهلك، وكذلك ظن الصحابة رضي الله عنهم أن ابن صياد هو الدجال الذي نعت له عليهم الصلاة والسلام، ولم يجزموا في أمره إثباتًا ولا نفيًا^(٣٨).

الضابط السادس: لا يمنع الحديث عن الفتن من باب التحذير، لكن مع عدم الخوض في التنزيل على الواقع.

الأحاديث العامة التي جاءت بأوصاف يمكن أن توجد في كل عصر مع اختلاف نسب وجودها بحيث تصبح ظاهرة عامة في عصر دون عصر ينبغي ذكرها وتحذير الناس من الوقوع في المحظورات التي نصت عليها، فقد جاء في بعض الأحاديث: «إذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة، فليل: كيف إضاعتها؟ قال: إذا أسند الأمر إلى غير أهله»^(٣٩) ولكن إذا ترتب على التحديث بها سوء فهم أو فتنة أو تكذيب فالأولى الإمساك عن التحديث بها كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: «حفظت من رسول الله جرابين: فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا

(٣٥) أخرجه مسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٥٨٨٢).

(٣٦) شرح صحيح مسلم: النووي (٨/٨١).

(٣٧) أخرجه مسلم عن أبي نؤل، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم - باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، رقم (٥٤٥٢).

(٣٨) منقذ عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في كتاب الجنائز - باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ رقم (٩٨٢١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب ذكر ابن الصياد، رقم (٣٩٢).

(٣٩) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق - باب رفع الأمانة، رقم (١٣١٦).

(٤٠) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب العلم - باب حفظ العلم، رقم (٢١).

(٤١) رواه البخاري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، كتاب الفتن - باب الفتنة التي تموج كموج البحر، رقم (٣٨٦٦).

(٤٢) الحاوي للفتاوى: السيوطي (٢/٦١١).

(٤٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في فتح قسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم، رقم (٧٩٨٢).

(٤٤) أخرجه أحمد عن أنس رضي الله عنه، مسند المكثرين من الصحابة - مسند أنس بن مالك، رقم (٤٠٣١).

تفسير دانيال وتفسير أشعيا وتفسير حزقيال.

الاعتماد على طرق ليس لها قيمة علمية.

من ذلك الاعتماد على حروف (أبي جاد)، والمراد بها (أبجد هوز... إلخ)، وكانت تستخدم طريقة حسابية للعد، ولو بقي الأمر هكذا فلا غضاضة فيه، فهو عد اصطلاحى، واستعمله الآراميون والأنباط واليهود، وقد استعمله المسلمون في نظمهم ونثرهم كما قال ابن الجزري في منظومته في التجويد: (أبياتها قاف وزاي في العدد) أي عدد أبياتها مائة وسبعة، فالقاف مائة والزاي سبعة، لكن أن تفسر النصوص الدينية بانتقاء بعض كلماتها وعدّها على هذا النحو فهذا عدوان على النصوص لا مستند له ولا دليل، وهو من قبيل التفسير الباطني المرفوض، ومنه ما ورد في (الجفر) الذي ينسب زوراً للجعفر الصادق، وهو من وضع هارون بن سعيد العجلي، وهو مشحون بالغيبات التي يقوم كثير منها على هذه الطريقة الفاسدة، ورووا في ذلك أحاديث منكورة موضوعة في الحث على تعلم طريقة (أبي جاد) واعتمادها في التفسير، وفي ذلك يقول ابن حجر: (هو باطل لا يعتمد عليه، ولا أصل له في الشريعة)^(٦١)، ومنهم من زعم أن الساعة تقوم سنة (١٤٠٧ هـ) بناء على قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ بناء على حساب حروف كلمة ﴿بَغْتَةً﴾ بطريقة عدّ أبي جاد، ومن ذلك تخرص رشاد خليفة (البهائي) باعتباره عام (١٧١٠ هـ) هو عام قيام الساعة بناء على حساب الجمل.

وكذلك من الوسائل التي لا تُعد من قواعد العلم ما سلّكه بعض الباحثين في الأحاديث التي جاءت لضرب المثل، ومنها الحديث الذي جاء فيه «إنما أجلكم فيما خلا من الأمم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود كمثّل رجل استأجر أجراً فقال: من يعمل من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم»^(٦٢)، فأخذ يعمل حساباً على عمر أمة اليهود وعمر أمة النصارى، فتبين له أن عمر أمة الإسلام بناء على هذا الحديث (٩٠٠ سنة)؛ ذلك أنه عدّ عمر أمة اليهود يعادل مجموع عمر أمتي النصارى والإسلام، فيكون (١٥٠٠ سنة) عمر أمة اليهود - (٦٠٠ سنة) عمر أمة النصارى = (٩٠٠ سنة) عمر أمة الإسلام، ولما لم يتم له ذلك في الواقع أضاف إليه (٥٠٠ سنة) مستدلاً بما رواه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم، فليل لسعد: كم نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة»^(٦٣) فيكون المجموع (١٤٠٠ سنة) وهذا ما يكذبه

الواقع أيضاً، علماً أن الخطأ وقع في منهج الاستدلال، فقد جزم إمام الحرمين الجويني فقال: (إن الأحكام لا تؤخذ من الأحاديث التي تأتي لضرب الأمثال)^(٦٤)، وقال ابن رجب: (وهذا الحديث إنما ساقه النبي صلى الله عليه وسلم مساق ضرب الأمثال، والأمثال مظنة التوسع فيها)^(٦٥)، فلا يلزم من التمثيل والتشبيه التسوية من كل جهة، فالمراد هنا كثرة العمل لا المدة الزمنية كما قال ابن حجر: (لا يلزم من كونهم أكثر عملاً أن يكونوا أكثر زماناً)^(٦٦).

التوسع في مسألة الرؤى والمنامات.

من الأخطاء في تفسير أحاديث الفتن وأشرط الساعة اعتماد الرؤى فيها، فقد عول كثيرون على المنامات في تنزيل النصوص على الوقائع حتى أخرجوا الرؤى عن الحد الذي حدّها بها النبي صلى الله عليه وسلم، ألا وهو الإشارة أو التذكرة، فأدخلوها في تفسير النصوص وإسقاطها على الواقع، ونتج عن ذلك الإقحام الذي لا يقبله الشرع سفك الدماء واستباحة الأموال، ولم يعد هناك عند كثيرين ضوابط ولا معايير، فسوّغوا الظلم والطغيان وخالفوا النصوص القطعية في الأخذ على يد الظالم لرؤيا رأوها، ومن جملة ذلك أن كثيراً ممن زعم المهدية في التاريخ كان ادعاؤه لها لرؤيا رآها كالمهدي السوداني.

موقف المسلم زمن الفتن

الاستعاذة بالله من الفتن.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»^(٦٧)، وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة استعاذته عليه الصلاة والسلام من بعض الفتن على وجه الخصوص كفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات وغيرها، جاء في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»^(٦٨).

الإكثار من العبادة.

إن لجوء المسلمين إلى ربهم وتقربهم إليه بكثرة العبادة من أسباب النجاة من الفتن، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»^(٦٩)، قال النووي: (وسبب فضل كثرة العبادة فيه - أي الهرج - أن الناس يغفلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا الأفراد)^(٧٠).

الرجوع إلى أهل العلم.

الفتنة يحصل فيها اضطراب واختلاف حتى يصير الحلّيم فيها حيران، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «ما الخمر صرّاً بأذهب

(٦٤) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري (٩٣/٢).

(٦٥) فتح الباري لابن رجب (١٤٣/٤).

(٦٦) فتح الباري لابن حجر (٢/٠٤).

(٦٧) أخرجه مسلم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب عرض

مقعد الميت من الجنة أو النار عليه... رقم (٧٦٨٢).

(٦٨) أخرجه النسائي عن أبي هريرة في كتاب الاستعاذة - باب الاستعاذة من فتنة المحيا، رقم (٨٤٩٧)،

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة، رقم (٨٧٧٠١).

(٦٩) شرح صحيح مسلم: النووي (٨٨/٨١).

(٦١) فتح الباري (١١٢/٨).

(٦٢) أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما في كتاب الأنبياء - باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم

(٢٧٢٣).

(٦٣) أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة - مسند سعد بن أبي وقاص، رقم (٤٦٤١)، وأبو

داود في كتاب الملاحم - باب قيام الساعة، رقم (٥٥٣٤).

ومناكير^(٥٧)، وهذا ما حمل كبار المحدثين كالخطيب البغدادي على التحفظ على الكثير مما ورد في الفتن والملاحم وأشرط الساعة فقال: (وليس يصح في ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة اتصلت أسانيدُها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من وجوه مرضية وطرق واضحة جلية^(٥٨)).

تحريف دلالات النصوص بالتأويلات البعيدة الفاسدة.

جاء في الحديث الذي ذكره ابن القيم وصححه لتعدد طرقه، ونقل تصحيح أحمد له عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» قال ابن القيم: (فأخبر أن الغالين يحرفون ما جاء به، والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه، والجاهلون يتأولونه على غير تأويله، وفساد الإسلام من هذه الطوائف الثلاثة^(٥٩)) فمن أوله على وجهه فهو الحق، ومن أوله على غير تأويله فقد افترى على الله ورسوله، فكيف إذا اجتمع مع سوء الفهم والتأويل سوء القصد؟

ومن تلك التفسيرات الفاسدة تأويل الأحاديث التي جاءت في الأعراف والدجال بأن المقصود بها المدنية الغربية؛ فهي تنظر إلى الإنسان بعين المادة وتغفل الجانب الروحي فيه، فهي حضارة عمياء...، هذا التأويل مخالف لما أثبتته الأحاديث التي يحكم عليها بالتواتر المعنوي بمجموعها من أن الدجال رجل فرد يغدو ويروح، ويتكلم ويفعل، ويرغب ويرهب، ويجادل ويماري، ثم يقتل بحربة نبي الله عيسى عليه السلام.

ونرى اليوم عشرات من الكتب المعاصرة للحدائثيين والعلمانيين التي تكلف أصحابها تنزيل النصوص على الوقائع بتأويلات فاسدة بعيدة، يدفعهم لهذا حب الظهور وإشغال الأمة والكسب المادي المحرم؛ والمؤسف أن الكتب التي يؤلفها هؤلاء السفهاء تجدر واجبا كبيرا عند العوام.

ومما يدخل في هذا الباب ما يراه الباحث المسلم في كتب الملاحم والفتن من عجائب الأسرائيليات المنقولة عن كتب اليهود والنصارى، فقد توسع بعض المشتغلين بأخبار الفتن في رواياتها ولم ينضبطوا بضوابط التحديث بها فجمعوا ما هبّ ودبّ، ولم يقف الأمر عند مجرد الاستئناس بها بل صارت مجالا للاستدلال بها كذلك عند قوم، وهذه آفة قديمة ذمها الخطيب البغدادي فقال: (ونظير ما ذكرناه آنفا أحاديث الملاحم وما يكون من الحوادث، فإن أكثرها موضوع وجلها مصنوع كالكتاب المنسوب إلى دانيال^(٦٠)) وبعضهم يعول كثيرا على أسفار كتب النصارى والعهد القديم، ومن الإسرائيليات

عنه فشكونا إليه ما تلقى من الحجاج فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم^(٦١)» فمع أنه حديث صحيح رده بعضهم بحجة أنه يوقع في اليأس والإحباط، وكذلك احتجوا بأن الواقع التاريخي يخالفه؛ فقد كان عهد عمر بن عبد العزيز خيرا من العهد الذي قبله باتفاق، وسيأتي عهد عيسى عليه السلام والمهدي فيكون خيرا من زمن الدجال والذي قبله، ولقد أورد هذا الإشكال ابن حجر^(٦٢)، فيبين أن المقصود بالزمان المذكور عصر الصحابة لأنهم هم المخاطبون بهذا اللفظ «لا يأتي عليكم»، وهذا ما حمل ابن حبان على القول في صححيته: إن هذا ليس على عموم بل هو من العام المخصوص، وحمله الحسن البصري على الأغلب، أو يحمل على المجموع لا الجمع؛ فقد كان في عهد الحجاج جماعة من الصحابة.

مصادمة القطعي من النصوص.

من الصور الخاطئة للتعامل مع أحاديث الفتن وأشرط الساعة الاعتماد على روايات تخالف القطعي من أمور ديننا، مثال ذلك حديث أناس عن عمر الدنيا وميعاد قيام الساعة، سواء أكان اعتمادهم على الأحاديث الواهية أو حساب الجمل أو الرؤى أو التأويل، فهذا البحث مرفوض من أصله لأنه يناقض القطعيّات في الكتاب والسنة ثبوتاً ودلالة؛ ذلك أن الله استأثر بعلم الساعة ولم يُطلع عليها ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيْهَا إِلَّا هُوَ﴾ [سورة الأعراف: آية ١٨٧] وقد استدلل البعض لتعيين وقت قيام الساعة بما روي على أنه حديث «الدنيا سبعة آلاف سنة»، وهو ما بين موضوع وشديد الضعف بلا شك، حتى إن من رواه من المحدثين كالحاكم وغيره نقله على أنه من كلام اليهود وليس من كلامه عليه الصلاة والسلام، ولا تصح مقولتهم تلك لمصادمة القطعي من نصوصنا، وقد وقع بعض أفاضل العلماء في هذا الخطأ كالإمام السيوطي في كتابه (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف^(٦٣)) فتحدث عن تواريخ لقيام الساعة، وإن مصادمة هكذا مرويات لقطعيّات الدين من علامات الحكم الظاهر على الرواية بالوضع أو الضعف عند أهل السنة.

الاعتماد على الأحاديث الواهية أو الموضوعة.

من الصور الخاطئة لإثبات الفتن وأشرط الساعة الاعتماد على المرويات الواهية والموضوعة في ذلك، ومنها كتاب الفتن للإمام نعيم بن حماد المروزي ٢٢٩هـ؛ فقد تكلم في ذلك كثير من أهل العلم، قال الإمام الذهبي: (نعيم من كبار أوعية العلم لكن لا تركز النفس إلى رواياته^(٦٤)) ثم قال: (وقد صنف في الفتن، فأتى بعجائب

(٥٣) أخرجه البخاري عن الزبير بن عدي في كتاب الفتن - باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم (٧٥٦٦).

(٥٤) انظر فتح الباري (١٢/٣١).

(٥٥) أورده السيوطي في الحاوي للفتاوى (٦٨/٢).

(٥٦) سير أعلام النبلاء (١٠٦/١).

(٥٧) سير أعلام النبلاء (٩٠٦/١).

(٥٨) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: الخطيب البغدادي (٢٦١/١).

(٥٩) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن القيم (٩٥١/١).

(٦٠) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: الخطيب البغدادي (١٦١/٢).

المهدي بين الشيعة وأهل السنة

د. علي محمد حسن الأزهرى - قسم العقيدة والفلسفة جامعة الأزهر



مقدمة

إن قضية المهدي هي إحدى أكثر القضايا جدلية في العصر الحديث؛ ذلك أنه ترتب عليها عند بعض الناس تواكل وترك للسعي في شؤون الأمة في انتظار الإمام المهدي، وهذا ما حدا ببعض الدعاة العقليين إلى إنكارها، وترتب عليها عند بعض طوائف الشيعة العمل على إشاعة الفوضى والظلم واستحلال الدماء تعجباً لخروجه.

وقد اتفق السنة والشيعة على مجيء المهدي، وجاءت الروايات متعاضدة على ذلك، لكن هذا لا يعني الاتفاق فيما وراء ذلك؛ فبينما لم يكن المهدي عند السنة سوى رجل صالح أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقدومه في آخر الزمان، يؤمن المسلمون بما صح من صفته وسيرته كأبي من الأخبار النبوية الأخرى دون أثر لهذا الخبر في الحكم على الناس بالإيمان والكفر، أصبح عند الشيعة جزءاً من الإيمان والشرعية حتى طغى على أسس الدين الأخرى، وترتب على الإخبار به أشياء كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان مما لا يقبله عقل ولا يقره نقل، ووصل بهم الأمر إلى اصطناع الروايات واختلاق الأحاديث وكذبها على أئمة آل البيت الأطهار رضوان الله عليهم أجمعين؛ فحسبنا دراسة قضية المهدي وحدها عند الشيعة لناخذ نموذجاً عن الضياع والشتات الذي عاشه الشيعة في التاريخ الغابر ويعيشونه يومنا الحاضر.

وجاء الحديث عن هذه المسألة في بحثين:

المبحث الأول: المهدي في ضوء عقيدة الشيعة.

المبحث الثاني: المهدي في ضوء عقيدة أهل السنة.

وختمت ذلك بجدول للمقارنة ثم تعقيب بعنوان: أي المهديين أحق أن يتبع؟

المبحث الأول:

المهدي في ضوء عقيدة الشيعة

المطلب الأول: ولادة المهدي ونسبه

أولاً: مولده

تعد عقيدة المهدي المنتظر من العقائد الأساسية عند الشيعة لا سيما أنهم قد توارثوها عبر الأجيال، وزادوا عليها مسألة الإمام الغائب، وقد اختلفوا في يوم مولده على خمسة أقوال: قيل إنه ولد سنة خمس وخمسين ومائتين في ليلة النصف من شعبان^(١)، وقيل إنه ولد سنة ست وخمسين ومائتين^(٢)، وقيل أيضاً: إن المهدي وُلِدَ سنة أربع وخمسين ومائتين^(٣)، وفي قول رابع أن المهدي وُلِدَ في ثالث وعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين ومائتين^(٤)، وفي خامس أن المهدي وُلِدَ سنة سبع وخمسين ومائتين^(٥).

ثانياً: المهدي المنتظر عند الشيعة الإمامية من نسل الحسين رضي الله عنه.

ورد في كتبهم أن رسول الله ﷺ ليلة وفاته أملى على علي وصيته، وقال: «سيكون بعدي اثنا عشر إماماً، ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً، فأنت يا علي أول الاثني عشر إماماً، وذكرهم حتى وصل إلى الحسن، وقال: إذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد المستحفظ من آل محمد عليهم السلام، فذلك اثنا عشر إماماً، ثم يكون من بعده اثنا عشر مهدياً، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه أول المقرّبين، له ثلاثة أسام: اسم كاسمي واسم أبي وهو عبد الله وأحمد، والاسم الثالث المهدي، وهو أول المؤمنين»^(٦).

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢/٣١).

(٢) المرجع السابق (٤/٣١).

(٣) المرجع السابق (٧١/٣١).

(٤) المرجع السابق (٣٢/٣١).

(٥) المرجع السابق (٥٢/٣١).

(٦) مختصر بصائر الدرجات (ص ٤٤-٣٤).

فليعذبه^(٧٦) وجاء في وصف بعض الفتن أن اللسان فيها كحد السيف كما في الحديث: «ستكون فتنة صمّاء بكماء عمياء، من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقع السيف»^(٧٧).

التحلي بالصبر والمصابرة.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [سورة الفرقان: آية ٢٠] فإذا كان الصبر مطلوباً وعواقبه محمودة في كل حين ففي زمن الفتن من باب أولى، جاء في الحديث: «إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبّر»^(٧٨) فأعظم سلاح أيام الفتن والمحن الصبر والمصابرة.

لزوم جماعة المسلمين على العموم أو العزلة.

جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه: (فما تأمرني إن أدركني ذلك؟) قَالَ: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم» قلتُ: (فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟) قَالَ: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعص بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنْتَ على ذلك»^(٧٩)، والعزلة قد تكون بدنية أو شعورية، جزئية أو كلية، فلزوم الجماعة واجتماع الكلمة من مقاصد الشريعة الكبرى، ويترك الفاضل للمفضول لأجل اجتماع الكلمة؛ فابن مسعود أتم الصلاة في منى خلف عثمان مع أنه كان يروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلي في منى ركعتين، فلما سئل عن ذلك قال: «يا هذا! الخلاف شر»^(٨٠) وفي رواية: «إني لأكره الخلاف»^(٨١)، وقد بين الإمام الشافعي رحمه الله المقصود بلزوم الجماعة فقال: «إن معنى لزوم الجماعة ليس باجتماع الأبدان لأنه لا يصنع شيئاً، ولكن المعنى لزوم ما عليهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما»^(٨٢).

نسأل الله السلامة من الفتن ما ظهر منها وما بطن والحمد لله رب العالمين.

لعقول الرجال من الفتن»^(٨٣)، فأهل العلم أقدر الناس على بيان المشتبهات وعلى تقدير المصالح والمفاسد والترجيح بينها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء: آية ٨٣] قال الطبري: (هم العلماء وذو الرأي والحكمة، فترد الأمور إلى أهلها من ذوي الحل والعقد من العلماء)^(٨٤).

وإن من أهم محددات المواقف في الفتن مراعاة المآلات والنظر في العواقب ولو بالرجحان وغلبة الظن فضلاً عن اليقين، فقد تستغل المواقف وتمضي الأمور إلى غير ما قصد لها، وهذا يدركه الحذاق والمجربون.

وإن ثبات الربانيين في الفتن كان له دور مهم في تثبيت الأمة وحفظ الدين، ففي موقف الإمام أحمد يوم فتنة القول بخلق القرآن أجلى مثل على ذلك، كان لموقفه رحمه الله أكبر الأثر في تثبيت الخاصة والعامة، قال علي بن المديني: (أعز الله الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة)^(٨٥).

وإن من مخاطر الفتن أن يتكلم (الروبيضة) وهو الرجل التافه يتكلم في أمر العامة كما جاء في الحديث الصحيح^(٨٦)، وكما في الحديث: «من أشرط الساعة أن يلتبس العلم عند الأصاغر»^(٨٧) وقد أتاحت الوسائل الإعلامية الحديثة الفرصة لهذا النوع من الناس ليدلوا برأيهم في قضايا كبرى.

وإن من مخاطر الفتن الانزلاق خلف علماء السوء، الذين يبيعون دينهم وعلمهم بعرض من الدنيا قليل، وهؤلاء أشبه الناس باليهود المغضوب عليهم؛ لأنهم عرفوا الحق وأعرضوا عنه، قال سفيان بن عيينة رحمه الله: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصاري)^(٨٨).

عدم الاندفاع والاستشراف لها وحفظ اللسان.

من واجب المسلم تجاه الفتنة أن يحفظ لسانه ويبعد نفسه عن الوقوع فيها، وحسبنا ما جاء في الحديث: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاذاً

(٧٠) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف - كتاب الفتن، (٨/ ٧٣٢).

(٧١) تفسير الطبري (٢٨١/٥).

(٧٢) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (٨١٤/٤)، سير أعلام النبلاء (١١/ ٦٩١).

(٧٣) رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة - مسند أبي هريرة، رقم (٩٩٨٧).

(٧٤) المعجم الكبير للطبراني، مكتبة ابن تيمية ط ٢ رقم (٨٠٩)، جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر، دار ابن الجوزي، ط ١، باب حال العلم إذا كان عند الفساق والأرذال، رقم (١٥٠١).

(٧٥) تفسير ابن كثير (١٢١/٤).

(٧٦) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام،

رقم (٦٠٤٣)، ورواه مسلم في كتاب الفتن وأشرط الساعة - باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم (٦٨٨٢).

(٧٧) أخرجه أبو داود بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الفتن والملاحم - باب كف

اللسان، رقم (٤٦٢٤)، وبعضه مروي في الصحاح.

(٧٨) أخرجه أبو داود عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه في كتاب الفتن والملاحم - باب في النهي عن

السعي في الفتنة، رقم (٣٦٢٤).

(٧٩) متفق عليه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: رواه البخاري في كتاب الفتن - باب كيف الأمر إذا لم

تكن جماعة، رقم (٣٧٦٦)، ومسلم في كتاب الإمارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور

الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة، رقم (٧٤٨١).

(٨٠) أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن يزيد في كتاب المناسك - باب الصلاة بمنى، رقم (١٠٦٩١).

(٨١) أخرجه البيهقي عن معاوية بن قرة في كتاب الصلاة - باب السفر الذي تقصر في مثله الصلاة، رقم

(٤٦٥).

(٨٢) الرسالة (٥٧٤).

على خلقه، وإن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، فقال: إن هذا حق كما أن النهار حق، فقيل: يا ابن رسول الله فمن الحجة والإمام بعدك؟ فقال: ابني محمد هو الإمام والحجة بعدي، فمن مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية^(٣٧).

عن محمد بن إبراهيم الكوفي: أن أبا محمد عليه السلام بعث إلى بعض من سماه لي بشاة مذبوحة، وقال: هذه من عقيقة ابني محمد^(٣٨).

ويمكن الرد على الحديثين السابقين بهذا النص مات الحسن العسكري ولم يكن له ولد كما جاءت الرواية (توفي ولم ير له أثر، ولم يُعرف له ولد ظاهر، فاقسم ميراثه أخوه جعفر وأمه^(٣٩)) فلا وجود له ولا غيبة.

إن الروايات الشيعة حول المهدي المنتظر لم تتوقف عند ذكره ووصفه بل انتقلت لتتحدث عن وقت ظهوره، وكما تضاربت رواياتهم في مجمل صفات المهدي فقد تباينت أيضاً في وقت ظهوره، ومن العجب أن هذه الأقوال كلها ساقها المجلسي في كتابه بحار الأنوار، ويمكن بيان دلالة ذلك من خلال ما يلي:

القول الأول: ظهوره يوم النوروز، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يوم النوروز هو اليوم الذي يظهر فيه قائمنا -أهل البيت وولاءة الأمر- ويظفره الله تعالى^(٤٠)، والنوروز عيد الفرس ومن عاش معهم، يحتفلون فيه بقدوم الربيع.

القول الثاني والثالث: ظهوره يوم عاشوراء يوم السبت، قال أبو جعفر عليه السلام: كأي بالقائم يوم عاشوراء يوم السبت قائماً بين الركن والمقام بين يديه جبرائيل عليه السلام ينادي: البيعة لله، فيملاً الله به الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً^(٤١)، ولماذا يوم السبت؟ لأن اليهود تعظم هذا اليوم كما هو معلوم.

القول الرابع: ظهوره يوم الجمعة أفضل الأعياد، وهو الثامن عشر من ذي الحجة، وكان يوم الجمعة، ويخرج قائمنا -أهل البيت- يوم الجمعة، وتقوم القيامة يوم الجمعة، وما من عمل أفضل يوم الجمعة من الصلاة على محمد وآله...^(٤٢).

القول الخامس: عدم تحديد ظهوره بيوم، يقول المجلسي: عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: يقوم القائم عليه السلام في وتر من السنين: تسع، واحدة، ثلاث، خمس...^(٤٣).

ثم تضاربت أقوال الشيعة الإمامية، فأعلن الفريق الثاني رفضهم لتحديد ظهور المهدي، واستدلوا بجملة من الأحاديث أسوق

قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: آية ٥٩] ذكر علماء الشيعة أن المراد بأولي الأمر هنا الإمام المهدي وآبؤه الكرام عليهم السلام^(٤٤).

قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: آية ٢٠] ويفسر علماء الشيعة هذه الآية بأن مراد الله تعالى هنا هو المهدي الحجة، فهو الغيب وهو المنتظر، قال القندوزي: (الغيب في هذه الآية هو الحجة القائم...)^(٤٥).

والحق أن المجلسي أفرد باباً بعنوان (إنهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب ومعناه) الآيات: آل عمران ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩]^(٤٦)، والسؤال لماذا دون المجلسي هذا الباب في كتابه بحار الأنوار ولم يعقب بعده بشيء؟ فانتفى أن المراد هو المهدي كما زعمت الشيعة.

وذكروا أكثر من مائة دليل من القرآن يصرفون مراد الله تعالى إلى معتقدهم، وما تفسيراتهم إلا من بدع وغرائب التفسير وشواذه.

ثالثاً: المهدي في السنة عند الشيعة:

ذكر علماء الشيعة الإمامية أكثر من ثلاثة آلاف حديث كلها تدلل على وجود المهدي المنتظر، وإليك أيها القارئ بعضاً من هذه الأحاديث:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن علياً إمام أمتي من بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي إذا ظهر يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً إن الثابتين على القول بإمامته في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر...»^(٤٧).

ولم يذكر القندوزي أي سند سوى قوله قال ابن عباس، فهل عاصر ابن عباس حتى يسمع منه؟! ناهيك عن هذه المغالاة التي لا يقرها صريح نقل، ولا يقبلها صحيح عقل.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تذهب الدنيا حتى يبعث الله رجلاً من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً»^(٤٨) وهذا الحديث يُنافي كل ما ذكره الشيعة واستدلوا به؛ فليس هو المهدي ابن الحسن العسكري، وإنما هو محمد أو أحمد بن عبد الله كما جاء في الحديث.

عن أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام في الخبر الذي روي عن آبائه عليهم السلام: «إن الأرض لا تخلو من حجة لله

(١٨) المهدي عجل الله فرجه في القرآن والسنة (ص ٣٢-٥٢).

(١٩) ينابيع المودة للقندوزي (ص ٨٠٥).

(٢٠) بحار الأنوار (ج ٦٢-٨٩).

(٢١) ينابيع المودة (ج ٣-٧٦٢ و ٨٦٢).

(٢٢) بحار الأنوار (ج ١٥-٢٨).

(٢٣) وسائل الشيعة للحر العاملي (ج ٦١-٦٤٢).

(٢٤) بحار الأنوار (ج ١٥-٥١).

(٢٥) فرق الشيعة (ص ٧٩).

(٢٦) بحار الأنوار (ج ٢٥-٦٧٢).

(٢٧) بحار الأنوار (ج ٢٥-٩٢).

(٢٨) بحار الأنوار (ج ٦٥-٧٢).

(٢٩) (٤) بحار الأنوار (ج ٢٥-٥٣٢).

لم تحدث لا لنبي مرسل ولا لعبد ولي - وكان سيد الخلق رسولنا صلى الله عليه وسلم أولى بذلك - إذ كان الحمل والوضع في ليلة واحدة إضافة إلى نطقه في المهد وهو صغير، فكل الروايات التي وردت في شأن ولادة المهدي^(١) غير صحيحة بل يناقض بعضها بعضاً، وأيضاً تزامن مع نزوله أنه نطق بالشهادتين، وأنه رفع سبابته إلى السماء، وأنه عرفهم نفسه بأنه خاتم الأئمة.

المطلب الثاني: أسماء المهدي وذكره في القرآن

والسنة بزعم الشيعة وقضية الغيبة

أولاً: أسماء المهدي المنتظر عند الشيعة:

ذكروا للمهدي ما يزيد عن مائة وستة وثمانين اسماً ولقباً، من أبرزها: (أبو القاسم وأبو عبدالله وأبو جعفر وأبو تارب والأصل وأمير الأمراء...) (٢) وهذه الأسماء كلها لم يرد عليها دليل صحيح؛ فالحديث الذي جمع هذه الأسماء مروى عن راوٍ كذاب يُسمى «محمد بن جمهور العمي» (٣).

ثانياً: المهدي في القرآن عند الشيعة:

استدل الشيعة الإمامية بكثير من الآيات التي يؤكدون من خلالها أنها نزلت في الإمام المهدي وأصحابه، ومن جملة هذه الآيات على سبيل المثال ما يلي:

قول الله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [سورة القصص: آية ٥] والمعنى كما فسره جمهور الإمامية: (جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام: لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها، وتلا عقيب ذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ وأشار إلى أصحاب المهدي رضي الله عنهم بقوله: (ألا بأبي وأمي هم من عدة، أسماؤهم في السماء معروفة، وفي الأرض مجهولة...) (٤).

ومن المعلوم أن سورة القصص مكية، نزلت بتمامها قبل خلافة الشيخين وقبل الهجرة، فمن أين جزمتم بأنها تختص بالمهدي ولم يكن الإمام الأول قد نُصّب بعد أو بوسع؟ (٥).

قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: آية ٢٠٠] قالوا في تفسيره: (اصبروا على أداء الفرائض، وصابروا على أذية عدوكم، ورابطوا إمامكم المهدي المنتظر) (٦).

وقد جاءت نصوص أخرى عند الشيعة تبرهن على أن المهدي أو بعارة أخرى الأئمة بعد الحسن رضي الله عنه من نسل الحسين رضي الله عنه (٧).

والحق أن هذه روايات غير صحيحة كما جزم بذلك علماء الشيعة أنفسهم؛ فقد جاءت رواياتٌ نسبتُ إلى الحسين بأسانيد غير معلومة، فالرواية عن مجهول عن مجهول آخر ومجهول ثالث، بل هذه الرواية تناقض رواية أخرى أن الإمام زيد بن علي ابن الحسين كان يعتبر نفسه إماماً، وكان يقول: (لَيْسَ الْإِمَامُ مِنَّا مَنْ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ وَأَرْخَى سِتْرَهُ وَتَبَطَّ عَنِ الْجِهَادِ، وَلَكِنَّ الْإِمَامَ مِنَّا مَنْ مَنَعَ حَوَزَتَهُ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَدَبَّ عَنْ حَرِيمِهِ) (٨) فهذه الرواية تثبت أن زيد بن علي ابن الحسين لم يكن مقراً بإمامة أخيه الباقر، ويترتب على ذلك أن كل من جاء من نسله فهو ليس بإمام، وعلى ذلك فلا إمامة للمهدي المُدَّعى بنص الحديث السابق.

ثالثاً: أم المهدي المنتظر:

اختلفوا أيضاً في اسم أمه على عدة أقوال: منها نرجس وسوسن وصقيل إلى غير ذلك (٩).

والحق أن الروايات الواردة في اسم أم المهدي جاءت بدون سند، بل جاءت رواية أخرى عن منجم يهودي بقم، فهل يمكن أن يستدل على نسب إمام من الأئمة وعليه مدار آخر الزمان برواية اليهودي؟ بل من العجب أن الشيعة أنفسهم استدلووا بحديث نهى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديق العرافين والمنجمين، ففي الحديث عند المجلسي صاحب بحار الأنوار في باب مناهي النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَّهُ نَهَى عَنْ إِيْتَانِ الْعَرَّافِ، وَقَالَ: «مَنْ أَنَاهُ فَصَدَقَهُ فَقَدْ بَرَّيَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» (١٠).

رابعاً: كيفية الولادة المعجزة للمهدي عند الشيعة:

جاء في روايات الشيعة ما يدل على أن حمل المهدي وولادته كانا في يوم واحد، بل لم يظهر على أمه أثر من حمل إلا وقت الفجر، ولم تشعر بالأم، وأنه نطق وهو في بطن أمه، وولد ساجداً على وجهه جاثياً على ركبتيه رافعاً سبابتيه نحو السماء وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن جدِّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم تناوله طائرٌ وطار به في جو السماء، وعند الأربعين من يوم مولده كان يمشي كطفل عنده ستان (١١).

والملاحظ أن ولادة المهدي المنتظر عند الشيعة جاءت معجزة

(١٢) بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٤٦٣) حديث رقم (١٥).

(١٣) إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب (ج ١ - ص ١٨٤ - ٢٨٤).

(١٤) رجال ابن داود (ص ١٧٢).

(١٥) ينابيع المودة (ج ٣ - ص ٨٤٢).

(١٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (ج ٢١ - ص ١٦١).

(١٧) ينابيع المودة (ج ٣ - ص ٦١٢).

(٧) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (ص ٣).

(٨) الكافي للكليني، كتاب الحجّة، باب ما يُفَضَّلُ بِهِ تَبَيُّنُ دَعْوَى الْمُحَقِّقِ وَالْمُبْتَغِي فِي أَمْرِ الْأَعْمَةِ (ج ١ - ص ٥٧٣) حديث رقم (٦١).

(٩) الإمام المهدي من المهد إلى الظهور (ص ٨١١).

(١٠) بحار الأنوار (ج ٣٧ - ص ٣٠٣).

(١١) بحار الأنوار (ج ٣١ - ص ٤١ - ٤١) حديث رقم (٤١).

من يثبت على إيمانه^(٣٧).

ظهور الظلم والفساد؛ ليعلم أهل الأرض مقدار المهدي المنتظر، ففي الحديث المروي عن الشيعة: «المهدي الذي يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً يكون له حيرة وغيبة، تضلّ فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون»^(٣٨).

كرامة مجاورة أهل الظلم والطغيان.

وهذا الاعتزال هو اختيار الله للمهدي وليس اختيار المهدي لنفسه؛ غضباً منه سبحانه وتعالى على أعدائه الظالمين، قال أبو عبد الله الإمام الصادق: «إن أشد ما يكون الله غضباً على أعدائه إذا أفقدهم حجته فلم يظهر لهم»^(٣٩).

والحق أن ما ذكره علماء الشيعة من التبرير لغيبة المهدي المنتظر ما هو إلا محض هروب من الضياع الذي يشعرون به إزاء هذه القضية الغريبة.

” يظهر المهدي المنتظر حسب قول الشيعة عند اكتمال أصحابه ثلاث مائة

وبضعة عشر رجلاً، والمعلوم أن الظهور ضد الخفاء، أي سيظهر عياناً بيّناً للناس، وعندما يكتمل أصحابه سيبدو للخلق أجمعين

الغيبة سر من أسرار الله تعالى، هكذا يُعلّل الشيعة غيبة المهدي المنتظر عندهم: (وجه الحكمة في غيبته وجه الحكمة في غيابات من تقدمه من حجج الله تعالى ذكره، إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى عليه السلام إلا وقت افتراقهما، يا ابن الفضل إن هذا الامر أمر من أمر الله وسر من سر الله وغيب من غيب الله، ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم، صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف لنا)^(٤٠).

كانت هذه النصوص تُصادم قول النبوختي^(٤١) صاحب فرق الشيعة الذي جزم بقوله: (إن الحسن العسكري قد توفي وليس له عقب أي وريث ولا ولد)^(٤٢)، وما على المسلم ليعرف بطلان ما يدعيه الشيعة من الغيبة المبنية على دعوى وجود ولد للإمام

الحسن العسكري إلا أن يعود إلى النبوختي الشيعي في كتابه فرق الشيعة؛ ليطلع على الضياع الذي عاشته الشيعة بعد موت أبي الحسن العسكري دون ولد، وكيف سوّغوا ذلك بأنه بعد موته عاد إلى الحياة لكونه المهدي، بينما ادعى آخرون ولادة طفل له بعد موته بثمانية شهور لكنهم اصطدموا بما روي عن أبي عبد الله قال: (لَا يَمُوتُ الْإِمَامُ حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ فَيُوصِي إِلَيْهِ)^(٤٣)؛ فأُنكرت فرق منهم ذلك وسلخوا سبلاً أخرى.

المطلب الثالث: رؤية المهدي المنتظر في الغيبة وعلامات ظهوره

أولاً: من رأى المهدي المنتظر في الغيبة الكبرى؟

بعد اختلاف الشيعة إثر موت الإمام الحسن العسكري بلا ولد غلبت الفرقة التي تدعي وجود طفل غائب له، ثم قاموا بإشاعة روايات مختلفة للتغطية على السقوط الفاضح للعقيدة الباطلة التي نسبوها إلى أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم زورا وبهتانا، فرووا عن بعضهم أنهم كانوا يلتقون بالمهدي الغائب.

ذكر علماء الشيعة الإمامية جملة من الأدلة تؤكد على أن قلة قليلة شرفوا برؤية المهدي المنتظر وقت غيبته، وكان منهم (امرأة يقال لها فاطمة، زوجة رجل يدعى النجم ويلقب بالأسود، فقد أصاب الرجل وزوجته العمى وبقي على حالة ضعيفة، وكان ذلك في سنة اثنتي عشرة وسبع مائة، وبقي على ذلك مدة مديدة، فلما كان في بعض الليل أحسّت المرأة بيد تمرّ على وجهها، وقائل يقول: قد أذهب الله عنك العمى فقومي إلى زوجك أبي علي، فلا تقصري في خدمته، ففتحت عينها فإذا الدار قد امتلأت نوراً، وعلمت أنه القائم)^(٤٤).

وأثبتوا في مؤلفاتهم أن مَن رآه أيضاً أحد علماء الشيعة الزيدية، وهو المسمى بعطوة العلوي الحسيني، وكان منكرًا لوجود المهدي، وكان هذا الرجل به مرض، فلما رأى المهدي شفي من مرضه^(٤٥).

ثانياً: مكان غيبة المهدي المنتظر عند الشيعة الإمامية:

ذهب فريق منهم إلى أنه لا يُعلم له مكان، وذهب فريق آخر إلى أن المهدي مقيم في المدينة المنورة؛ وقال جماعة: إن المهدي يقيم في واد من وديان مكة، وقال جماعة أيضاً: إنه يقيم بسرّادب في سامراء، والعجيب أنه ربما في كتاب واحد لواحد من أبرز علماء الشيعة وهو الكليني صاحب الكافي يقع الاختلاف في تحديد مكان غيبة المهدي المنتظر، ويمكن ذكر أقوالهم مدعومة

(٣٧) الكافي (ج ١ - ص ٨٣٣).

(٣٨) الغيبة للطوسي (ص ٥٦١ - ٦٦١).

(٣٩) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٥٩)، والإمام المنتظر من ولادته إلى دولته (ص ٤٣١ و ٩٣١) بتصرف.

(٤٠) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ١٩)، علل الشرائع (ج ١ - ص ١١٢ و ٢١٢).

(٤١) أبو محمد الحسن بن موسى النبوختي، متكلم وفيلسوف من أعلام الإمامية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، صاحب كتاب الآراء والديانات وكتاب فرق الشيعة وغيرها من المصنفات.

(٤٢) فرق الشيعة (ص ٧٩).

(٤٣) الكافي باب أن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود من واجد إلى واجد (عليهم السلام) حديث رقم (٥) (ج ١ - ص ٧٧٢).

(٤٤) إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب للحرثي (ج ٢ - ص ١١).

(٤٥) كشف الغمّة في معرفة الأئمة (ج ٢ - ص ١٠٣ و ١٠٣).

بعضها:

عن عبد الرحمن بن كثير قال: (كنت عند أبي عبد الله -عليه السلام- إذ دخل عليه مهزم، فقال له: جعلت فداك أخبرني عن هذا الأمر الذي تنتظره متى هو؟ فقال: يا مهزم كذب الوقاتون، وهلك المستعجلون، ونجا المسلمون).

عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر -عليه السلام- قال قلت له: لهذا الأمر وقت؟ فقال: (كذب الوقاتون، كذب الوقاتون، إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعداهم ثلاثين يوماً، فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى، فصنعوا ما صنعوا، فإذا حدثناكم بحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم بحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، تؤجروا مرتين)^(٣٠).

وفي اختلافهم رد عليهم حيث لم يتفقوا على توقيت ظهور المهدي أو عدم توقيته من خلال روايات يكذب بعضها بعضاً.

رابعا: غيبة المهدي المنتظر عند الشيعة:

والغيبة عندهم تعني اختفاء المهدي المنتظر فترة من الزمن، ولقد قسموا الغيبة قسمين:

القسم الأول الغيبة الصغرى:

وكان سببها خوف المهدي المنتظر من القتل حيث نسب الشيعة للخلفاء العباسيين ملاحقة المهدي لقتله، وقد بدأت فترة الغيبة الصغرى -بحسب رواية الشيعة- بوفاة الإمام الحسن العسكري -عليه السلام- عام ٢٦٠ هـ حيث كان عمر الإمام المهدي خمس سنين تقريباً، واستمرت قرابة ٧٠ سنة حتى عام ٣٢٩ هـ حيث انتهت بوفاة السفير الرابع وبداية الغيبة الكبرى.

ودليل الشيعة على الغيبة المزعومة ما روي عن أبي بصير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كان أبو جعفر يقول: (لقائم آل محمد غيبتان: واحدة طويلة والأخرى قصيرة، قال فقال لي: نعم يا أبا بصير، أحدهما أطول من الأخرى)^(٣١).

أسباب الغيبة الصغرى:

ذكر الشيعة عدة دواعٍ للغيبة الصغرى تدور حول سببين رئيسين: الأول منهما الخوف على المهدي المنتظر من قتل العباسيين له، واستدلوا بحديث نسبوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا بد للغلام من غيبة، فقليل له: ولم يا رسول الله؟ قال: يخاف القتل»^(٣٢) والثاني: تهيئة الأمة بأكملها للغيبة الكبرى، التي بدأت من عام ٣٢٩ هـ بموت السفير الرابع للمهدي المنتظر.

سفراء المهدي في الغيبة الصغرى:

ادعى الشيعة أن لمهديهم الغائب أربعة سفراء: السفير الأول: أبو عمر عثمان بن سعيد العمري، وقد كان نائباً أيضاً لوالده الإمام العسكري^(٣٣)، وظل سفيراً أو نائباً للمهدي مدة خمس سنوات.

السفير الثاني: أبو جعفر محمد بن عثمان بن سعيد العمري، وقد ذكره الإمام العسكري والد المهدي وزكاه وأشهد الناس أنه وكيله، وولده أيضاً وكيل للإمام المهدي^(٣٤)، وظل أيضاً نائباً للمهدي مدة أربعين سنة.

السفير الثالث: أبو القاسم حسين بن روح النوبختي؛ ذكره وأثنى عليه محمد بن عثمان العمري قبل وفاته بفترة^(٣٥)، وظل نائباً للمهدي مدة إحدى وعشرين سنة.

السفير الرابع: أبو الحسن علي بن محمد السمری؛ وفي نهاية سفارته خرج التوقيع من الإمام المهدي يخبر الناس بانتهاء الغيبة الصغرى وبدء الغيبة الكبرى، فكتب المهدي بزعهم: «بسم الله الرحمن الرحيم، يا علي بن محمد السمری! أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بإذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب وامتلاء الأرض جوراً، وسيأتي لشيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفينائي والصيحة فهو كذاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(٣٦)، وظلت فترة نيابته عن المهدي مدة ثلاث سنوات كما يذكر الشيعة.

والسؤال المنطقي هنا: ما الدليل على كون هؤلاء سفراء عن المهدي؟ ألم يظهر خلقٌ كثيرون يدعون أنهم نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا كلهم ممن ادعى النبوة زوراً وبهتاناً؟ فليس هناك من دليل صحيح على صحة سفارة هؤلاء عن المهدي عند الشيعة على فرض القول بأنه قد ولد شخص اسمه المهدي في ذلك الزمن؟

القسم الثاني: الغيبة الكبرى

بدأت من عام ٣٢٩ هـ بموت السفير الرابع للمهدي المنتظر.

لماذا الغيبة الكبرى؟

ذكر علماء الشيعة عدة أسباب، منها على سبيل المثال:

تمحيص المؤمنين في زمن الغيبة الكبرى؛ فإن الامتحان الأصعب على المؤمن أن يمر بمرحلة الابتلاء أو الاختبار، فالمؤمن القوي

(٣٣) إراجع: بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٤٤٣).

(٣٤) ينظر: بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٦٤٣).

(٣٥) إراجع: بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٦٤٣).

(٣٦) بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ١٦٣).

(٣٠) الغيبة (ص ٤٠٣ - ٥٠٣).

(٣١) بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٥٦٣).

(٣٢) علل الشرائع (ج ١ - ص ٣٤٢).

خاتمة:

بعد أن طوفنا حول عقيدة المهدي المنتظر عند الشيعة يتضح لنا بجلاء أن هذه العقيدة مليئة بالتناقضات، بالإضافة إلى ما تضمنته من معارضة الشرع والعقل والواقع الذي نقله المؤرخون.

ولعلنا نستطيع أن نلخص ما سبق في عدة نقاط:

الأولى: المهدي شخص مجهول مختلف فيه وُلد أم لا، وعلى فرض ولادته فلا يعلم ذلك على وجه التحديد، وهل كان في حياة والده أم بعده، وعلى فرض ولادة هذا الشخص ذهب قسم من الشيعة إلى أن عمه جعفر هو الإمام بعد الحسن العسكري؛ واختلفوا في اسم أمه، وبلغ الغلو ببعضهم أن يدعي أنها حفيدة قيصر ملك الروم ليضفي هالة على هذه الشخصية المجهولة.

الثانية: لقد حاول الشيعة إضفاء هالة من التقديس على هذه الشخصية الوهمية، فنسبوا لها ما لم يكن لنبي ولا رسول، فادعى بعضهم أن أمه حملت به وولدت في ليلة، ولم يكتفوا بذلك حتى ادعوا أنه خر ساجداً يوم ولادته، رافعاً سبابتة للسماء قائلاً: أنا المهدي أنا الحجة...، ثم زعموا أنه مشى في اليوم الأربعين من عمره، وغير ذلك من خوارق لم تكن لنبي ولا رسول.

الثالثة: إن التاريخ يؤيد عدم وجود ولد للإمام الحادي عشر الحسن العسكري، وهذا ما اضطر علماء الشيعة إلى اختراع مسألة قيامه الحسن العسكري بعد الموت، ثم مسألة الغيبة الصغرى والكبرى ووجود النواب لابنه المهدي المزعوم، واخترعوا لذلك الأقاويل والروايات وكذبوها على أئمة أهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

الرابعة: تصور كتب الشيعة الإمام المهدي شخصاً دموياً يخرب البلاد ويشرد العباد، ويعمل السيف في العرب وقريش خاصة، ويهدم المساجد ويمتهن أم المؤمنين عائشة وأباها الصديق وخليفته عمر رضي الله عنهم من خلال نبش قبورهم وإخراج أجسادهم للانتقام منهم.

الخامسة: يأتي المهدي بشرع جديد يخالف ما كان معروفاً قبله، ويأتي بعلامات موسى عليه السلام، ويحكم بشريعة داود، ويتكلم بالعبرانية، وهذا يوضح أثر العقيدة اليهودية على الروافض منذ أمد بعيد.

كل ما سبق يدعو عقلاء الشيعة لإعادة النظر فيما امتلأت به كتبهم من الأكاذيب والدعاوى الباطلة التي بنوا عليها دينهم ومنهج حياتهم.

إن التاريخ يؤيد عدم وجود ولد للإمام الحادي عشر الحسن العسكري، وهذا ما اضطر علماء الشيعة إلى اختراع مسألة قيامه الحسن العسكري بعد الموت

خامساً: شرائع وأحكام المهدي المنتظر:

ومن جملة الشرائع أو الأحكام التي يُقرها المهدي المنتظر عند الشيعة استحلال الدماء، عن ابن تغلب قال: (قال لي أبو عبد الله: دمان في الإسلام حلالٌ من الله لا يقضي فيهما أحدٌ حتى يبعث الله قائمنا أهل البيت، فإذا بعث الله عز وجل قائمنا - أهل البيت - حكم فيهما بحكم الله لا يريد عليهما بينة: الزاني المحصن يجرمه، ومانع الزكاة يضرب عنقه^(٦٥)) ومن شرائعه أيضاً حجب الأخ الشقيق من الإرث، وإعطاء الإرث لغير الشقيق^(٦٦).

ومن جملة شرائع المهدي المنتظر فور خروجه من الغيبة الكبرى وظهوره للناس وفق كتب الشيعة أنه سيهدم المساجد^(٦٧)، وينسخ الشرع^(٦٨)، ويهين أمهات المؤمنين^(٦٩)، ويمتهن حرمة الأموات^(٧٠)، ويحكم بحكم آل داود^(٧١)، ويتكلم بالعبرانية^(٧٢)، وقد بُعثَ نعمة ولم يُبعثْ نعمة^(٧٣).

ولو فرضنا صحة الأحاديث الواردة في شأن المهدي عند الشيعة فإننا نجد شخصاً عدوانياً مبدلاً لشرع الله؛ مخالفاً لما جاء به جده النبي صلى الله عليه وسلم ولما كان عليه الأئمة، وأنه لا يأبه لحرمة الموتى، وأنه جاء لينتقم لا ليقم شرعاً، وأن هدفه هو خراب الأرض لا تعمیرها، وأنه يريد القضاء على الدين بهدمه للمساجد وتخريب الكعبة، وأنه جاء نعمة كما سبق.

إن صفات المهدي عند الشيعة لا تعكس الواقع بمقدار ما تعكس الحقد المجوسي على العرب والكره اليهودي للإسلام، بل هي أقرب لصفات الدجال الذي ينتظره اليهود من المهدي الذي تحدث عنه الإسلام.

(٦٥) الكافي (ج ٢ - ص ٣٠٥).

(٦٦) بحار الأنوار (ج ٦ - ص ٩٤٢).

(٦٧) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٩٣٣).

(٦٨) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، (ج ٢ - ص ٤٨٣).

(٦٩) علل الشرائع (ج ٢ - ص ٥٨٥).

(٧٠) بحار الأنوار (ج ٣٥ - ص ٢١١).

(٧١) الكافي (ج ١ - ص ٧٩٣ و ٨٩٣).

(٧٢) الغيبة (ص ٣١٣).

(٧٣) الكافي (ج ٨ - ص ٣٣٢).

بأدلتهم على النحو التالي:

إنه لا يقيم في مكان معلوم، عن عبيد بن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله -عليه السلام- يقول: (يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه)^(٤٦).

قولهم إن المهدي المنتظر في غيبته يسكن المدينة، عن أبي بصير عن أبي عبد الله قال: (لا بُدَّ لصاحب هذا الأمر من غيبة، ولا بُدَّ له في غيبته من عزلة، ونعم المنزل طيبة، وما بثلاثين من وحشة)^(٤٧).

قولهم إنه غائب في وادي من وديان مكة، فعن أبي جعفر الصادق قال: (يكون لصاحب هذا الأمر غيبة في بعض هذه الشعاب، ثم أوماً بيده إلى ناحية ذي طوى، وذو طوى هو وادي بمكة)^(٤٨).

قولهم إن المهدي يقيم في السرداب الذي دخله فغاب من وقتها وأمه كانت تنتظره، ذكر المجلسي هذه الرواية قائلاً: (الشيعة يقولون: إنه دخل السرداب في دار أبيه وأمه تنظر إليه، فلم يعد يخرج إليها)^(٤٩).

ثالثاً: وقت خروج مهدي الشيعة من غيبته الكبرى:

يظهر المهدي المنتظر حسب قول الشيعة عند اكتمال أصحابه ثلاث مائة وبضعة عشر رجلاً، والمعلوم أن الظهور ضد الخفاء، أي سيظهر عياناً بآيات للناس، وعندما يكتمل أصحابه سيبدو للخلق أجمعين، وسيظهر بمكة^(٥٠)، ثم إذا ظهر لهم المهدي المنتظر وجب على جميع الناس أن يبادروا له بالسلام والتحية^(٥١).

وفور ظهوره في مكة يقف خطيباً في الناس قائلاً: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَسْتَنْصِرُ اللَّهَ، فَمَنْ أَجَابَنَا مِنَ النَّاسِ فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٌ، وَنَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ...)^(٥٢).

ثم خلع الشيعة جملة من الأوصاف تكون شهادة على صدق المهدي، منها أن يكون حاملاً لراية رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم سليمان عليه السلام وحجر موسى عليه السلام وعصاه، ويأمر الناس ألا يأكلوا ويشربوا، ثم يفجر لهم الأكل والشرب بعضاً موسى عليه السلام وحجره^(٥٣).

ويظهر المهدي المنتظر وهو يرتدي قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم القميص الذي كان يرتديه يوم أحد يوم أن كُسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم^(٥٤).

رابعاً: علامات المهدي المنتظر عند الشيعة:

ذكر الشيعة كثيراً من العلامات التي تدل على المهدي قبل ظهوره وفي حال وجوده، روى المجلسي عن أبي عبد الله جعفر ابن محمد عليه السلام أنه قال: (إن قدام القائم عليه السلام علامات بلوى من الله للمؤمنين، قلت: وما هي؟ قال: ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِرُ الصَّابِرِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٥]^(٥٥) ومن هذه العلامات التي ذكرها الشيعة:

كسوف الشمس في النصف من رمضان، وخسوف القمر في آخره^(٥٦).

هدم المساجد وخاصة المسجد الحرام بمكة، ومساجد الكوفة^(٥٧).

خروج الدجال وترك الصلاة وإضاعة الأمانة، واستحلال المحرمات^(٥٨).

كثرة الزلازل وكثرة الموت وإرسال الجراد على الناس^(٥٩).

قتل النفس الزكية، وهو رجل من آل البيت يقتل بين الركن والمقام عندها يخرج المهدي^(٦٠).

الصيحة السماوية، تُنادي الصيحة السماوية باسم المهدي، يسمعها الخلائق جميعاً وتكون لكل قوم حسب لغتهم، فيجيب أهل الحق ويتخلف أهل الباطل أهل إبليس^(٦١).

ومن صفاته قتل العرب وأهل قريش خاصة، فيقتل منهم الكثير، عن أبي عبد الله الصادق أنه قال: (إذا خرج القائم لم يكن بينه وبين العرب وقريش إلا السيف، ما يأخذ منها إلا السيف)^(٦٢).

هدم المسجد الحرام، جاء في الإرشاد وفي الغيبة: (إذا قام المهدي هدم المسجد الحرام...، وقطع أيدي بني شيبه وعلقها بالكعبة وكتب عليها: هؤلاء سرقوا الكعبة)^(٦٣).

الحكم بغير شرع الله، إن الشيعة الإمامية قد ساقطت من جملة علامات ظهور المهدي المنتظر عندهم أن يحكم بشرع جديد يخالف ما تعاهدته الأمة من أحكام الإسلام في قرآن ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقد ساقوا جملة من الأحاديث تدل على ذلك، فمنها على سبيل المثال: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إذا قام القائم عليه السلام جاء بأمر جديد، كما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بدو الإسلام إلى أمر جديد)^(٦٤).

(٥٥) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٣٠٢ و ٢٠٢)، وإعلام الوري بأعلام الهدى (ص ١٤٤).

(٥٦) إعلام الوري بأعلام الهدى (ص ٣٤٤ و ٤٤٤)، والإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (ج ٢ - ص ٤٧٣).

(٥٧) إعلام الوري بأعلام الهدى - (ص ٦٤٤، ٧٤٤).

(٥٨) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٣٩١).

(٥٩) كشف الغمة (ج ٣ - ص ٦٥٢).

(٦٠) كشف الغمة في معرفة الأنبياء، (ج ٣ - ص ٥٥٢)، وإعلام الوري بأعلام الهدى (ص ١٤٤ و ٢٤٤).

(٦١) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٥٠٢).

(٦٢) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٥٣٣)، وإعلام الوري بأعلام الهدى (ص ٥٤٤).

(٦٣) الإرشاد للمفيد (ص ١١٤) والغيبة للطوسي (ص ٢٨٢).

(٦٤) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، (ج ٢ - ص ٤٨٣)، وبحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٠٣).

(٤٦) الكافي (ج ١ - ص ٧٣٣ و ٨٣٣).

(٤٧) الكافي (ج ١ - ص ٤٣٠).

(٤٨) تفسير العياشي، تحقيق السيد محمود الكتاني وأولاده، المكتبة العلمية (ج ٢ - ص ٦٥).

(٤٩) بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٤٢٢).

(٥٠) الغيبة (ص ١١٢).

(٥١) بحار الأنوار (ج ١٥ - ص ٦٣).

(٥٢) الغيبة (ص ٩٢).

(٥٣) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ١٥٣).

(٥٤) بحار الأنوار (ج ٢٥ - ص ٥٠٢).

ظهور السفيناني لقتال المهدي فور ظهوره، والسفيناني سيخرج من دمشق ويُرسَل جيشاً كبيراً لقتال المهدي إلا أن المهدي سيهزمه شر هزيمة، ثم يأتي بجيش آخر فيُخسف به، ولا ينجو منهم إلا مخبر، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج رجل يقال له السفيناني في عمق دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يقرر بطون النساء ويقتل الصبيان، فتجتمع لهم قيس، فيقتلها حتى لا يُمنع ذنب تلعة، ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرة، فيبلغ السفيناني، فيبعث إليه جنداً من جنده فيهبزهم، فيسير إليه السفيناني بمن معه، حتى إذا صار بيضاء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم»^(٨٩).

بينما الناس في أطراف الكعبة ما بين الركن والمقام قد التفوا حول المهدي رضي الله عنه يبايعونه يرسل إليه أعداء الإسلام جيشاً كبيراً يريدون قتله وهدم الكعبة، فيخسف الله تعالى بهم البيداء بين المدينة المنورة ومكة، عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من أهل الشام، فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق، فيبايعونه بين الركن والمقام»^(٩٠).

خاتمة:

إن ما ورد في كتب السنة عن المهدي يمكن تلخيصه في عدة نقاط:

الأولى: هو رجل من آل النبي صلى الله عليه وسلم، ومن نسل الحسن على الأرجح، يولد في المدينة، ويباع في مكة، ويهاجر إلى الشام.

الثانية: هو إمام عدل يأتي بالرحمة للناس جميعاً، ويحكم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، يملك في هذه الأمة بضع سنين، يجمع الله به كلمة المسلمين وينصرهم على أعدائهم، حتى يأتي الدجال فيضيق الأمر عليه وعلى من معه، فيؤيدهم الله بعيسى بن مريم، فيقتلون الدجال.

الثالثة: كل ما صح عن المهدي نؤمن به، ولا أثر لذلك في العقيدة أو الأحكام كما هو الحال عند الشيعة.

ولعله من المناسب في ختام هذا البحث المتواضع المقارنة بين ما ورد عن المهدي رضي الله عنه في كتب السنة وما ورد في كتب الشيعة:

(٨٩) أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب الفتن والملاحم، باب «أما حديث أبي عوانة»، رقم (٦٨٥٨)، وعلق عليه الذهبي بقوله: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (٩٠) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سنته، كتاب المهدي، رقم (٦٨٢٤)، وأحمد في مسنده، رقم (٩٨٦٦٢).

ويصلي عليه المسلمون^(٨٤) فلا يقيم شرعاً جديداً بل يوافق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على نقيض ما تذهب إليه الشيعة الإمامية من كون المهدي يأتي بشرع جديد ويحكم بحكم آل داود لا يسأل بينة.

يُصلي بالناس إماماً وفيهم عيسى عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»^(٨٥) وليس في هذا تفضيل للمهدي على عيسى عليه السلام إذ تصح إمامة المفضول بوجود الفاضل.

انتشار العدل والقسط، والقضاء على الجور والظلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهدي مني، أجلى الجبهة أفنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»^(٨٦).

هو إمام عدل يأتي بالرحمة للناس جميعاً، ويحكم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، يملك في هذه الأمة بضع سنين، يجمع الله به كلمة المسلمين وينصرهم على أعدائهم

خروج أصحاب الرايات السود من خراسان -بلاد أفغانستان وإيران الآن- أخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم في المستدرک من حديث ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم -ثم ذكر شيئاً لا أحفظه- فقال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو جبروا على الثلج؛ فإنه خليفة الله المهدي»^(٨٧) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ويذكر ابن كثير مُعلقاً على أصحاب الرايات السود فيقول: (هذه الرايات السود تأتي بصحبة المهدي، الذي يؤيده الله بناس من أهل المشرق، ينصرونه ويقيمون سلطانه ويشدون أركانه، وتكون راياتهم سوداء أيضاً، وهو زعي عليه الوقار لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء مربعة يقال لها العقاب)^(٨٨).

(٨٤) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سنته، كتاب المهدي، رقم (٦٨٢٤)، وأحمد في المستدرک، رقم (٩٨٦٦٢).

(٨٥) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب أحاديث الأنبياء- باب «تُزول عيسى ابن مريم عليهما السلام»، رقم (٩٤٤٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «تُزول عيسى ابن مريم حاكماً يشريعه نبياً مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، رقم (٥٥١).

(٨٦) أخرجه أبو داود في سنته، كتاب المهدي، رقم (٥٨٢٤).

(٨٧) أخرجه ابن ماجه في سنته، كتاب أبواب الفتن، باب خروج المهدي، رقم (٤٨٠٤) والحاكم في المستدرک، كتاب الفتن والملاحم، باب «أما حديث عمران بن حصين»، رقم (٢٣٤٨) فعلق عليه الذهبي بقوله: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٨٨) النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (ج١ - ص ٩٤) باختصار.

المبحث الثاني:

المهدي في ضوء عقيدة أهل السنة

إن المهدي عند أهل السنة يختلف عن معتقد الشيعة فيه؛ فأهل السنة يصدقون خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، وأنه من آل بيته، ويؤمنون بما صح من صفاته عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ولا يزيدون على ذلك، فلا أثر لهذا الأمر على العقيدة أو العمل أو الإيمان وعدمه كما هو الحال عند الشيعة الذين غالوا في الأمر حتى أصبح من أصول الإيمان عندهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لولا يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»^(٧٥).

المطلب الأول: اسمه ونسبه وصفته وحليته

أولاً اسمه:

اسمه كاسم رسول الله، واسم أبيه كاسم أبي النبي، فهو على ذلك: محمد أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما^(٧٦).

ثانياً نسبه:

المهدي من ولد فاطمة البتول ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها وعن أولادها الطاهرين، وكل الأخبار الواردة في شأن نسب المهدي لا تنافي أن المهدي من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة الزهراء؛ قال بعض حفاظ الأمة وأعيان الأئمة: (إن كون المهدي من ذريته صلى الله عليه وسلم مما تواتر عنه، فلا يسوغ العدول ولا الالتفات إلى غيره)، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المهدي من عترتي - أي من نسلي - من ولد فاطمة»^(٧٧).

وهو من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما، عن علي رضي الله عنه - ونظر إلى ابنه الحسن - قال: «إن ابني هذا سيد كما سمّاه النبي صلى الله عليه وسلم، وسيخرج من صلبه رجل يسمّى باسم نبيكم، يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق - ثم ذكر قصّة - يملأ الأرض عدلاً»^(٧٨).

ثالثاً مولده:

(٧٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المهدي، حديث رقم (٢٨٢٤).

(٧٥) د/ علي محمد الصلابي: الدولة الفاطمية، دار الناشر الدولي، ط ١، (ص ٥٥).

(٧٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المهدي، حديث رقم (٤٨٢٤).

(٧٧) رواه أبو داود في سننه، في كتاب المهدي، رقم (٩٢٤).

روي أن المهدي رضي الله عنه يُولد بالمدينة المنورة، عن أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة»^(٧٩)، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «المهدي مولده بالمدينة، من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، واسمه اسم النبي صلى الله عليه وسلم، ومهاجره بيت المقدس»^(٨٠).

رابعاً: صفة المهدي وحليته:

وصف النبي صلى الله عليه وسلم المهدي وصفاً دقيقاً تضمن ملامح وجهه رضي الله عنه، فهو قليل الشعر كما ذكر ابن الأثير (وفي صفة المهدي «أنه أجلى الجبهة» الأجلى: الخفيف شعر ما بين التزعتين من الصّدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته، «أقنى الأنف» القنا في الأنف: طولُه ورقة أرنبته مع حدب في وسطه...) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهدي مني، أجلى الجبهة أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»^(٨١).

المطلب الثاني: مدة حكم المهدي وعلامات ظهوره:

أولاً مدة حكمه:

قيل: مدة حكمه سبع سنين، يدل على هذا ما رواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهدي مني، أجلى الجبهة أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»^(٨٢).

ثانياً: علامات تؤيد ظهور المهدي:

جاء في السنة جملة من العلامات التي تدل على ظهور المهدي، منها:

أن الله يهيئه في يوم وليلة للخلافة، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهدي من أهل البيت، يصلحه الله في ليلة»^(٨٣).

يقيم السنة ويعمل بشرع الله تعالى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ويعمل في الناس بسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض، فيلبث سبع سنين، ثم يتوفى»^(٨٤).

(٧٨) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المهدي، رقم (٦٨٢٤)، وأحمد في مسنده، رقم (٩٨٦٦٢).

(٧٩) نعيم بن حماد: كتاب الفتن، (ج ١ - ص ٦٦٣)، رقم (٣٧٠١).

(٨٠) النهاية في غريب الحديث والأثر (ج ١ - ص ٩٢٥).

(٨١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب المهدي، رقم (٥٨٢٤).

(٨٢) أخرجه أبو داود في سننه، ينظر شرح عون المعبود كتاب المهدي (ج ١١ - ص ٢٥٢)، رقم (٧٧٢٤).

(٨٣) أخرجه أحمد في مسنده، (ج ٢ - ص ٤٧) رقم (٥٤٦) وابن ماجه في سننه في كتاب الفتن، باب خروج

المهدي (ج ٥ - ص ٣١٢) رقم (٥٨٠٤).



الباحث: فراس رياض السفال
ماجستير في الفقه وأصوله

التهجير القسري في سوريا، وأثره على أهل السنة فيها



المقدمة

إن ما يعانيه الشعب السوري من التهجير القسري المنظم، يستحق منا لفت الانتباه والتمحيص فيما يجري لإظهار حقائقه، وكشف مظاهر هذا التهجير وأهدافه، والأصابع الخفية القائمة في تحريك هذه الفتنة وتنميتها، والآثار الناشئة من هذا الفعل غير القانوني أو الإنساني.

مما يستدعي منا السعي الدؤوب نحو تجلية هذا الأمر بشفافية ومهنية، راجين الله ﷻ أن يهيئ طريق الخلاص لجميع المضطهدين في العالم إنه سميع مجيب.

تحديد المشكلة:

١- لماذا يستهدف هذا التهجير أهل السنة دون غيرهم؟

٢- من هي الدول الالعبة في المنطقة لإنجاز هذا التغيير؟

٣- ما هي أهداف ومصالح هذه الدول من إزاحة المسلمين السنة عن بلادهم؟

إن البحث عن إجابات لهذه الأسئلة هو ما يدعونا للحديث عن ظاهرة التهجير الإجرامي؛ من خلال تسليط الضوء على الساحة السورية وما جرى فيها إثر ثورة شعبها المجيدة.

أهمية هذا الموضوع:

إن ما نراه في هذا العقد من تمالؤ القاصي والداني على أهل السنة في سوريا، والعمل على إفراغ مناطقهم من أهلها، من خلال حملات التهجير الطائفي، وتعاون الشيعة مع قوى عظمى، جعل للبحث العلمي حول هذه القضية أهمية كبرى، لا يجوز التغافل عنها.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإن المؤمن ممتحن مَبْتَلَى، وإن الله يمتحن أصفياءه بامتحانات شتى، وتعد الهجرة من أعظم أصناف الامتحان، حيث يصير العبد بعيداً عن أهله ووطنه وذويه، ومن نشأ معهم وترعرع في أحضانهم، ولقد مضت سنة الله تعالى في أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين أن معظمهم هاجروا من بلدانهم بحثاً عن موطن آمن يتعبدون ربهم فيه، ويدعون فيه إلى الله دون منغصات أو ملاحقات وتبعات.

هذه هي الهجرة، فكيف إن كان الأمر أشد منها؟ كأن يُهجّر المرء مجبراً طريداً، أو أن يُدعى لأمر لا يناسبه، فإن فعله حاز الرضا من المَكْرَه، وإلا فلا بقاء له في وطنه، فجلاده حاضر وسوطه مُسلّط، وكل ذلك يجري بسيف السياسة ودستور السياسة الجوفاء، دون أي اعتبار لحقوق الإنسان وإنسانيته.

وهذا التهجير نراه في عدد من الدول الإسلامية عموماً، والسنية على وجه الخصوص، وقد رأينا ذلك في العراق واليمن، وما هو يفحل في سوريا، التي يُعد أهل السنة فيها السواد الأعظم، حيث يُشكّل المكوّن السني فيها أكثر من ٧٦،١٪ من السكان^(١).

(١) انظر المركز السوري للدراسات السياسية والاستراتيجية (ssps) وموقع الجزيرة بعنوان (التركيبة السكانية في سوريا) ١١٠٢/٤/٩١.

أي المهديين أحقُّ أن يتَّبَع؟

يلاحظ اتفاق الشيعة والسنة على قضية المهدي عليه السلام وأنه إنسان صالح، ولكنهم يختلفون في تفسير الصلاح كل بحسب تصوّره عن الدين الناتج عن الفرق بين نصوص صادرة عن الوحي ونصوص صادرة عن مرضى نفسيين اندسوا بين المسلمين ونفثوا سمومهم وأحقّادهم في عقول الروافض وقلوبهم، فقد التزم أهل السنة بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك من كونه إماماً عدلٍ يجمع الله به الأمة، ويحكم بينهم بشريعة الإسلام الصافية.

أما الشيعة فقد أصبغوا على شخصية المهدي مجموعة من الصفات المكذوبة التي تفضح الأسس الخطيرة التي تقوم عليها العقيدة الشيعية، ومن أهم هذه الأسس: الخرافة والدموية وحب الانتقام من الآخر بالإضافة إلى الأثر اليهودي في عقيدتهم.

نرى الخرافة واضحة في الروايات التي تتحدث عن ولادته المعجزة وطفولته الخارقة ثم غيبته، كما نلاحظ الأمانى الشيعية في قتل الآخر والقضاء عليه وخاصة العربي، وهذا واضح في حديثهم عن هدمه الحرمين ونبس قبور أبي بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم وإعماله السيف في العرب وخصوصاً منهم قريش قوم النبي صلى الله عليه وسلم، وأما الأثر اليهودي في ديانتهم فنراه من خلال إقرارهم بأنه يغير شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بشريعة داود عليه السلام، لا يسأل عن بينة، ويلبس خاتم سليمان ويحمل عصا موسى وحجره ليطعمم ويسقي من أتبعه ويقضي على من خالفه، وهذا المذكور في كتبهم أقرب إلى صفة الدجال مخلص اليهود وملكهم منه إلى مهدي الإسلام.

إن ما سبق يدل على أن مهدي الشيعة هو الدجال؛ لا الذي أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم، والشيعة في ذلك سيّتيهون ويترددون بين الحق والباطل حتى يهدي الله من فيه الخير منهم، ويطمس على قلوب عتاتهم بما امتلأت من كره للإسلام وأهله.

وقد كان من أثر هذه العقيدة الباطلة على أعمالهم الشيء الكثير من قتلهم للمخالف وتكفيره واستحلال دمه، وبلغ الأمر بهم أن انتشرت في بعض تياراتهم الدعوة إلى الظلم وسفك الدماء لملء الأرض ظلماً وجوراً تعجلاً في خروج المهدي من سردابه المزعوم في سامراء، حتى جمعوا أطفال السنة وأحرقوهم أحياء وطبخوا لحوم بعضهم، ومثلوا في رجالهم ونسائهم، بل واستحلوا دماء الشيعة العرب الذين لا يقبلون بهذا الفساد الذي تنشره السلطة الإيرانية الحاكمة فيما استطاعت من بلاد المسلمين، نسأل الله اللطف بعباده والهداية والتوفيق لكل من في قلبه ذرة من خير أو إيمان، والحمد لله رب العالمين.

صفات المهدي وعلاماته عند أهل السنة	صفات المهدي وعلاماته عند الشيعة
اسمه محمد أو أحمد بن عبد الله	اسمه محمد بن الحسن العسكري
لم يُولد بعد ولم نره	وُلد في عام ٢٥٥ هـ أو بعده بسنوات
لم يُحدد اسم أمه	اختلفوا في اسم أمه على ثمانية أقوال
ليس له غيبة	له غيبة صغرى وكبرى
يحكم بشريعة الإسلام	يحكم بشريعة آل داود
يكون نعمة ورحمة للعباد	يكون نقمة وعذاباً على العباد
يَعمرُ الأرض والمساجد ويصلي بالناس	يهدم المساجد ويقتل الناس
يجمعُ صفوف أهل الإسلام	يقتلُ أعداء الشيعة ويُشردُ بهم
يخرج بأمر من الله بعد أن يهيئه للخلافة	يخرج بإرادته ومشيتته
يحكم سبع سنين غالباً	ليس له مدة محددة لحكمه بل يحكم كيفما شاء
ينشر القسط والعدل بين الناس	قانونه السيف والانتقام وسفك الدماء

في دمشق القديمة، لتفريغها والاستيلاء عليها، خاصة البيوت المملوكة للسنة^(١٤).

٥- القصف الوحشي وبكافة أنواع الأسلحة المحرمة أو غيرها، مما يستدعي فرار الأهالي بحياتهم، وقد وثقت المنظمات الحقوقية الكثير من هذه الانتهاكات ومنها الهجمات بالأسلحة الكيماوية^(١٥).

٦- التغيير الديموغرافي الذي ينتهجه نظام الأسد وحلفاؤه الإيرانيون في جميع مناطق السنة، كما حدث في داريا، ومعظمية الشام، ووادي بردى، وغيرها من المناطق المحررة التي كانت تحت سيطرة الثوار^(١٦)، إضافة إلى الجنوب الدمشقي، والقلمون، والزبداني، وحمص، والغوطة الشرقية.

٧- الحصار الخانق المفروض على المناطق المحررة، وقطع جميع ضروريات الحياة عن سكانها، من الكهرباء والغذاء والأدوية والوقود والغاز، وحليب الأطفال، والإنترنت وغير ذلك.

٨- منع المرضى الخارجين من مناطق الحصار للعلاج من العودة إلى مناطقهم^(١٧) كما حدث في مضايا.

وهكذا نرى أن النظام السوري وحلفاءه روسيا وإيران وحزب الله، يمارسون أسوأ الطرق وأبشعها، في سبيل إعجاز هذا الشعب الأعزل، ودفعهم لكرهية العيش في بلدهم، بهدف النزول تحت طاعته وإجرامه، فإما القتل والاعتقال، أو التهجير القسري^(١٨).

أهداف التهجير القسري في سوريا:

يختلف الهدف من تهجير الشعوب باختلاف البقعة الجغرافية التي يحدث فيها، واختلاف الناس الذين يقع عليهم، ولهذا فإن للتهجير في سوريا أسباباً كثيرة سأذكر أهمها:

أهداف التهجير السياسية: يسعى النظام للظهور بمظهر القوي والمتنصر في معاركه ضد أبناء شعبه، وذلك لتحقيق مكاسب سياسية يعرض فيها عضلاته أمام المجتمع الدولي، وما نراه يتجلى في بقائه على كرسي الحكم، ولو بقي في البلد وحده، فمعيارُه الحفاظ على العاصمة، ولو هُجر وشرّد جميع أبناء بلده.

وينظر حلفاء النظام السوري بنفس النظرة والعقلية، فبقاء حكم الأسد بقاءً لتحالفاتهم ومصالحهم، التي لن يحلموا أن يحصلوا عليها لو تغير رأس الحكم في سوريا، طبعاً من أهم تلك المصالح

نظام روما الأساسي التهجير القسري جريمة حرب^(١٩).

إجراءات مجلس الأمن إزاء التهجير القسري: من قرارات مجلس الأمن المتعلقة بالتهجير القرار رقم «١٦٧٤» لعام ٢٠٠٦ لحماية المدنيين في الصراعات المسلحة (الفقرة ١٢): يشير إلى حظر التهجير القسري للمدنيين في حالات الصراع المسلح، في ظل ظروف تشكل انتهاكاً لالتزامات الأطراف بموجب القانون الإنساني الدولي^(٢٠).

الفرق بين الهجرة والتهجير: من خلال تناولنا لمعنى كلمة تهجير يتضح معنا الفرق بين كلمتي الهجرة والتهجير.

فالهجرة: من الممكن أن تكون اختيارية برغبة المهاجر، دون تدخل من جهة خارجية أخرى، ويمكن أن تكون على سبيل الفرار من أي خطر يهدد حياة الإنسان أو دينه أو عرضه وماله ونسله.

أما التهجير: فمبناها يدل على معناها، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (هَجَرَ، هَجَرًا)، فالمُهَجَّر هو من أرغم على الهجرة دون اختيار منه، وتأتي بمعنى الطرد.

أشكال التهجير القسري:

إن الحاكم المستبد إن وجد رأساً قد رفع قام بوجهه أو إبعاده بأي طريقة كانت، وإن رأى المعارضين له قد زاد جمعهم بحيث يصعب قتلهم جميعاً لجأ إلى نفيهم من أوطانهم وتهجيرهم لعله يصفو له استبداده ولا يجد من يلومه على ظلمه أو يقول له كفى، وهذا ما فعله نظام الطاغية في سوريا، حيث أتبع أساليب وطرقاً مختلفة لتهجير معارضيه... من هذه الطرق:

١- الاعتقالات التعسفية دون أي استثناءات أو حدود، فقد بلغ عدد المعتقلين في السجون السورية ١١٨٨٢٩ شخصاً حتى آذار ٢٠١٨^(٢١).

٢- التجنيد الإجباري واعتقال الشباب على الحواجز، وقد وثقت هيئات حقوق الإنسان حالات اعتقال الكثيرين من الشبان السوريين الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٥-٣٥ سنة، في غالب المحافظات السورية لسوقهم إلى التجنيد الإجباري^(٢٢).

٣- إعادة التنظيم العمراني وإطلاق مشاريع كبرى: كما في حمص (مشروع حلم حمص) ويقضي بهدم حمص القديمة، وأيضاً ما جرى في كفر سوسة، وبساتين المزة، والقدم، وداريا وغيرها^(٢٣).

٤- إجبار السكان على بيع البيوت بأثمان زهيدة، وخاصة

(١٤) انظر: مقالة «التغيير الديموغرافي والطريق إلى سوريا المفيدة» غازي دحمان، موقع معهد العالم للدراسات، ١٣/ أكتوبر/ ٢٠١٢م.

(١٥) انظر: موقع الجزيرة نقلاً عن الشبكة السورية لحقوق الإنسان.

(١٦) انظر: المرجع السابق.

(١٧) انظر: تقرير «طريقة جديدة للتهجير القسري مرضى مضاي المخرجون ممنوعون من العودة»، المركز الصحفي السوري cps، ٩/ أكتوبر/ ٢٠١٢م.

(١٨) انظر: مجلة الاتحاد، الإمارات، د. رياض نعان أغا، «التهجير القسري في سوريا» ٢/

سبتمبر/ ٢٠١٢م.

(١٩) انظر: مركز الشرق العربي (التهجير القسري والتغيير الديموغرافي في سوريا تحت غطاء الأمم

المتحدة) الائتلاف الوطني السوري ٦/ ٩/ ٢٠١٢.

(٢٠) انظر: الأمم المتحدة، مجلس الأمن، القرار ٤٧٦١/ عام ٢٠٠٢ في جلسته ٣٤٥٥، من شهر نيسان.

(٢١) انظر: المرجع السابق.

(٢٢) انظر: المرجع السابق ٢٢/ ديسمبر/ ٢٠١٢م.

(٢٣) انظر: «التهجير القسري في سوريا السياسات الأدوات والتبعات»، د. ياسر سعد الدين، مركز أمية

للبحوث ١/ ٢٠١٢م، موقع الراصد.

أيضاً الهذيان... و(الهِجْرُ) بالفتح و(الهَاجِرَة) و(الهِجْرُ) نصف النهار عند اشتداد الحر، و(التَّهْجِير) و(التَّهْجَر) السير في الهاجرة. و(تَهْجَر) فلان تشبه بالمهاجرين. وفي الحديث: «هَاجِرُوا» ولا تَهْجَرُوا». و(هَجَر) يفتحان اسم بلد مذكر مصروف. وفي المثل: كمبضع تمر إلى هَجَر^(٣). والهِجْر: الترك، والمهاجرون: هم من هجروا أو طانهم^(٤). و(تَهْجِير) (مفرد): مصدر هَجَر، هَجَرَ إلى^(٥).

إذاً فمن معاني كلمة تهجير: الترك، والتشبه بالمهاجرين، ومفارقة الأوطان، والتقاطع.

والتهجير اصطلاحاً هو: انتقال قسريٍّ بسبب صراعات داخلية، تدفع الأسر والأفراد إلى مغادرة أماكن إقامتهم الأصلية، والتوجه إلى أماكن توفر لهم قدرًا أكبر من الأمن وشروط الاستقرار^(٦).

التهجير بالمعنى السياسي: سياسة إكراهٍ وتشريد، وإرغامٌ على مغادرة مسكن أو بلدٍ، من جرّاء حربٍ أو نزاعٍ مُسلّحٍ أو فتنةٍ سياسيةٍ «مخططات تهجيرية وتطهير عرقي»^(٧).

بداية هذه السياسة في العصور الحديثة:

بدأت سياسة التهجير تنتشر مع قيام إسرائيل باستقدام يهود العالم، وتوطينهم في فلسطين بعد إجلاء أهلها وتهجيرهم في بقاع الأرض، فالصهيونية كانت وما زالت حركة توطينية استيطانية، ويعدّ تدفق القوة البشرية القتالية اليهودية إلى فلسطين مسألة أساسية وحيوية بالنسبة لها، حتى تستمرّ في الاضطلاع بوظيفتها القتالية، فنجد الحركة الصهيونية كثيراً ما تلجأ إلى عملية تهجير قسرية لبعض يهود العالم.

مفهوم التهجير القسري في القانون الدولي: (ممارسة تنفّذها حكومات أو قوى شبه عسكرية، أو مجموعات متعصبة اتجاه مجموعات عرقية أو دينية أو مذهبية، بهدف إخلاء أراضٍ معينة، وإحلال مجاميع سكانية أخرى بدلاً عنها)^(٨).

ويُعرّف القانون الدولي الإنساني التهجير القسريّ بأنّه: (الإخلاء القسري وغير القانوني، لمجموعة من الأفراد والسكان من الأرض التي يقيمون عليها) وهو ممارسة مرتبطة بالتطهير، وإجراء تقوم به الحكومات، أو المجموعات المتعصبة تجاه مجموعة عرقية أو دينية معينة، وأحياناً ضد مجموعات عديدة بهدف إخلاء أراضٍ معينة لنخبة بديلة أو فئة معينة، وتعدّ المواد (٦) و(٧) و(٨) من

لقد بدأت هذه الفكرة تأخذ حيّزاً من تفكيري بعدما رأيت الذين يقيمون المظاهرات السورية - في أحياء دمشق تحديداً - عبارة عن عناصر غريبة عن بلادنا، حيث كانوا ضيخاً الأجسام، حليقي الشعور طويلي اللحى، يضعون النظارات السوداء، بعضهم يلبس القمصان (تشرت) والبناتيل السوداء، وبعضهم البنطال المموه (مارنز)، ويركبون سيارات سوداء ليس عليها لوحات رقميّة، وكانت أسلحتهم غير الأسلحة الروسية التي نعرفها.

في البداية حسبتهم من عناصر الساحل السوري (الشبيحة) للشبه الكبير بينهم، وعندما اقتربت منهم سمعتهم يتخافتون بلهجة لبنانية، ويقول أحدهم لصاحبه: إياك والكلام، عندها عرفت أنهم من عناصر المجرم المدعو حسن نصر الله^(٩).

اعتُقلت في بداية الثورة ولاحظت في المعتقل أنّ أكثر من يُعذّب ويُقتل في سجون المخابرات هم أهل السنة، وأنّ جلاًدنا كان يتفنن في سبّ ربّنا وديننا ونبينا وشتمهم، وهو لستم صحابة رسول الله مكثراً، مبادراً إلى النيل من أبي بكر وابتغى عائشة رضي الله عنهما.

وفيما تلا ذلك من سني الثورة تراكمت الجرائم بحق أهل السنة في سوريا، وتفاقت شيئاً فشيئاً، ووصلت هذه الانتهاكات إلى حدّ تهجير الأهالي من أوطانهم وبيوتهم، على يد قوات نظام الأسد وحلفائه من ميليشيات إيران وحزب الله، ورغم ما بين النصيرية والشيعة من عداة تاريخي فإنك تجد القاسم المشترك في تحالفهم الغريب هو عداؤهم لأهل السنة والاتفاق على استئصالهم.

ومن خلال هذا البحث سأحاول كشف اللثام عن بعض الحقائق والنوايا العالمية أو الإقليمية في توثيق السعي المسعور لتهجير سكان سوريا الأصليين وإحداث خلل كبير في واقع المكون السني فيها.

وقد تم هذا البحث من خلال مقدمة ومبحثين، الأول: يتحدث عن مفهوم التهجير القسري وأشكاله وأهدافه والجهات القائمة عليه، والمبحث الثاني: يتحدث عن الآثار الاجتماعية والطائفية لسياسة التهجير القسري في سوريا، وختمت البحث بأهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

مفهوم التهجير القسري وأشكاله وأهدافه

مفهوم التهجير القسري:

التهجير لغة: التهجير لغة: من (الهِجْر) ضد الوصل، وبابه نصر و(هِجْرَاناً) أيضاً، والاسم (الهَجْرَة). و(المُهَاجِرَة) من أرض إلى أرض ترك الأولى للثانية. و(التَّهْجَرُ) التقاطع. و(الهِجْرُ) بالفتح

(٢) في ذلك الوقت كنت فذاً إلى جامع الحسن في حي الميدان في يوم الجمعة.

(٣) انظر: مختار الصحاح للرازي، (ج ١/ ص ٤٢٣)، ط ٥/ ٩٩٩١، المكتبة العصرية بيروت.

(٤) انظر: القاموس الفقهي لسدي أبو جيب، (ج ١/ ص ٥٦٣)، ط ٢/ ٨٨٩١، دار الفكر.

(٥) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر، (ج ٣/ ص ٥٢٣٢)، عالم الكتب/ ط ١.

(٦) انظر: كتاب الصحة النفسية للمجمع، الدكتور فيكرام باتل، (ص ٥٠٢)، ط ١ العربية معدلة، الناشر ورشة الموارد العربية، بيروت.

(٧) انظر: المرجع السابق (ج ٣/ ٥٢٣٢).

(٨) انظر: مقالة «مفهوم التهجير القسري في القانون الدولي» لعادل عامر، موقع ديوان العرب، نوفمبر ٢٠١٢.

الجهات القائمة على التهجير القسري في سوريا:

١- النظام السوري: هو المستفيد الأول من عملية التهجير، فقد قال الطاغية بشار الأسد: (إن الوطن ليس لمن يسكن فيه أو يحمل جنسيته وجواز سفره، بل لمن يدافع عنه ويحميه)، مشيداً بدعم إيران وحزب الله بالقول: (إخوتنا الأوفياء بالمقاومة اللبنانية امتزجت دماؤهم بدماء إخوانهم في الجيش، وكان لهم دورهم المهم وأداؤهم الفعال والنوعي)^(٣٠).

٢- الأمم المتحدة: فقد لعبت دوراً سلبياً في حملات التهجير القسري منذ ٢٠١٣م مما يجعلها شريكا في هذه الجريمة البشعة، فقد نشرت صحيفة الغارديان تحقيقاً يكشف عما يمكن اعتباره تواطؤاً من الأمم المتحدة في دعم نظام الأسد، إضافة إلى تقديمها مساعدات بملايين الدولارات لنظامه من خلال برامج المساعدات الإنسانية لمتضرري الحرب^(٣١)، ومؤخراً وفي ظل الحملة العسكرية العنيفة على الغوطة الشرقية التي بدأت في شباط ٢٠١٨ قامت منظمة الصليب الأحمر بحماية ومرافقة بشار الأسد في دخوله إلى الغوطة في ١٨/٣/٢٠١٨م.

٣- الولايات المتحدة الأمريكية: شجعت سياستها في سوريا وبطريقة غير مباشرة في جريمة التهجير القسري والتطهير العرقي، من خلال تأجيج الطائفية والعرقية، فواشنطن تدخلت بشكل مباشر وجيش العالم من أجل مدينة عين العرب كوباني في حين لم تحرك ساكناً وهي تشهد تدميراً شاملاً لقرى ومدن سورية تسكنها غالبية عربية سنية، وفي تقرير بعنوان (لم يكن لنا مكان آخر نذهب إليه) لمنظمة العفو الدولية صدر ٢٠١٥م، كشف عن عمليات تهجير قسري وتدمير منازل نفذتها قوات حزب الاتحاد الديمقراطي الذي سيطر على مناطق شرق سوريا بدعم أمريكي، مما يمكن أن يوصف بأنه جريمة حرب حسب منظمة العفو^(٣٢).

٤- روسيا: كان دورها في جريمة التهجير القسري في سوريا واضحاً، بدأاً بالتحريض الطائفي -والذي يشكل بذرة السوء للتهجير القسري- حيث صرح لافروف في ٢٠١٢م بأن روسيا لن تسمح بقيام حكم سني في سوريا، ثم جاء التدخل العسكري الروسي السافر والعنيف في ٢٠١٥م، والذي استخدمت فيه أنواع شتى من الأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً لتخريب المحاصرين السوريين بين الإفناء أو التهجير^(٣٣).

٥- إيران: يبدو دور إيران جلياً من خلال ممارساتها في تهجير السنة وتوطين الشيعة، كما حدث في المناطق المتاخمة للشريط الحدودي اللبناني.

النظامية الإيرانية، والقوات التي تخضع لأوامر الإيرانيين تفوق عدد قوات نظام الأسد، ووفقاً للمجلس الوطني للمقاومة الإيرانية؛ فإن إيران قسّمت سوريا إلى خمس مناطق عسكرية إحداهما مركزية، والبقية فرعية، حيث تخضع كل منها إلى مركز قيادة مختلف^(٣٤).

أهداف التهجير الدينية:

ساعدت سيطرة الأسد الأب على الحكم عام ١٩٧٠ على التلاعب في مكونات سوريا، مع العلم أن عموم انتماءات الشعب السوري إلى الإسلام السني، أما بقية الطوائف فكانت أقلّيات تتعايش مع أهل السنة بكل ود ودون أي منغصات.

إن حافظ الأسد -كما هو معلوم- ينتمي إلى طائفة أقلّية لها إرث تاريخي من الحقد على الإسلام والمسلمين والخوض في دمائهم، ولكن لم يكن لهذه الطائفة شوكة ولا صوت حتى جاء الأسد إلى السلطة، فاختار خصوم أهل السنة (وهم الشيعة) ليكونوا له حلفاء وداعمين.

وقد مهّد حافظ الأسد الطريق للشيعة للتوسّع دينياً في سوريا، فقد سهّل لهم بناء الحسينيات والمراكز الثقافية في جميع أنحاء البلاد، حتى صارت حملات التشيع في عهد ابنه بشار تدق أبواب السنة في جميع المحافظات السورية، وقد نشطت حركة التبشير الشيعية في سوريا بعد حرب تموز بين حزب الله وإسرائيل بشكل لافت للنظر.

أما عصر التشيع الذهبي فقد كان في بداية الثورة السورية، فبتدخل حزب الله في الوقوف إلى جانب الأسد في قمع المتظاهرين، بدأ الزحف الشيعي بكامل قواه إلى سوريا، وعلى وجه الخصوص إلى مركز دمشق، ولم يكتف جنود إيران ونصر الله في الدعوة إلى التشيع، بل قاموا بشراء البيوت المحيطة بالجامع الأموي داخل سور القلعة، وحول مسجد السيدة رقية في حي العمارة والشاغور وباب توما وبأسعار زهيدة، فقاموا بإجبار السكان وبشتى الطرق -بدعم من أجهزة الأمن- على البيع^(٣٥).

وهكذا نجد أن من يلبي استغاثة النظام السوري ونجدته؛ ليس إلا وحشاً جائعاً يريد نهش خيرات بلد بات لقمة سائغة بين أنياب مجموعة من المستعمرين، ما جاؤوا رغبة في إنقاذ شعب أو محاربة إرهاب أو إفشاء سلام، بل لمصالح شخصية وأهداف لا أخلاقية، سعياً وراء مكاسب سياسية، ومستعمرات -يزعمونها مناهضة لأمريكا- وسموم طائفية يحملون بنشرها في هذا البلد.

(٣٠) انظر: «التهجير القسري في سوريا السياسات الأدوات والتبعات»، د. ياسر سعد الدين، مركز أمية للبحوث ١/٢٠١٢، موقع الراصد.

(٣١) انظر: المرجع السابق.

(٣٢) انظر: المرجع السابق.

(٣٣) انظر: المرجع السابق.

(٢٨) انظر: تقرير «صحيفة إسبانية تكشف القواعد الإيرانية السرية بسوريا» موقع عربي ١٢/٢٠١٢/أكتوبر/٢٠١٢م.

(٢٩) انظر: مركز الشرق العربي، «التهجير القسري والتغيير الديموغرافي في سوريا تحت غطاء الأمم المتحدة» الائتلاف السوري ٦/٩/٢٠١٢م.

دوام أمن إسرائيل... ومن هؤلاء الحلفاء:

روسيا: حلمها الحضور الدائم في المياه الدافئة (البحر المتوسط) فقد خسر الاتحاد السوفيتي كثيرا من مراكزه وعلاقاته الدولية من مصر إلى عدن، فليبيا والعراق، ولم يبق له حاليًا سوى سوريا، ولروسيا هدف آخر ألا وهو الخلاص من المجاهدين المنتشرين في بلادها، إضافة إلى أهداف اقتصادية منها إعادة تلميع صورة السلاح الروسي وتسويقه^(١٩).

إيران: لها مكاسب سياسية واستراتيجية وعسكرية لا تخفى على أحد، وتحاول جاهدة إخفاء وجودها العسكري، ولكن الظاهر عياناً أن لها ثقلاً ووجوداً عسكرياً لا يُستهان به^(٢٠).

حزب الله اللبناني: إن سياسة حزب الله في سوريا مرتبطة بسياسة طهران، فقد أكد المدعو حسن نصر الله ذلك في الكثير من خطاباته المتلفزة^(٢١)، وذكر معهد واشنطن: (صرح مسؤولون من الولايات المتحدة والشرق الأوسط بأن إيران وحزب الله يجريان استعدادات عسكرية لمواجهة الفوضى الطائفية التي يُحتمل أن تبتلع سوريا ما بعد الأسد، ويقول خبير مكافحة الإرهاب ماثيو ليفيت: إن حزب الله ألزم نفسه بشكل وثيق مع (قوة القدس) الإيرانية، وسوف يقوم بأعمال في هذه الأيام تصبّ في مصلحة إيران، حتى لو كانت هذه الأعمال تتعارض مع مصالح لبنان، ومصلحة الحزب)^(٢٢).

وهكذا يتبين لنا أن كلا من روسيا وإيران وحزب الله، يسعى لإتمام مكاسب سياسية في سوريا، على حساب أرواح بريئة، تُرهق كل ساعة، في سبيل إتمام هذه الصفقات المشبوهة.

أهداف التهجير الاستعمارية:

إن الدول الاستعمارية لا تحتاج أي تبرير لعدوانها، فكلما القطبين الاستعماريين الأمريكي والروسي، يسعى لتوسيع مستعمراته المباشرة وغير المباشرة في الشرق الأوسط.

فروسيا تحلم في كسر عظم أمريكا في سوريا، بعد أن أبدت الدول العربية رغبتها في عودة الاستعمار بصورة جديدة، وبطرق غير مباشرة إلى الوطن العربي^(٢٣).

إن بداية الاستعمار دائماً تأخذ شكل المنقذ أو المخلص، وبعد توسع تظهر أنيائه، ثم يلتهم من استغاث به، فيبدأ الاستعمار

بالتعويم الاقتصادي، ثم بإنشاء القواعد، وبعدها الهيمنة على مقدرات البلد بكامله، وهذا ما فعلته روسيا في سوريا، فالأسلحة السورية من الرصاصة حتى الطائرة صناعة روسية، ومنتجات روسيا الكاسدة تُعوم في سوريا، إضافة إلى الزحف العسكري المتمثل بحاملات الطائرات الروسية، وإنشاء قاعدة حميميم وغيرها، واستقدام الجند والخبراء، إضافة لعدم سيطرة النظام السوري على أي قرار سيادي^(٢٤).

حتى المفاوضات بين المعارضة والنظام، لا يتم الاتفاق على أي بند منها دون موافقة الدولة المستعمرة (روسيا)^(٢٥)، فإنه منذ بداية النصف الثاني من عام ٢٠١٧ وإلى يومنا هذا كان كل ما يسمى بـ«المصالحات» يقوم عليه الروس بشكل مباشر، كما حدث في الغوطة الشرقية والجنوب الدمشقي والقلمون.

وأما المستعمر الإيراني فقد عمل الطاغية حافظ الأسد ومن بعده ابنه الطاغية بشار، منذ نحو خمس وأربعين سنة على التمهيد لتكون دمشق الشق الثاني لعاصمته طهران، وذلك عبر المعاهدات الثنائية بين النظامين، وبالأخص المعاهدات الدفاعية المشتركة، فدعمت دمشق إيران في حربها مع العراق، ودعمت حزب الله في حربه مع باقي المكونات اللبنانية أو إسرائيل، وقال الكاتب سالم الكتبي: (تحويل موازين القوى ديموغرافياً والتلاعب بالهندسة الديموغرافية للدول العربية، خطة تأمرية نفذتها إيران في العراق، وها هي تمضي على قدم وساق في سوريا)^(٢٦).

واليوم لا يوجد مكان في سوريا (في مناطق سيطرة النظام) إلا وإيران فيه قواعد عسكرية، بما في ذلك العاصمة دمشق، ولعلنا ندرك حجم القوة الإيرانية في سوريا من خلال حجم القواعد العسكرية التي تتمركز فيها قواتها وعدد مقاتليها على الأرض، فقد نشرت صحيفة سبق السعودية مقالاً قالت فيه: (أما القواعد الإيرانية في سوريا فتشمل القاعدة الإيرانية في مطار دمشق الدولي، وهي المقر الرئيسي للحرس الثوري الإيراني، وبسيطرتها على المطار الدولي تمكنت من السيطرة على الإمدادات التي تصلها من إيران، وإمداد مختلف المناطق السورية بالمقاتلين الشيعة...)^(٢٧)، كما نشر الموقع تقريراً عن صحيفة أسبانية على لسان شاهين غوبادي العضو في المجلس الوطني للمقاومة الإيرانية قال: (لولا دعم إيران لما بقي الأسد في منصبه)، ونقلت الصحيفة قوله: (إن التدخل الإيراني في سوريا أكبر بكثير مما نتوقعه، فللحرس الثوري حوالي ستة آلاف عنصر من القوات

(١٩) انظر: مقالة «روسيا في سوريا الأهداف والقدرات والنتائج» لهشام جابر، موقع الجزيرة، ٥١٠٢/٠١/٠١م.

(٢٠) انظر: مقالة «الدور الإيراني في سوريا الأهداف والدوافع» (تقرير مترجم) أحمد الشيمي، موقع الألوكة، ٢١/١٣/٢٠٢١م.

(٢١) انظر: مقالة «مهمة حزب الله في سوريا» ماري كوسترز (لوموند ديبلوماتيك) ترجمة عبد الرحمن الحسيني، جريدة الغد، ٢١/٠٤/٢٠١٦م.

(٢٢) انظر: مقالة «علاقات حزب الله في سوريا وإيران» لـ ماثيو ليفيت، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، شباط ٢٠١٦م.

(٢٣) انظر: مقالة «دعوة الاستعمار للعودة والمفاضلة بين المستعمرين»، لييب القمحاي، جريدة الشروق ٩/فبراير/٢٠١٦م.

(٢٤) انظر: مقالة «روسيا في سوريا الأهداف والقدرات والنتائج» لهشام جابر، موقع الجزيرة، ٥١٠٢/٠١/٠١م.

(٢٥) مقال: «سوريا والمقاومة الروسية الإيرانية» إيد الجعفري، جريدة المدن / بيروت، ٢١/٠٢/٢٠١٦م.

(٢٦) انظر: مقال «كوارث إيران في سوريا» سالم الكتبي، صحيفة العرب، ٣/١/٢٠١٦م، العدد ١٠٥٠١، (ص ٨).

(٢٧) انظر: تقرير «أربع دول تحتفظ بقوات وقواعد عسكرية في سوريا» صحيفة سبق السعودية، ٤٢/أكتوبر/٢٠١٦م.

أضيف لما سبق من الآثار الاجتماعية:

٦. اختلاف الثقافة واللغة والعادات.

٧. تباين المجتمعات الأخرى (المضيغة أو المُساعِدة) في نظرتها للمُهْجَر واحترام إنسانيته.

٨. تفكك الأسر وتأثر الأفراد.

٩. ذوبان بعض الشخصيات والأخلاقيات في المجتمعات الغربية.

١٠. ضعف الوازع الإيماني لدى بعض المهجرين والذي يؤدي بهم أحياناً إلى ترك دينهم.

١١. التهجير عامل أساسي في بناء مجتمعات جديدة محتلة على أنقاض مجتمعات المهجرين أصحاب الحق.

١٢. ومن آثاره أنه يولد لدى المهجرين دافعاً قوياً للانتقام والثأر ممن طردوهم واغتصبوا أرضهم، مما يجعل العداء بين المجتمعات قائمة لا زوال لها، إلا بإفشاء العدالة.

وهكذا يتبين لنا أن التهجير القسري له آثار اجتماعية وخيمة على المجتمعات والأفراد، فهو يؤدي إلى تدمير أمة بأسرها وضياعها، ونشوء مجتمعات ظالمة على أنقاض المجتمعات صاحبة الحق، حيث لا عدالة ولا سلام ولا أمان في عالم ينشأ السلام لجماعات دون جماعات أخرى، في ازدواجية مؤلمة للمعايير الإنسانية تلاحق المهجرين فتنتزعهم من دورهم وأرضهم، وتفرضهم على مجتمعات جديدة.

الآثار الطائفية:

إن مشكلة الطائفية في سوريا ليست جديدة بسبب الثورة كما يروج البعض، بل هي قديمة بدأت تظهر بوضوح منذ سيطرة حزب البعث على مقاليد الحكم في سوريا والتمهيد لسيطرة الطائفة العلوية على نظام الحكم فيها، ومنذ انقلاب حافظ الأسد على الحكومة عام ١٩٧٠م بدأ بخطوة تسويد العلوية واستبعاد السنة، حيث اقتصرت المراكز والقيادات في الجيش والأمن والمراكز السلطوية على أبناء الطائفة النصيرية، وأخذت خطته تمتد وتنتشر مع سكوت أبناء السنة أو كبتههم وقمعهم، أو تحالف بعضهم مع النظام.

ومع تحجيم الوجود السني في أجهزة الجيش والمخابرات وقيادة الدولة وفتح المجال لأبناء الطائفة النصيرية ازداد زحف أبناء الطائفة من الساحل إلى دمشق، وصارت لهم في دمشق تجمعات سكانية خاصة بهم في المزة ٨٦، وعش الورور والديماس والسومرية، وحول المراكز العسكرية والنقاط الأمنية، بل وانتشرت (المساكن الراقية) لضباط الأمن الكبار في المزة

أو توتراد ويعفور، وهكذا بدأت الطائفية تكبر يوماً بعد يوم^(٣٩).

وأراد الأسد الأب أن يتوج طائفته بسياسة خارجية داعمة له، فكان التقارب الشيعي الإيراني، فنشأت صلة قوية بين الطائفتين، وزادت الروابط متانة بعد المعاهدات المشتركة، وتسهيلات دينية واقتصادية وسياسية، حيث برزت المنشآت الشيعية في السيدة زينب، وجرمانا، وحول المراقد الشيعية (المزعومة)، وأخذت الحسينيات تتوسع، وحملات التشيع تزداد دون أي رقيب^(٤٠).

توضّحت العلاقات الطائفية بين الفريقين بالتحالفات العسكرية حين وقف الأسد مع إيران ضدّ العراق، ودعم وتسليح شيعة لبنان وعلى رأسهم حزب الله وحركة أمل في محاولاتهم للتسلط على الحكم في لبنان والاعتداء على الوجود السني فيها.

ومع بداية الثورة جاء دور الشيعة لردّ جميل صنيع الأسد، فدخلت جنود حزب الله إلى سوريا وشاركوا النظام المجرم في الاعتداء على المدنيين وإراقة دمائهم، ولم تكن وقتها في بلادنا أي مظاهر عسكرية أو تسليح الثورة فقد كانت سلمية بحته.

وإن ما نراه من تمدّد شيعي كبير في كل المدن التي يحكمها نظام الأسد، ليشير بوضوح إلى الأهداف الإيرانية الشريرة التي تبيتها للوجود السني في المنطقة، من خلال نشر التشيع والعمل على إعادة الإمبراطورية الفارسية.

إن المراقب للوضع في سوريا يلحظ تنوع الممارسات الطائفية للنظام النصيري وحلفائه الشيعة ضد أبناء السنة وحقوقهم، وتظهر هذه الطائفية في أساليب شتى منها^(٤١):

١. شراء الأراضي وهدم المباني، وهذا ما رأيناه حول السفارة الإيرانية في المزة خلف مشفى الرازي، فقد هُجر ١٢٥ ألف نسمة، إضافة إلى شراء بيوت في أحياء دمشق عريقة، كالعمارة والشاغور والصالحية، وجعلها مقرات لميليشيات أبي الفضل العباس.

٢. حرق السجلات والنفوس: وذلك لطمس أصول حقوق أهل السنة، واستبدالها بمليكيات للشيعة والنصيريين^(٤٢).

٣. توطين الشيعة الإيرانيين والعراقيين واللبنانيين في دمشق، وتجنيسهم الجنسية السورية.

٤. احتلال الجامع الأموي في قلب دمشق، وعقد حلقات اللطم والعويل وسب الصحابة الكرام في باحات المسجد^(٤٣).

(٣٩) انظر: التغيير الديموغرافي في سوريا (التهجير القسري) في ظل الثورة السورية، د عبد المنعم زين الدين، مؤسسة جسور للدراسات، ٢٠١٢م.

(٤٠) انظر: المرجع السابق.

(٤١) انظر: المرجع السابق.

(٤٢) انظر: «التهجير القسري في سوريا السياسات الأدوات والتبعات» د. ياسر سعد الدين مركز أمية للبحوث ٧١٠٢/١، موقع الرائد ٨٢/يناير/٧١٠٢م.

(٤٣) انظر: الصورة رقم (١) وصورة رقم (٢).

والأقارب والأصدقاء.

(٢) التعرّض للعنف المرعب: فعدد كبير من اللاجئين قد تعرّض وشهد أحداثاً مروّعة.

(٣) الإصابات أو الأمراض الجسدية: فهذه الأمراض قد يكون لها أثر كبير على الصحة النفسية.

(٤) العيش في بيئة خالية من شبكات الدعم الاجتماعي: فغالباً ما تكون مخيمات اللاجئين أمكنة حزينة، والمنشآت الصحيّة فيها مكتظة وفقيرة، وقد يتواجد في المسكن نفسه أشخاص من مجتمعات مختلفة.

ويتابع الدكتور فيكرام: (أمّا أكثر الأمراض شيوعاً بين المهجرين فهي الاكتئاب والضغط الناتج عن صدمة، وقد يشكو الشخص عادة من صعوبة النوم، والكوابيس والشعور بالخوف والتعب، وفقدان الاهتمام بالنشاطات اليومية، والشعور بالرغبة في الانتحار، ومن الأعراض الواردة والأقل شيوعاً أن يصبح بعض الأشخاص كثير الاضطراب ويتصرف بطريقة غريبة)^(٣٦).

أما بالنسبة للأطفال الذين هُجروا بعد تعرضهم للعنف فيقول فيكرام: (يصبح الطفل منعزلاً ويشكو من الكوابيس وأوجاع الرأس، والآلام في أجزاء أخرى من جسده، ويتصرف كما لو كان أصغر سنّاً بكثير)^(٣٧).

الآثار الاجتماعية:

إنّ حياة الإنسان تتمثّل بمجمّعه الذي ترعرع فيه بين أهله وعشيرته وأحبابه، وفقدان هذه الثروة يزعزع كيان ذلك المجتمع، فلا يبقى مجتمع ولا تبقى حياة جماعية تفاعلية، فالناس سُردوا، ومات واعتقل وجرح مئات الآلاف، واغتُصبت الدور وبُذلت الأرض، وهكذا تفككت الأسر واغتيلت الجماعة، وبدأ الأفراد بإنشاء حياة جديدة معجونة بالأسى خالية من الروح، لا يوجد بينها وبين جديدها أي تناغم أو عوامل مشتركة تجمعهم.

ومما قرأته من مخلفات التهجير القسري ونتائجه، الآثار الاجتماعية ومنها ما كتبه الدكتور فيكرام باتل، حيث ذكر منها:

١. العزلة الاجتماعية والشعور بالغيرة.
٢. الإقامة ضمن شروط معيشية غير ملائمة.
٣. فقدان موارد الرزق.
٤. انتشار البطالة وتفشي اللصوصية والاحتيال.
٥. تدهور خدمات التعليم والصحة^(٣٨).

إنّ توسّعات إيران وحزب الله والمليشيات العراقية الشيعية في حمص واحتلالها الزبداني وداريا والغوطة والجنوب الدمشقي، ومن ثمّ تحكّمها بقلب دمشق القديمة ومنطقة المزة، كلّ ذلك يدلّ على أنّ إيران لها مصالح وأهداف بعيدة الأمد تتجاوز حتى عملية التهجير القسري في سوريا.

وهكذا تتضح لدينا الجهات الساعية بكلّ طاقاتها لرفع نسب التهجير من سوريا، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، وبشتى الوسائل المتاحة، ففي كلّ يوم تظهر جهة جديدة تزيد في نكبة شعبنا الذي يضحّي بكلّ ما يملك ليحصل على حرّيته وكرامته.

المبحث الثاني

آثار التهجير القسري على الشعب السوري

الآثار النفسية:

كما أنّ البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، فإنّ آلام المهجرين وأمراضهم تدلّ على سببها ألا وهو التهجير، وقد تذهب الكثير من الآلام فتدوب وتختفي بفعل الزمن، ولكن الآثار العميقة للتهجير والإبعاد والطرّد من الأوطان ترافق المهجر المسكين حتى آخر يوم في حياته، ومن هذه الآثار آثار مرضية نفسية، يقول الدكتور فيكرام باتل: (يتعدّد آلاف الأشخاص عن بيوتهم، هرباً من الحرب أو الاضطهاد أو المجاعة، وهؤلاء نسميهم اللاجئين أو النازحين أو المهجرين، أي الأشخاص الذين أُجبروا على ترك منازلهم في محاولة لإنقاذ حياتهم)^(٣٩).

ومن الأسباب التي دعت إلى ترك الديار والأوطان والأهل الحرب والإرهاب والشغب والاضطراب الأهلي، كلها حالات مفجعة واقعية في عدة مناطق في العالم، وإن أكثر الضحايا هم المدنيون لاسيما الأطفال والنساء، ويبقى اللاجئون الأوفر حظاً من الذين يبقون في منازلهم، فهم معرضون للرعب الناتج من الحرب وللمعاملة اللاإنسانية التي ينالونها من المعتدين^(٤٠).

وهكذا يعاني المهجر من الأمراض النفسية، جرّاء بُعده عن أهله ووطنه ودياره، إضافة إلى عبء البحث عن السلامة والحاجات الأساسية لحياته وحياة من يعول، إذ هي من مهمّات الصحة النفسية للاجئين.

ومن أهمّ المشكلات النفسية التي يعاني منها اللاجئون، كما يقول الدكتور فيكرام باتل:

(١) الحزن والحداد: فخسارة الممتلكات هي مفاجأة رهيبّة للأشخاص لاسيما الفقراء منهم، فضلاً عن خسارة الأهل

(٣٤) انظر: كتاب الصحة النفسية للجميع تأليف الدكتور فيكرام باتل، (ص ٤٠٢ ط ١ العربية معدلة، الناشر ورشة الموارد العربية، بيروت.

(٣٥) انظر: المرجع السابق.

(٣٦) انظر: المرجع السابق.

(٣٧) انظر: المرجع السابق (ص ٥٠٢).

(٣٨) انظر: المرجع السابق.

وهذا ما يرجح عودة الحرب بينهم فور انتهاء مصلحة أحد الطرفين عند حليفه الآخر.

وهكذا يبدو لنا من المشهد السوري، ما يخطط ويعمل عليه النصيرية والشيعة من محاولة لإزالة الأثر الإسلامي السني في سوريا، بل وفي كل العالم الإسلامي، فلم يوقروا جهداً أو طريقة إلا استخدموها لاحتلال المدن السنية ونهب خيراتها وبناء مستعمراتهم الإجرامية على أنقاض المدن السورية المدمرة.

ملخص البحث:

بعد هذا السرد لواقع التهجير في سوريا، وبعد هذه الدراسة التفصيلية، لا بد لنا من تدوين بعض النقاط التي توصلنا إليها:

١. التهجير الذي يتعرّض له شعبٌ بأكمله ليس تهجيراً عبيثاً، بل هو مطردٌ مدبّرٌ ومدرّوسٌ.

٢. التهجير القسريُّ قد أدانته جميع الأنظمة الدولية، والمنظمات الحقوقية، والقوانين الوضعية.

٣. تنوّعت طرق الإجماع في سوريا، حتى أُجبر أهلها على ترك كل شيء، والنجاة بأنفسهم ودينهم وأعراضهم وكرامتهم.

٤. للتهجير أهداف متنوعة منها أهداف استعمارية لاحتلال البلد ونهب خيراته، وأهداف سياسية لإنشاء مناطق نفوذ وتحالفات جديدة، وأهداف دينية طائفية تمثل برغبة إيرانية في إنشاء دولتها الصفوية الفارسية، والهيمنة على الشرق الأوسط.

٥. إن اللاعبين البارزين في سوريا والذين لهم دورٌ مهمٌ في التهجير بشكل مباشر أو غير مباشر، تنكشف هويّتهم كل يوم، وتظهر عورتهم من خلال اعتدائهم أو خذلانهم للشعب المظلوم، وكونهم لمصالحهم الفاشية، ومن هؤلاء: الأمم المتحدة والنظام السوري، وإيران وحزب الله، وأمريكا وروسيا.

٦. للتهجير آثار كثيرة على أبنائنا وأمتنا، منها آثارٌ نفسية جعلت الكثيرين من المهجرين بحاجة لعلاج نفسي وإعادة تأهيل، وآثار اجتماعية جعلت الجماعات أفراداً، فشردت الأسر وأفسدت الناس وغيّرت ثقافتهم وأخلاقهم، وآثار طائفية حيث نفّس المرص الصفوي بين أبناء الشعب السوري.

٧. الفرق بين المحتل الصهيوني والمحتل النصيري أن اليهود هجّروا أبناء فلسطين (أصحاب الأرض)، لجمع أبناء ملتهم



حي بابا عمرو - حمص

وتخليصهم من الشتات، بينما نجد النظام النصيري يهجر أبناء وطنه (أصحاب الديار) ويشتهمهم في كل بقاع العالم ليوطن في مدنها شيعة مرتزقة يساعده في الحفاظ على سلطته.

٨. علينا ألا نترك العمل على المستوى الدولي من خلال الضغط على جميع المحاكم والمنظمات والهيئات الدولية والقضائية والقانونية، لتسلط الضوء على قضيتنا السورية، وتقوم بواجبها الإنساني في الوقوف في وجه ظالم تقف معه كبرى الدول لمآرب ومصالح ومكاسب سياسية هزيلة وهشة بالنسبة لقضية الإنسانية والعدالة والحرية والكرامة.

وأخيراً ..

هذا ما سعى له النظام السوري، بتحالف سيئ الصيت ضدّ أهله وشعبه، فلم يكتف بظلم شعبه وقتله، بل أخرج كل أساليب الإجرام والحقد، فأفرغه على شعب طيب مسالم أراد يوماً أن يكون حراً كريماً؛ فهجره من وطنه واستلب أملاكه وصادر حقوقه، وجاء بالعدو الإيراني الحاقد الذي صب حقه الدفين على أهل السنة طمعاً في إنشاء إمبراطوريته المزعومة، وقد شاركه في حلمه المشؤوم الروس، الذين احتلوا البلاد وقراراتها، وجعلوا عليها سافلها، طمعاً بخيراتها الوفيرة.

أما المهجرين العزل فقد ساحوا في بلاد الله الواسعة، ليس لهم إلا الله، حاملين هموماً ثقيلة لا تطيقها قلوبهم الضعيفة، وورثوا آثاراً فتت في نفوسهم وأفكارهم وثقافتهم وحضارتهم، فتغيّر كل شيء لديهم، إلا شيئاً واحداً ألا وهو أملهم بنصر الله، ورغبتهم في نيل حريتهم، والله غالب على أمره... والحمد لله رب العالمين.

الصورة رقم (٤)



الصورة رقم (١)



الصورة رقم (٢)



٨. انتشار اللجان الأمنية ونقاط التفتيش الشيعية في العاصمة، وممارساتهم السيئة على الحواجز مع أبناء دمشق من أهل السنة^(٤٦).

٩. استغلال حالة فقر سكان دمشق وضيوهم (المهجرين) وتشجيعهم وتجنيدهم في ميليشياتهم مقابل مبالغ زهيدة.

١٠. تفريغ مناطق بأكملها من أهلها، وسيطرة الشيعة عليها، كالقصير وحمص والزبداني وداريا والمعضمية وحلب والغوطة الشرقية والقلمون وبيلا جنوب دمشق.

١١. المجازر الواسعة التي طالت مناطق السنة حصراً، وفي كافة المدن السورية.

أهداف كلا الطائفتين (النصيرية والصفوية):

إن الطائفة الشيعية الصفوية التي اجتاحت بلاداً إسلامية وعربية متعددة مثل العراق وسوريا ولبنان واليمن والبحرين هدفها:

- نشر التشيع في هذه البلاد.
- تحقيق حلمها في بناء الإمبراطورية الصفوية.
- قتل أهل السنة وإبادتهم، أو تهجيرهم والاستيلاء على ممتلكاتهم.
- إنهاء الوجود العربي، بدافع قومي فارسي يفوق دافعهم الديني لذلك.

أمّا الطائفة النصيرية التي احتلت سوريا منذ خمسين سنة ونكّلت بأهل السنة أشدّ التنكيل، فإن هدفها من ذلك إضعاف الوجود السني وتقوية طائفاتها الضعيفة بشتى الوسائل، ولا وسيلة أقرب إلى تحقيق هذا الهدف من توحيد مصالحتها مع شيعة المنطقة وإيران، فاتفقوا على اجتثاث أهل السنة وزيادة الروابط بين أبناء الطائفتين الشيعية والنصيرية؛ رغم ما كان بينهم من عدا ديني مستحكم على مدى التاريخ، إذ يعتقد الشيعة كفر النصيرية،

٥. تنظيم مسيرات فاطمية وحسينية لأطفال سورين يشيعونهم، ثم يحملونهم أعلام حزب الله، ورايات طائفية، يجولون بهم أحياء وأسواق دمشق القديمة^(٤٧).

الصورة رقم (٣)



٦. انتشار صور لنصر الله، وخامنهئي، وصور مزعومة لأئمة الشيعة، إضافة إلى الهتافات الشيعية في أسواق دمشق.

٧. إنشاء الحسينيات داخل سور القلعة في دمشق^(٤٨).

(٤٤) انظر: الصورة رقم (٣).

(٤٥) انظر: تقرير السورانية نت (عبد الله نظام أبرز أذرع إيران في دمشق يشتري عقارات لصالح إيران) ٥١ / أيلول / ٥١٠٢

(٤٦) انظر: الصورة رقم (٤).

خطوة نحو تطوير علومنا اللغوية

الصيغ الزمانية في اللغة العربية
دراسة تقابلية مع اللغة التركية

محمد علي النجار - محرر مجلة مقاربات - باحث ماجستير



مقدمة

إن الصيغ الزمانية التي يحتاج إليها البشر للتعبير عن احتياجاتهم اليومية تكاد تكون واحدة، وهذا القانون ينطبق على الناطقين بكل من اللغة العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية وغيرها... ولكن الفرق بين العربية واللغات الأخرى الأكثر شيوعاً في العالم؛ أن العربية لم تتغير منذ نزل القرآن بها، بينما تغيرت لغات الأقوام الأخرى، والفرق بين علماء اللغة عند العرب وغيرهم أن العرب ما زالوا مرتبطين بالتقسيم النحوي للفعل (ماضي ومضارع وأمر)، وقد قصروا في بناء علم جديد للغة العربية يعلم العرب لغتهم الفصحى، ويعمل جنباً إلى جنب مع علم النحو في الحفاظ على اللغة ودفعها إلى الأمام... وفي حين قصر العرب أجيالاً في تجديد علوم اللغة فإننا نجد أبناء الأمم الأخرى قد أعادوا هيكلة لغاتهم وقدموها -لأبنائهم وغيرهم- في نظام علمي منطقي يسير، إذ نجدهم يقسمون الأفعال والصيغ الزمانية والتراكيب في لغاتهم وفق الوظائف والمعاني التي تؤديها في كل من أزمنة الماضي والحاضر والمستقبل، ويوزعون التراكيب على الوظائف التي تؤديها.

إنه لدى مقارنة الصيغ الزمانية البسيطة والمركبة في اللغة العربية بالتركية والإنجليزية أو الفرنسية نجدها لا تختلف من الجهة الوظيفية أو الدلالية، لكن قد تختلف في عدد بعض التراكيب أزمنة خاصة في حين لا تعدّها لغة أخرى... ولكن على العموم نجد التقسيم التركي للأزمنة هو الأقرب إلى اللغة العربية.

لدى دراستنا للغات العالمية المتقدمة نجد العمدة في التقسيم الزمني فيها يعود إلى أمرين، أحدهما الزمن والثاني الصيغة.

إن التقسيم الدلالي أو الوظيفي للأساليب اللغوية هو الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه علم اللغة المجرد، الذي يعلم اللغة كوسيلة تواصل بشري، بينما يعتمد النحو في تصنيفه لمفردات اللغة وتراكيبها الشكل الصرفي للكلمات أحياناً -كتقسيمه الأفعال إلى ماضٍ ومضارع وأمر- وحركة الحرف الأخير غالباً، وهو ما يعرف

بنظرية العامل وما تتضمنه من علة وعامل ومعلول وخلافات فيها، ولهذا تعاني كتب تعليم اللغة العربية للعرب أو لغيرهم من الازدواجية في محاولتها التوفيق بين حاجتنا اللغوية المبنية على الوظائف والدلالات والاستخدام وبين علم النحو المبني على نظام الصرف والعامل وفلسفتهما.

وقد سلط الضوء في هذا البحث المختصر على الصيغ الزمانية في اللغة العربية مقارنة باللغة التركية خاصة، وقدمت لذلك بمبحث خاص عن أهم الأسس والمرتكزات التي تمكنا من بناء (علم اللغة العربية) المجرد ليؤدي خدماته جنباً إلى جنب مع علوم اللغة الأخرى، وقد تم ذلك في مبحثين وخاتمة.

المبحث الأول: (الحاجة إلى تجديد علوم اللغة) وفيه ثلاثة مطالب، المطلب الأول: كيف نقدر حاجتنا إلى التطوير اللغوي، المطلب الثاني: الدعوات إلى تجديد علوم اللغة، المطلب الثالث: أصول في منهجية بنائنا اللغوي.

المبحث الثاني: (صيغ الأزمنة في اللغة العربية) وفيه ثلاثة مطالب، المطلب الأول: الأزمنة في الجملة الفعلية، المطلب الثاني: الأزمنة في الجملة الاسمية، المطلب الثالث: الأزمنة المحكية.

وأخيراً خاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

حاجتنا إلى تجديد علوم اللغة

تمتاز عصور التقدم العلمي والاستقرار الحضاري بسير العلوم وفق الأهداف المبنية على حاجات الإنسان والمجتمع، بينما لا تجد أهدافاً حقيقية في فترات الاضطراب والتخلف الحضاري نتيجة لعدم إدراك الأمم لحاجاتها... إذ إن الإنسان الذي يعيش في بيئة مضطربة يفقد القدرة على رؤية المستقبل... وعلى فرض أن العلماء الذين يعيشون في بيئة متخلفة أدركوا حاجتهم وقاموا

التعليم آفاق وآمال

وأولو المعارف يجهدون لينعموا
سيان فيه أخو الغنى والمعدم
والبدن لا يخفيه ليل مظلم
بالعلم، لولا الناب ذل الضيغ
وسواه من أيامه، يتظلم
حسبك في أسماعهم، تترنم
وخز الأسنة فيهم لا يؤلم
صدم الجهالة بالمعارف أخزم
إن البلاد بأهلها تتقدم
لا يرحم الرحمن من لا يرحم

إن المعارف للمعالي سلّم
والعلم زينة أهله بين السورى
فالشمس تطلع في نهار مشرق
لا فخر في نسب لمن لم يفتخر
وأخو العلا يسعى فيدرك ما ابتغى
والخاملون إذا غدوت تلومهم
في الناس أحياء كأموات الوغى
فاصدم جهالتهم بعلمك إنمّا
واخذم بلاداً أنت من أبنائها
واملاً فؤادك رحمة لذوي الأسى

مصطفى صادق الرافعي



المطلب الثالث: كيف تطور اللغة العربية؟

على الرغم من اتفاقنا على الحاجة لتطوير اللغة وتغيير أساليبنا التعليمية فإننا سنختلف في مفهوم هذا التطوير أو التغيير... وسأعرض هنا مقترحي لتطوير اللغة العربية وفق مجموعة من المقدمات والقوانين والمرتكزات.

أولاً: كيف تتطور العلوم الإنسانية؟

إن تطوير علم ما لا يقضي بالضرورة نسف بنيانه القديم أو الزيادة عليه أو تغييره بتغير الأزمان... إن بعض العلوم يتم تطويرها بهدم الأجزاء التالفة منها والاستفادة من القديم الصالح في إعادة تشييد أركانها وفق حاجات البشر، لكن البعض منها لا يقبل الهدم والبناء كعلم الفيزياء مثلاً وعلم أصول الفقه والمنطق والعلوم الدينية الخيرية المؤسسة على الغيب، لأن أمثال هذه العلوم مبنية على مسلمة عقلية ثابتة بالحس والتجربة والعقل أو الإيمان بالغيب، وإن إعادة البحث فيها عبر دراسات علمية حديثة لن تقودنا إلا إلى نفس النتائج التي سبق إليها الأولون.

ثانياً: كيف تتطور اللغات؟

إن اللغات الإنسانية عموماً تتعرض لنوعين من التطوير، أحدهما الهدم والبناء، من خلال الاستغناء عن بعض أجزاء اللغة مع مرور العصور والتعويض عنها بجوانب جديدة، كما حدث لكثير من اللغات العالمية إذ تغيرت من فترة لأخرى كالإنجليزية والتركية والفرنسية وغيرها... النوع الثاني من التطوير يكون من خلال تحديث طرق عرض اللغة وتقسيمها وتقديمها بناء على علومها ومعارفها السابقة.

وإن الناظر في لغتنا العربية وعلومها الأصيلة - وخاصة النحو - يجدها من القسم الذي لا يقبل الهدم والبناء وإعادة تغيير أساسيات اللغة كما هو الحال في باقي اللغات، والسبب في ذلك ارتباطها الوثيق بالقرآن الكريم وعلوم الإسلام في علاقة متبادلة بينها وبين الدين؛ إذ نقلته، وحفظها من التغيير، حتى إنه قد كتبت بها علوم العرب والمسلمين في شتى مجالات الحضارة والدين والأدب والتاريخ والفن والسياسة لأربعة عشر قرناً بلا تغير فيها، فأصبح التفكير بهدم أجزاء من علومها أو الاستغناء عنها والتعويض بشيء جديد ضرباً من الخيال...

ونتيجة لحتمية لغتنا بشكلها الفصيح وعلومها الموروثة؛ فإنه لم يبق لنا طريق لتحديثها سوى تغيير إعادة عرض قواعد النطق بها عبر دراسات أقرب إلى مقاصد الكلام الإنساني وأهدافه مما هو الواقع في علم النحو العربي.

ثالثاً: ما المنطلقات في تطوير اللغة العربية؟

إن أساسنا في تطوير لغتنا هو مراقبة مقاصد المتكلمين بالعربية لمعرفة الأساليب التي يعبرون من خلالها عن المعاني التي

الدكتور شوقي ضيف في كتابه (تجديد النحو) وكانت خطته تعتمد في جزء كبير منها على إزالة بعض أبواب النحو وزيادة بعضها، ومنهم أيضاً الدكتور تمام حسان في مجموعة من مؤلفاته لعل أبرزها كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها)، والذي بنى فيه رؤية جديدة للنحو العربي، وتعرض فيه للعلاقة بين زمن الفعل وبنائه واسمه^(١)، ومنهم إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو)، وتبعهم في ذلك مجموعة أخرى من الباحثين، ومن أبرز من تهجم على النحاة وكتبهم في عصرنا الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في مجلة الرسالة حينما كتب مقاله الشهير (آفة اللغة هذا النحو).

مصير جهود التجديد:

والحقيقة أن محاولات هؤلاء العلماء تجديد النحو قد ظهرت نتيجة لإدراك حاجتنا إلى التطوير اللغوي في ظل ضياع العربية، ولعل في دراستهم للغات الأجنبية الأخرى ما أعطاهم تصوُّراً عن طرق دراسة التراكيب اللغوية، فجاءت جهودهم التجديدية محاولة للتوفيق بين ما رأوه من تطور لغوي في عالمهم وبين قواعد النحاة، ولكن محاولاتهم قد عجزت عن إحداث تغيير حقيقي في مسيرة اللغة لسببين، الأول: أنهم انطلقوا إلى التجديد اللغوي من منطلقات النحاة القديمة وليس من منطلقات مغايرة، فلم تخرج تصوراتهم عن الطريقة النحوية في المجمع، والثاني: أن دعوتهم للتجديد كانت في مواجهة النحو، العلم المتكامل البنيان على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمان، مما جعل الأكثرية تغض النظر عن جهودهم، في حين رأى صنف آخر من الباحثين في جهودهم محاولة لهدم البناء النحوي الذي يمثل عصب العلوم اللغوية عند العرب، فتم رفضها حتى دون تفهمها أحياناً.

إن رفض مجمل اللغويين لجهود المجددين لا يعني أبداً أن جهودهم قد ذهبت هباءً فقد قاموا بأبحاث دقيقة ستكون مفيدة في بناء علم اللغة التجريدي الذي ينبغي أن يكون مقدمة غيره من العلوم اللغوية.

ما الحل؟

إن النحاة لم يخطئوا أو يقصروا عن فهم العلاقة بين شكل الكلمة ومدلولها وخاصة في الأفعال، ولكنهم بنوا علم اللغة وفقاً لمعارف زمانهم وحاجاتهم؛ بينما قصّر الذين جاؤوا بعدهم عن بناء علم لغويٍّ يمثل معارف عصرهم ويخدم حاجاته.

إن الحل بحسب ما خلص إليه البحث، يكمن في بناء علم جديد للغة نطلق فيه من منطلقات وأسس وظيفية، يعلم اللغة نفسها نمطاً تعبير وتواصل بشري، يكون مقدمة لعلوم العربية أو معيناً لها لا بديلاً، لتجنب المشكلتين اللتين وقع فيهما من دعا سابقاً إلى التجديد اللغوي.

(١) - اللغة العربية معناها ومبناها طبعة دار الثقافة عام ١٩٩١م (ص ٤٢ وما بعدها).

الناطقين بها... إذ إن ارتباط العرب ولغتهم بالإسلام وما نتج عن ذلك من تفاعل حضاري غير وجه العالم؛ جعلها لغة عالمية متقدمة تنافس لغات أقوى الأمم وأكثرها تحضرًا، ولا يزال عدد المقبلين على تعلمها يزداد يوما بعد يوم، ولكنه وكما يشعر العاملون في مجال تدريس اللغة للعرب بالانفصام التام بين النحو خاصة وواقع اللغة، فإن المعاناة نفسها يجدها العاملون في مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وذلك للانفصال التام بين المستويات اللغوية والقواعد العربية التي تدرس وفق التقسيم النحوي، حيث يصل كل من المعلم والمتعلم إلى مرحلة -تبدأ في المستوى المتوسط عادة- يشعر فيها بالانفصال التام بين اللغة وقواعدها.

ثالثا: إن الميدان الثالث الذي نشعر فيه بقصورنا اللغوي ويجعلنا مجبرين على قضاء الوقت للعمل على تطوير علومنا اللغوية ميدان الحضارة، فإن الأمة لا تبذل وتتجج خارج لغتها، ونحن العرب لا يمكننا أن نؤمل نهضة مستقبلية بينما نبني أملنا الحضاري على اللغات الأجنبية، لهذا ينبغي أن تكون لغتنا قادرة على مسيرة كل أنواع التطور الإنساني لعله يأتي علينا يوم ندلي بدلونا فيه.

إن أحد أقرب أشكال تخلف مناهجنا اللغوية أن تجد الطالب العربي يقدر على ممارسة اللغة الأجنبية والتكلم بها بطلاقة مع فهم قواعدها وبناء تصور متكامل عنها خلال سنة، ولا يجيد لغته الفصحى أو علم النحو فقط على الرغم من دراسته سنوات عدة... وإن أحد أسباب قدرة طلابنا العرب على تعلم اللغة الأجنبية وإتقانها أكثر من العربية؛ أنه يتعلم الأجنبية لغة -أي منظومة متناسقة تحوي نمط كلام وتواصل بشري- بينما يتعلم العربية إحصاء وفلسفة ومعنى، ولا يرى لعلومها أثرًا حقيقيًا في واقعه العملي.

وإن العرب اليوم إذا ما أرادوا أن يمارسوا دورهم الحضاري فعليهم أولًا أن يعودوا إلى الفصحى لتكون لغة جامعة لهم ولمن يتعلم لغتهم... وإن العودة إلى الفصحى تستلزم منا بناء علم لغوي جديد مركّز إلى علومنا اللغوية الموروثة، يعلم اللغة نفسها كما تعلم لغات العالم الأخرى، ويكون مدخلًا إلى علومنا اللغوية الاختصاصية.

المطلب الثاني: الدعوات إلى تجديد علوم اللغة

يعد القاضي الظاهري ابن مضاء الأندلسي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ أول من جهر بنقد النحو العربي ونظرية العامل والتعليل التي بُني عليها، ولم يصلنا من حملته على النحاة سوى كتابه (الرد على النحاة)، ولعل تلك الدعوة قد اختفت تمامًا إلى أن أعادها إلى الحياة بعض علماء اللغة المعاصرين تحت ضغط الحاجة وعدم قيام علم النحو باحتياجاتنا اللغوية.

من أبرز من دعا إلى تجديد علم النحو -العلم الأساس في اللغة -

بتحديدها فإنهم لا يملكون القدرة على تغيير المسيرة العلمية التي ورثوها عن سبقتهم وفق احتياجاتهم، والسبب في ذلك شيوع تقدس وسائل الحياة وشكلياتها على حساب مقاصدها وروحها، فيغدو التقليد الصوري صفة العلم، وتختلط مفاهيمهم ويفقدون القدرة على التمييز بين الاتباع الذي يعني سلوك طريق السابقين نفسه، وبين التقليد الذي يعني المحافظة على الصورة الموروثة وترك الطريق الذي وصل من خلاله السابقون إلى أهدافهم.

ولقد تأسس علم النحو العربي في زمن السلف الصالح، في القرن الأول الهجري، وفق حاجة ذلك العصر لحماية اللغة العربية من الخطأ بسبب الدخيل عليها، من خلال شرح اللغة وتعليم الناس ضبط أواخر الكلمات، بينما كانت مهمة علم الصرف تعريف المتعلمين على طرق بناء الكلمة ودلالاتها مفردة، في حين كان علم الإملاء مخصصًا لضبط قواعد الرسم العربي، وأما علم البلاغة فقد أسس لدراسة المعاني الحقيقية والمجازية للكلام العربي، وما زالت علوم اللغة إلى اليوم تؤدي مهمتها في خدمة اللغة العربية، ولكن المشكلة في أن اللغة بشكلها الأصلي بدأت تفقد وجودها؛ ولهذا بدأت تظهر فجوة كبيرة بين المتعلم وعلوم اللغة إذ غدت هذه العلوم صفة لواقع افتراضي غير موجود.

المطلب الأول: كيف نقدر حاجتنا إلى التطوير اللغوي

نكاد نكون متفقين على أن علم اللغة العربية يحتاج إلى تطوير كما هو حال كل العلوم الإنسانية التي تتغير من يوم إلى آخر في بناء متين يتناول بحثًا عن الكمال، وإن السعي نحو التغيير أو التطوير والإنتاج غالبًا ما يسبقه إحساس بالحاجة إليه، فما الحاجة التي تشعرنا بوجود تطوير علومنا اللغوية وتحديثها؟

سأسلط الضوء هنا على حاجتنا اللغوية في ثلاثة ميادين أساسية.

الأول: في ميدان تعليم اللغة للعرب؛ إذ لم تستطع أدواتنا اللغوية أن تحافظ على لغتنا فذهبت الفصحى وحلت محلها لهجات عامية رطينة، ومنهم من يعزو ذلك إلى الاختلاط بالأمم الأخرى، فما قدرتنا على مواجهة هذا الاختلاط الأممي أو آثاره الممتدة لمئات السنين؟ ولعل من يقول ذلك يكون محققًا إلى درجة ما، ولكن السؤال المهم؛ إذا كان هذا واقعنا الذي لا مفر منه فهل أوجدنا ما يحل هذه المشكلة ويعيد الفصحى إلى الحياة؟ والحقيقة أن العلماء لم يبذلوا جهودًا كافية في ذلك.

إن علم النحو الذي يراه كثيرون العلم الأساس في تعليم اللغة، لا يستطيع أن يهب اللغة روحها، ولا يهب اللغة لمن يتعلمه فكيف بمن لم يتعلمه؟ وما أكثر طلابنا الذين تعلموا النحو أعوامًا وعجزوا عن الفصحى؟ بل وكم عدد الأعاجم الذين يتقنون النحو ومساائله أكثر ممن تعلمه من العرب ولا يجيد السلام ورده؟

الثاني: الحاجة الثانية نجدها في ميدان تعليم اللغة العربية لغير

الإنجليزية والتركية، ثم تدريس الأزمنة والصيغ العربية من خلال ربطها بأساليب وقواعد اللغتين السابقتين، كعملية تيسير لاكتساب اللغة العربية بالاستفادة من ملكة اللغة الأم وقواعدها اللامحسوسة المتواجدة بالفطرة في عقل الطالب، وقد كان اطلاعي على جهود العلماء المعاصرين في هذا الباب متأخراً عن التقسيم الذي وصلت إليه بالمقابلة والتجربة، ولعل في تأخر الاطلاع على ما كتبه السابقون من الخير - أحياناً - مثل ما نجده في دراستها والاطلاع عليها، فكثيراً ما تأسّر الفكرة السابقة قارئها وتحول بينه وبين الانطلاق إلى آفاق أخرى لم يصل إليها السابقون.

إن اللغة العربية لها نظامها الخاص الذي يعتمد الجملة الاسمية والفعلية أساساً في أشكال الجملة العربية، هذا في النحو العربي، وأما في البلاغة فتتكون الجملة من مسند إليه وهو (الاسم) ومسند وهو إما (صفة) أو (فعل)، ولعل التقسيم البلاغي هو الأقرب إلى الوظيفة اللغوية، وإننا إذا اعتبرنا النظام البلاغي والنحوي معاً في تقرير أنواع الجمل نستطيع أن نقول: الجملة الاسمية ما أسندت فيها الصفة إلى الاسم، والجملة الفعلية ما أسند فيها الفعل إلى الاسم، مثل: (محمد معلم وأحمد في الصف: جملة اسمية) و (محمد يقرأ ويقرأ محمد: جملة فعلية)، ومن خلال ما سبق سننطلق إلى دراسة الصيغ الزمانية في اللغة العربية.

لم يخطئ النحاة الأقدمون - بلا شك - في تقسيم الأفعال إلى (ماضٍ ومضارع وأمر)، فهم أكثر إدراكاً للغة منا، ومع هذا علينا أن نعلم أن منطلقاتهم إلى اللغة كانت تختلف عن منطلقاتنا؛ إذ إن الواقع اللغوي الذي عاشوه يختلف عن واقعنا الذي يدعونا إلى إعادة هيكلة اللغة وتقديمها وفق معارفنا المعاصرة... وليس صحيحاً أبداً ما قام به البعض من محاولة الاعتداء على البناء النحوي المتناسق لتحمله حاجتنا المعاصرة، وإنما الصحيح أن نتعلم من النحاة كيف نبني بناءً جديداً نتبع فيه أساليبهم العلمية في اعتماد مبدأ الفرض والتجربة والقياس واستقراء اللغة والتراكيب؛ لتمييز التراكيب الفاسدة من التراكيب المفيدة في الواقع اللغوي.

وسأقوم في هذا المبحث بعرض الأزمنة العربية التي توصلت إليها بواسطة الاستقراء للكلام العربي، مع المقارنة بين الصيغ الزمانية في كل من العربية من جهة والتركية من جهة أخرى.

وقد جربت هذه الأزمنة واختبرتها مدة طويلة فثبتت صيغها ولم تتأثر على الرغم من اختلاف المواطن التي استخدمت فيها، ولم أجد مزيداً عليها.

إن الأزمنة التي وجدتها في لغتنا العربية هي اثنا عشر زماناً، أربعة منها بصيغة الجملة الفعلية للدلالة على حدث مقترن بزمان، وأربعة منها بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على صفة ثبتت للاسم - المبتدأ أو المسند إليه - مقترنة بزمان، وأربعة منها بصيغة الحكاية للدلالة على الأزمنة البسيطة في الزمن الماضي البعيد.

تتركب مع صيغة الفعل الحاضر لتنتج صيغة النهي المقابلة لصيغة الأمر مثل: (اكتب # لا تكتب)، ونلاحظ أن الأمر هنا عبارة عن صيغة تقابل النهي، وليس زمناً قسماً للماضي والمضارع كما في النحو أو كتب العربية للناطقين بغيرها.

(لم): تدرس بعد نهاية الأزمنة البسيطة كأسلوب آخر لنفي الزمن الماضي، مثل: (تناول الطفل طعامه، لم يتناول الطفل طعامه).

(ليس): تدرس في المستوى المبتدئ في نفي الجملة الاسمية، مثل: (المعلم موجود، ليس المعلم موجوداً).

المبحث الثاني صيغ الأزمنة في اللغة العربية

الأزمنة ثلاثة هي الماضي والحاضر والمستقبل، وهي إما أن يعبر عنها بشكلها البسيط أو بمعان أخرى مضافة إليها، ومن هنا جاء تنوع الأزمنة في اللغات الإنسانية، فإذا اعتبرنا مع الزمن المجرد الصيغ المخصصة للتعبير عن كل حدث مقترن بزمان حصلنا على نظام تقسيم الأزمنة الخاص بكل لغة.

ومن أشهر من فطن إلى هذه المسألة في اللغة العربية الأستاذ فريد الدين آيدن حيث كتب بحثاً تتبع فيه اختلاف الدلالة الزمنية للفعل باختلاف الصيغ، وباختلاف الكلمات التي يقترن بها في بحثه الأزمنة في اللغة العربية، ولكنه لم يُقعد المسألة واكتفى بالإضاءة على بعض جوانبها؛ من خلال ملاحظة تغير معنى الصيغة الفعلية بحسب العوامل والأدوات الداخلة على الجملة العربية.

وللدكتور محمد موفق الحسن بحث لا بأس به في هذا الباب^(٢) عرض فيه لأصل المسألة الزمانية واختلاف العلماء فيها، ثم سلط الضوء على القصور والخلط الذي تعاني منه كتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في مجال تقديم الصيغ الزمانية، مستنداً على ذلك بسلسلة اللسان وسلسلة الطريق إلى العربية والعربية بين يديك^(٣)، ثم عرض لتصوره عن الأزمنة واستمدته في معظمه من أبحاث الدكتور تمام حسان ولم يستطع أن يأتي بجديد إذ لم يتخلص من عقدة النحو ومنطلقاته، كما يتضح ذلك في حديثه عن الزمن الحاضر إذ عاد إلى التعريف النحوي، وهنا يبدأ الخطأ في تدريس الأزمنة وبالتالي فإن كل ما يبنى عليه يبقى قاصراً، ثم اعتمد التراكيب الفرعية أزمنة مستقلة بذاتها مما أدى إلى تعقيد الرؤية والخروج عن التقسيم المنطقي.

وبالنسبة لما أكتبه هنا وما وصلت إليه من تقاسيم للصيغ الزمانية فقد كان نتيجة تجربة شخصية استغرقت بضع سنين في دراسة اللغة

(٢) - كتاب أبحاث مؤتمر إسطنبول الدولي الثاني لتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، (إضاءات ومعالم)، البحث بعنوان (قصور كتب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في مجال تدريس الأزمنة الفعلية المركبة) (ص ٥٨٤ - ٢١٥).

(٣) - الكتاب السابق (ص ٧٩٤).

أقسام الخبر والإنشاء:

لدى نظرنا إلى الخبر نجد أنه ينحصر في ثلاثة أزمنة أساسية: الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا هو الأساس في تقسيم أساليب الكلام العربي... وإن كان في كل زمن من هذه الثلاثة تقسيمات نعرض لها لاحقاً.

كما يدخل في الخبر صيغ إفادة الوجوب مثل (يجب علي أن) وصيغ الاستطاعة (أستطيع أن)، وهي وإن كانت صيغ خبرية لكن لا يعتبر مفهوم الزمان فيها لأنها إنما وجدت لإفادة معنى ما بغض النظر عن القالب الزمني الذي جاءت على صورته، وإنه من الجيد لنا كمختصين أن نعرف مكان هذه الصيغ من اللغة، وأما بالنسبة للمتعلم فيكفيه منها أن يعرف أنها صيغ للدلالة على هذا المعنى أو ذاك ويجيد استخدامها بعيداً عن فلسفة المقارنة بين أصل التركيب وهدفه.

وأما الإنشاء فهو أقسام لكل منها وظائفه الخاصة وأهمها: الأمر والنهي والعرض والطلب والتمني والرجاء.

كيف نعرض القواعد؟

كما هو الحال في الإنجليزية والتركية تعرض اللغة من خلال الأزمنة والصيغ الإنشائية وأدوات الربط، كل منها في مكانه من جسم اللغة، متضمنة فيما يناسبها من المواضيع والمواقف الحياتية، إذ تكون المعاني المركبة ووظائف الكلام هي التي تستدعي المباحث القواعدية اللازمة لها، وليس العكس كما هو الحال في كتب تدريس القواعد العربية للعرب، ولا تكون وظائف الكلام وسياقاته منفصلة عن القواعد كما هو الحال في كتب تعليم العربية لغير الناطقين بها.

في علم اللغة العربية -بشكله التجريدي- لا نحتاج درساً اسمه نواصب الفعل المضارع ولا جوازم الفعل المضارع، ولا نحتاج درساً اسمه النواسخ، وإنما توجد وظيفة يُتحدث عنها، وتُدرس كل أداة مما سبق في مكانها من الأزمنة أو الصيغ، وسأضرب أمثلة لذلك:

(أُن): تدرس في القوالب المركبة، كأداة للربط بين فعلين أولهما فعل مساعد يدل على صيغة، والثاني فعل يدل على حدث مثل: (يجب أن أذهب... - أستطيع أن أجري... - يمكن أن أشرب... - أفضل أن أقرأ... - إلخ).

(لن): تدرس في زمن المستقبل إذ هي أداة النفي فيه، مثل: (سأسافر إلى البرازيل - لن أسافر إلى البرازيل).

(كي): تدرس في المستويات المتقدمة للربط بين جملتين الثانية منهما سبب للأولى، مثل: (جاء عامر كي يأخذ السيارة).

(لا) الناهية: أداة توضع قبل الفعل بصيغة الحاضر لتفيد النهي، إذ

يتغون بإصالتها إلى الآخرين، ونقوم بوضع كل أسلوب يستخدمه المتكلمون مع قسيمه اعتماداً على معارفنا اللغوية السابقة... وهنا نجد تساؤلاً مهماً؛ أليس في علوم اللغة العربية ما يتكلم في هذا الجانب ويوضحه؟

إن أصل هذا التقسيم المنطقي للغة وقواعدها موجود في علم البلاغة -كما سيأتي لاحقاً- أكثر مما هو موجود في علم النحو، وإن كان النحو لا يخلو من بعضه؛ إذ إن مباحث البلاغة تُعنى بالدرجة الأولى بمعاني الكلام ومقاصد المتكلمين واحتياجاتهم الحقيقية الواضحة أو المجازية البسيطة أو المعقدة الخفية، ونجد علم أصول الفقه يشترك معها في نظرتهم إلى الكلام وتقسيمه له... ومن خلال جمعنا بين مباحث علوم اللغة العربية كالبلاغة والنحو والإملاء والصرف وفقه اللغة وغيرها، بالإضافة إلى علم اللغة التطبيقي والتقابلي أو المقارن سنجد الطريق لبناء إطار مرجعي خاص بلغتنا العربية.

وفي هذا الصدد ينبغي أن ندرك أنه لا يمكننا أن نتبع في البناء اللغوي الجديد لعلم اللغة العربية مصطلحات جديدة بحتة -كما يتصور البعض- لأنه في النتيجة عبارة عن مدخل إلى علوم العربية الأخرى النحو والصرف والبلاغة والكتابة... ولهذا سنختار من مباحث هذه العلوم ما يخدم هدفنا ولا تتعد دلالته عن الوظيفة التي تؤديها التراكيب اللغوية.

الكلمة عند النحويين ثلاثة أنواع: أسماء وأفعال وحروف، وهو تقسيم منطقي عام، وقد فصل فيه الدكتور تمام حسان فقرر أن اللغة تتكون من سبعة أشياء: الاسم والصفة والفعل والظروف ثم الضمائر والأدوات والفواصل... ومهما يكن فإن الجملة اللغوية المفيدة تتكون من ضم بعض هذه الأجزاء إلى بعضها ضمن نظام عرفي بين المتكلمين باللغة.

والسؤال الآن إذا كانت هذه هي عناصر كل لغة، فكيف يستخدم البشر هذه اللغة وما أغراضهم منها؟

تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء:

لقد عني علماء اللغة وفقهاء الإسلام كثيراً بأنواع الكلام ودلالاته وقرروا أن أنواع الكلام كلها ترجع إلى قسمين، أحدهما الخبر والثاني الإنشاء، كما نجد ذلك في كتب البلاغة وأصول الفقه... إذ إن المتكلمين بلغة ما قد اتخذوا اللغة عرفاً يتواصلون بواسطته ويعبر كل منهم من خلالها عن نفسه، ولدى استقرارنا لحاجات هؤلاء المتكلمين وأغراضهم نجد أنها لا تعدو التقسيم الذي استقر عليه علماء البلاغة أو أصول الفقه الإسلامي، ونجد تحت كل من هذين القسمين أنواعاً مختلفة من المعاني اللغوية المركبة، والمهم لنا هنا في (علم اللغة العربية المجرد) الأنواع البسيطة منها والمنتجة بحسب مستويات اللغة العامة وليست الاختصاصية منها.

الصيغة: يعبر عن هذا الزمن باستخدام «الفعل المضارع» مسبقاً بـ «س» أو «سوف» كتركيب أصلي خاص به، وله عدة صيغ أخرى تأتي في سياق الكلام وتفهم من القرائن، ولا يمكن تعدادها على أنها صيغ أصلية له.

من الألفاظ الدالة عليه: (بعد قليل - لاحقاً - الأسبوع القادم - بعد ساعة - على وشك أن... - غداً - قريباً - في وقت قريب - خلال دقائق - في المستقبل - القرن القادم).

الأمثلة:

الإيجاب: (سيذهب حسن إلى السوق بعد قليل، سوف يسافر عمي إلى البرازيل الشهر القادم).

النفي: وأداته «لن» مثل: (لن يلعب الطفل الكرة اليوم).

السؤال: مثل: (الأم: هل سوف تنظف الأطباق يا فاتح؟ لا، أنا لن أنظف الأطباق، أختي سوف تنظفها).

الاسم المقترح: (الزمن المستقبل) ولا حاجة لوصفه بالسيط لعدم التباسه بالمركب الذي سيأتي، ولعدم التباسه بالحاضر أو اسم الفاعل الذي يدل بالقرائن على المستقبل.

المطلب الثاني: الأزمنة في الجملة الاسمية

إن الجملة الاسمية هي ما ابتدئت باسم كما عرفها النحاة، أو ما كان المسند إليه فيها اسماً، والمسند صفة أو اسماً أو أي تركيب آخر يخلو من الفعل... وبهذا الاعتبار فإن جملة (محمد يقرأ كتاباً) هي فعلية باعتبار المعنى الوظيفي الذي تؤديه.

إن الأزمنة البسيطة التي نستخدمها في الجملة الفعلية هي نفسها التي تمر معنا في الجملة الاسمية، ولهذا نجد الأزمنة في هذا النوع من الجمل كسابقتها وهي: الزمن الواسع والزمن الحاضر والزمن الماضي والزمن المستقبل، ولكل من هذه الأزمنة طريقة صياغته الخاصة.

الخامس: الزمن الواسع

التعريف: هو ما يُخبر به عن اسم بصفة أو ظرف أو جار ومجرور أو اسم أو نحوها؛ للدلالة على صفة ثابتة في المبتدأ موجودة في الأزمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل دون النص على زمان معين لها، مثل: (علي شجاع) أي إن الشجاعة ثابتة له في الماضي والحاضر والمستقبل.

الاسم: واسمه في اللغة التركية (الزمن الواسع في الجملة الاسمية) ومثاله: (Bu çocuk kibar). بمعنى: (هذا الطفل مهذب). ولا ينص عليه في الكتب التعليمية المبسطة عادة، وليس له اسم خاص في اللغة العربية.

النفي: وأداته (لا) مثل: (الطالب لا يكتب وظيفته الآن).

السؤال: (الأم: ماذا تفعل؟ - الابن: أنا لا أفعل شيئاً، أنا أقرأ الجريدة).

الاسم المقترح: (الزمن الحاضر) ولا حاجة لوصفه بالمستمر أو الحقيقي، لأنه قد تم وصف سابقه (بالواسع) وهذا الاسم كاف في الدلالة على معناه.

الثالث: الزمن الماضي

التعريف: هو ما يدل على حدث بدأ وانتهى قبل وقت التكلم.

الاسم: اسمه في اللغة التركية (الزمن الماضي المعلوم) أو الشهودي (Belirli Geçmiş Zaman) واسمه في الإنجليزية (الزمن الماضي البسيط) (simple past tense) واسمه في اللغة العربية (الفعل الماضي).

الصيغة: إن الصيغة الصرفية المخصصة لهذا الزمن في العربية هي (فَعَلَ) إلا في حالة النفي بـ «لم» فإنه يعبر عنه بصيغة الفعل المضارع مسبقاً بها.

من التعبيرات التي ترافقه: (أمس - الليلة الماضية - الأسبوع الماضي - منذ سنة - طوال السنة - طوال اليوم - سابقاً - قبل قليل - آنفاً - أبداً: في النفي).

الأمثلة:

الإيجاب: (وصل صديقي من البرازيل الليلة الماضية).

النفي: وأداته (ما) مثل: (ما رأى عمر أباه أبداً).

السؤال: مثل: (المعلم: هل فهمتَ الدرس يا سامر؟ الطالب: نعم، فهمتُ الدرس، أو: لا، لم أفهم الدرس).

الاسم المقترح: (الزمن الماضي) ولا حاجة لوصفه بالسيط، لعدم التباسه بالزمن الماضي المركب مع غيره كما سيأتي لاحقاً.

الرابع: الزمن المستقبل

التعريف: هو ما يدل على حدث سيبدأ بعد وقت التكلم في وقت ما من المستقبل، لا على جهة الطلب^(٩).

الاسم: اسمه في اللغة التركية (الزمن المستقبل) (Gelecek Zaman) واسمه في الإنجليزية (الزمن المستقبل البسيط) (simple future tense) وليس له اسم خاص في اللغة العربية.

(٩) - سلسلة اسطنبول (٢/ ٥٢).

(١٠) - سلسلة كتاب بيرلتر الوحدة التاسعة (ص ٨٤/ ١ و ٨٥).

(١١) - (لا على جهة الطلب) زدت هذا القيد حتى لا يلتبس بفعل الأمر، إذ تعدّه بعض المناهج الصيغة الدالة على المستقبل مقابل الماضي والحاضر، وليس هو في الحقيقة إلا صيغة طلب.

(١٢) - سلسلة اسطنبول (٢/ ٩٣).

(١٣) - سلسلة كتاب بيرلتر الوحدة الأولى (ص ٢/ ٢).

فهذه التعبيرات أو ما يحمل معناها - مما يدل على تكرار الحدث في الأزمنة الثلاثة - إن وجدت في الجملة مع صيغة الفعل المضارع دلت على ما يسمى (بالزمن الواسع) في اللغة التركية، أو (الزمن الحاضر البسيط) في اللغة الإنجليزية.

الأمثلة:

في الإيجاب: (دائمًا أذهب إلى العمل في الساعة الثامنة صباحًا - أنت تحبَّ العسل - الشمس تطلع من الشرق).

في النفي: (أنا لا أذهب أبدًا إلى العمل متأخرًا - عائشة تقرأ الكتب دائمًا لكن سميّة لا تقرأ أبدًا).

السؤال: (متى تنام عادة؟ الجواب: غالبًا أنام في الساعة الحادية عشرة، وأحيانًا أتأخر إلى الثانية عشرة).

ونلاحظ أن ضد كلمة (دائمًا) في الإثبات كلمة (أبدًا) في النفي، وضد كلمة (غالبًا) كلمة (أحيانًا)، وهنا نتبع المشهور في اللغة العامة ولا يلتفت إلى التراكيب النادرة^(٦).

الاسم المقترح: إن التعبير التركي عن هذا الزمن هو الأقرب إلى المنطق، فأقترح له اسم (الزمن الحاضر الواسع) وأضفت له كلمة الحاضر المستخدمة في الإنجليزية لأن صيغته في لغتنا مشتركة مع الزمن الحاضر الحقيقي فاستدعى التنبيه إلى القدر المشترك مع ما يميزه.

الثاني: الزمن الحاضر

التعريف: هو ما يدل على حدث بدأ قبل فترة من الزمن ويستمر حدوثه إلى وقت التكلم.

الاسم: اسمه في اللغة التركية (الزمن الحاضر) (Şimdiki Zaman)^(٧) واسمه في الإنجليزية (الزمن الحاضر المستمر) (present progressive tense)^(٨) وليس له اسم خاص في اللغة العربية.

الصيغة: يعبر عن هذا الزمن بصيغة (الفعل المضارع) مع تضمن الجملة لفظًا أو معنى الدلالة على الحال.

من الألفاظ الدالة عليه: (الآن - في هذا الوقت -) فهذه التعبيرات أو ما يحمل معناها إن وجدت - لفظًا أو معنى - في الجملة مع الفعل المضارع دلت على الزمن الحاضر الحقيقي.

الأمثلة:

الإيجاب: (الطالب يكتب الوظيفة الآن).

ولدى استقراء الصيغ الزمانية في اللغة التركية وجدتها ستة عشر زمانًا أصيلاً، وقد يضاف عليها أربعة أخرى لتصل إلى عشرين باعتبار أن الماضي في اللغة التركية نوعان معلوم وغير معلوم، وليس كل ما يقابلها في العربية من تراكيب يمكن أن يعدّ زمانًا مستقلاً، إذ إن بعض ما يعتبر زمانًا خاصًا في التركية يندرج تحت نوع من الأنواع الاثني عشر التي سأذكرها.

وكما أن الجملة في العربية نوعان اسمية وفعلية، وكذلك هو الحال في التركية إذ تنقسم الجملة عندهم إلى فعلية واسمية، والاسمية عندهم ما تم الكلام بها وخلت من الفعل، والفعلية عندهم ما تم الكلام بها مع وجود فعل في تركيبها.

وسأعرض هنا للصيغ الزمانية في العربية مقارنة بالتركية، وقد أعرج على الإنجليزية للتوضيح أحيانًا.

المطلب الأول: الأزمنة في الجملة الفعلية

الجملة الفعلية هي ما ابتدئت بفعل كما في علم النحو، أو ما كان المسند فيها فعلاً سواء تقدم على الاسم أو تأخر عنه، كما سنسير عليه، وهو ما عليه الاعتماد في اللغة التركية، وهو أقرب في الاعتبار إلى الوظيفة مما هو عليه الحال في النحو العربي... ولدى استقراء تراكيب الجملة الفعلية البسيطة نجدها - بالنظر إلى الزمن - إما أن تدل على حدث وقع وانتهى في الماضي، أو حدث يقع في وقت التكلم، أو حدث سيقع في المستقبل، أو حدث واسع تكرر في الماضي وما زال يتكرر في الحاضر وسيستمر في المستقبل، فهذه أربعة أزمنة ولكل منها تركيبه الخاص في كل من العربية كما هو الحال في الإنجليزية والتركية، ولكل من هذه التراكيب ما يميزه عن الآخر.

الأول: الزمن الحاضر الواسع.

التعريف: هو ما يدل على حدث تكرر في الماضي واستمر كذلك في الحاضر وسيستمر في المستقبل، للدلالة على عادة أو حقيقة علمية أو خاصية الفاعل في المسائل الثابتة أو ما شابهها مما يستمر في الأزمنة الثلاثة.

الاسم: واسمه في اللغة التركية (الزمن الواسع) (Geniş Zaman)^(٩)، واسمه في الإنجليزية (الزمن الحاضر البسيط) (simple present tense)^(١٠) وليس له اسم خاص في اللغة العربية.

الصيغة: يعبر عن هذا الزمن بصيغة (الفعل المضارع) مع تضمن الجملة لفظًا أو معنى أحد التعابير الآتية: (دائمًا - غالبًا - أحيانًا) أو (أبدًا) في حالة النفي، أو (عادة أو كثيرًا) للدلالة على كثرة الأمر، أو (نادرًا) للدلالة على قلته... ومثل ذلك (كل يوم - كل أسبوع - كل عام - أيام الأحد - يوميًا - شهريًا - أسبوعيًا - سنويًا)...

(٤) - سلسلة إسطنبول (ص ٢/ ٠٧).

(٥) - سلسلة كتاب بيرلنر الوحدة الثالثة (ص ١/ ٢١).

(٦) - ورد استخدام أبدا مع الماضي في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا يَنْتَنُ وَيُنْفُثُ الْغَدَاةَ وَابْتَغَاءَ أَبَدًا حَتَّى تَأْوِيَهُ﴾ [الممتحنة: آية ٤] وليس ذلك مشهوراً، فلا يعتبر أصلاً في التقسيم الزمني.

(٧) - سلسلة إسطنبول (١/ ٠٤).

(٨) - سلسلة كتاب بيرلنر الوحدة الرابعة (ص ١/ ٨١).

الثامن: الزمن المستقبل

التعريف: هو ما يحكي حدثًا كان يتكرر في الزمن الماضي، سواء بقي إلى وقت التكلم أم لا.

الاسم: اسم هذه الصيغة في اللغة التركية (حكاية الزمن الواسع) «Geniş Zamanın Hikâyesi» مثل: (Selim gençliğinde pop müzik dinlerdi) (١٦) بمعنى (سليم كان يسمع موسيقى البوب في شبابه)، وأما في اللغة العربية فلا يوجد اسم خاص لهذه الصيغة ولا تفرد في التدريس، بل تصنف في علم النحو على أنها من باب الجملة الاسمية المنسوخة، ونظرنا إلى جهة المعنى والوظيفة نجد أنها صيغة فعلية، إذ هي صيغة حكاية حدث وقع في الزمن الماضي على سبيل التكرار.

الصيغة: { كان + اسم + (فعل مضارع) + } وأما الاسم أو الفاعل في هذه الجملة فيمكن أن يختلف مكانه ليكون قبل كان أو بعدها، ولا يؤثر في الصيغة، ومن التعبيرات التي ترافق هذا الزمن: (دائمًا - غالبًا - أحيانًا) أو (أبدًا) في حالة النفي، أو (عادة) للدلالة على كثرة الأمر... ومثل ذلك (كل يوم - يوميًا - شهريًا - أسبوعيًا - سنويًا - سابقًا - وما زلت - لكن ليس بعد).

الأمثلة:

الإيجاب: (لسنوات كان أحمد يذهب إلى عمله كل يوم في الساعة الثامنة صباحًا) ومثل: (في الماضي كان الطلاب عندما يرون المعلم يقفون احترامًا له).

السؤال والنفي: (هل كنت تدخن وأنت شاب؟ - نعم كنت أدخن. - لا، لم أكن أدخن أبدًا).

تعقيب: ليس في هذا الزمن التنقيص على استمرار تكرر الفعل في زمن التكلم، وإذا أريد النص على ذلك فآداته (ما زال) في الإثبات، و (ولكن لم يعد) في النفي أو ما شابههما، مثاله في الإثبات: (عندما كان علي شابًا كان يمارس الرياضة كل يوم ثلاث ساعات، وما زال) وفي النفي: (عندما كان علي شابًا كان يمارس الرياضة كل يوم ثلاث ساعات ولكنه لم يعد كذلك).

الاسم المقترح: «الزمن الواسع المحكي».

العاشر: الزمن الحاضر المحكي

التعريف: هو ما يحكي استمرار حدث مدة ما في الزمن الماضي، ثم انتهاءه في ذلك الزمان.

الاسم: اسم هذه الصيغة في اللغة التركية (حكاية الزمن الحاضر) «Şimdiki Zamanın Hikâyesi» (١٧) مثل: (Sınıfa girdim o zaman öğretmen ders anlatıyordu) (١٨) بمعنى (عندما دخلت

التعريف: هو الإخبار عن اسم بصفة أو ظرف أو جار ومجرور أو نحوها؛ للدلالة على صفة ستوجد في الاسم بعد زمن التكلم، مثل: (ماذا ستكون في المستقبل؟) الجواب: (سأكون طيارًا مثل أبي).

الاسم: اسمه في اللغة التركية (الزمن المستقبل في الجملة الاسمية) (İsim Cümlelerinde Gelecek Zaman) (١٩) مثل: (İki ay sonra anne olacağım) بمعنى (سأكون أمًا بعد شهرين). وليس له اسم خاص في العربية.

الصيغة: صيغته في العربية «(سا) أو «سوف» + «يكون» أو «يصبح» أو «يصير» + اسم + صفة) مثل (سيكون طارق مؤلفًا).

ويمكن أن نستخدم عوض (سيكون)؛ (سيصير) أو (سيصبح) للدلالة على نفس معناها في المستقبل وليس على ضد معناها كما هو الحال في الماضي، مثل (صالح طالب، وسيكون - أو سيصبح - معلمًا السنة القادمة)، ومن الألفاظ الدالة عليه: (بعد قليل - لاحقًا - الأسبوع القادم - بعد ساعة - على وشك أن... - غدا - قريبًا - في وقت قريب - خلال دقائق - في المستقبل - القرن القادم).

الأمثلة:

الإيجاب: (سأكون معلمًا ناجحًا إن شاء الله).

النفي: وأداته «لن» مثل: (لن أكون جبانًا ولن أصبح فاشلاً).

السؤال: (هل ستكون مشغولًا غدًا؟ - سأكون مشغولًا من الصباح وحتى الظهر، لكن لن أكون مشغولًا في المساء).

الاسم المقترح: «الزمن المستقبل» في الجملة الاسمية.

المطلب الثالث: الأزمنة المحكية

تركب صيغ الحكاية في اللغة العربية من زمنين، أحدهما المتضمن في الصيغة الأصلية للفعل المكون من حدث وزمان، والزمن الثاني المستفاد من تضمن الصيغة لفعل الكون أو ما يشبهه.

وأزمنة الحكاية هذه هي أربعة تبعًا للتنوع الأصلي للأزمنة، (الزمن الواسع والزمن الحاضر والزمن الماضي والزمن المستقبل)،

ويعبر عنها في اللغة التركية باسم صيغ الحكاية فيقال: (حكاية الزمن الحاضر وحكاية المستمر وحكاية الماضي والمستقبل)، وأما في الإنجليزية فيأتي بعضها في صيغ (الزمن التام) وأحيانًا في غيرها، وهي تختلف عن العربية والتركزية في عدد بعض الصيغ أزمنة خاصة؛ هي تراكيب متنوعة لصيغة زمنية واحدة عندنا.

التاسع: الزمن الواسع المحكي

(١٥) - سلسلة اسطنبول (٣٤ / ٢).

(١٦) - كتاب سلسلة اسطنبول (٣١ / ٥).

(١٧) - كتاب سلسلة اسطنبول (٣١ / ٣).

(١٨) - كتاب سلسلة اسطنبول (٤١ / ٣).

النفي: وأداته (ليس) مثل: (أنا لست ذاهباً إلى السوق).

السؤال: (هل أنت مشغول الآن؟ - نعم، أنا مشغول، - لا أنا لست مشغولاً في هذا الوقت).

تعقيب: كما في سابقه قد لا يُحتاج إلى تدريس هذا الزمن باسمه ويُكتفى بتعليم كلمة (الآن) لتخصيص الجملة الاسمية وحصرها بوقت التكلم، ولكن بعد أن يقطع الطالب شوطاً في تعلم تراكيب اللغة ينبغي أن يعرف مكان هذه الصيغة من الأزمنة، لأنه سيحتاج إلى تمييزها في الجمل الشرطية والمركبة.

الاسم المقترح: «الزمن الحاضر» في الجملة الاسمية.

السابع: الزمن الماضي

التعريف: هو الإخبار عن اسم بصفة أو ظرف أو جار ومجرور أو نحوها؛ للدلالة على صفة كانت موجودة في المبتدأ وانتهت قبل زمن التكلم، مثل: (أين كان أحمد؟) الجواب: (كان أحمد في المدرسة.)، إذ وجوده في المدرسة صفة ماضية، وكذلك: (كنت مريضاً وأنا الآن سليم والحمد لله).

الاسم: اسمه في اللغة التركية (الزمن الماضي المعلوم في الجملة الاسمية) (İsim Cümlelerinde Belirli Geçmiş Zaman) «^{١٤}» مثل: (Geçen hafta çok yorgundum). بمعنى: (كنت متعباً جداً الأسبوع الماضي). وليس له اسم في اللغة العربية إذ إن (كان) تدرس نحوياً في نواسخ الجملة الاسمية بغض النظر عن المعنى الوظيفي لها.

الصيغة: صيغة هذا الزمن في العربية (كان + اسم + صفة) مثل (كان طارق موظفاً)، ويمكن أن نستخدم عوض (كان)؛ (صار) أو (أصبح) للدلالة على ضد معناها في الماضي مثل: (كان صالح طالباً، أصبح مدرساً). (كنت موظفاً وصرت متقاعدًا)، ومن الألفاظ الدالة عليه: (أمس - الليلة الماضية - الأسبوع الماضي - السنة الماضية - منذ سنة - طوال السنة - طوال اليوم - سابقاً - قبل قليل - آنفاً - أبداً: في النفي).

الأمثلة:

الإيجاب: (في السنة الماضية كان عامر موظفاً، وفي بداية السنة صار متقاعداً) (كنت مسافراً طوال السنة).

النفي: ونحصل عليه باستخدام (ما كان) أو (لم يكن) مثل: (ما كان أبي مريضاً) - (لم أكن مسافراً).

السؤال: (هل كنت مشغولاً؟ لا، لم أكن مشغولاً، كنت منتظراً لك).

الاسم المقترح: «الزمن الماضي» في الجملة الاسمية.

(١٤) - سلسلة اسطنبول (٢/ ٨٢).

الصيغة: صيغة هذا الزمن عبارة عن اسم يخبر عنه باسم أو صفة أو ما شابه ذلك، مثل: (محمد أخي) وقد يظهر الفعل (يكون) المتضمن معنى في الجملة مثل: (محمد يكون أخي)، على أن تتضمن هذه الصيغة لفظاً أو معنى إحدى التعابير الآتية: (دائماً - غالباً - أحياناً) أو (أبداً) في حالة النفي، أو (عادة - عادة ما) للدلالة على كثرة الأمر، أو (نادراً - نادراً ما) للدلالة على قلته، مثل: (أبي نادراً ما يكون غاضباً)، ومثل ذلك (كل يوم - كل أسبوع - كل عام - أيام الاثنين - يومياً - شهرياً - أسبوعياً - سنوياً).

الأمثلة:

الإيجاب: (أحمد مجتهد، عادة ما يكون هذا المعلم غاضباً، هذا العامل يكون متعباً كل يوم اثنين).

النفي: (ليس أحمد مجتهداً) (خالد غالباً لا يكون هادئاً) (عادة لا يكون هذا الرجل في بيته) (أنا لست معلماً).

السؤال: (هل أبوك مهندس؟ نعم، أبي مهندس - لا، أبي ليس مهندساً).

تعقيب: هذه الصيغة الزمانية هي أبسط أشكال الجملة العربية وهي أول ما يعطى من الأزمنة وإن كان لا يُنص على اسمها لإدراكها بالفطرة، مثل: (هل هذا قلم؟ نعم هذا قلم - لا، هذا ليس قلماً)، ويفضل تدريس هذا الزمن بصيغة الإثبات والاستفهام والنفي البسيط بـ (ليس) في بدايات تعلم اللغة.

الاسم المقترح: «الزمن الواسع» في الجملة الاسمية.

السادس: الزمن الحاضر

التعريف: هو الإخبار عن اسم بصفة أو ظرف أو جار ومجرور أو نحوها؛ للدلالة على صفة في المبتدأ موجودة في زمن التكلم، مثل: (أين أحمد؟) الجواب: (أحمد نائم في غرفته)، إذ النوم صفة مؤقتة تجري في وقت التكلم، ومثل: (أين علي؟) الجواب: (علي في الصف الآن).

الاسم: لم يمر معي اسم خاص لهذه الصيغة في اللغة التركية، ولعل مرجع الأمر في ذلك الإدراك الفطري لدلالات الجملة الاسمية البسيطة، عندما تكون واسعة أو متضمنة معنى الحالية، ومثاله: (Ben şuan meşgulüm). بمعنى: (أنا مشغول الآن)، كما أنه ليس لهذا الزمان اسم في اللغة العربية.

الصيغة: صيغة هذا الزمن كصيغة الزمن الواسع، إضافة إلى تضمن الجملة ما يدل على الحال من القرائن أو الألفاظ، من الألفاظ الدالة عليه: (الآن - في هذا الوقت).

الأمثلة:

الإيجاب: (أنا مشغول الآن).

٥. كل محاولة علمية للتطوير أو البناء والتغيير تكون محتملة للخطأ، ولا ينبغي للخطأ أن يدفعنا إلى التخلي عن جهودنا، بل ينبغي أن يدفعنا إلى الاستمرار في التطوير حتى نصل إلى القمة.

ونهاية هذا جدول مختصر للصيغ الزمانية في كل من اللغتين التركية والعربية:

- الأزمنة في الجملة الفعلية:

اللغة التركية - Türkçe	اللغة العربية - Arapça
الزمن الواسع geniş zaman Amer yemek sever.	الزمن الواسع عامر يحب الطعام.
الزمن الحاضر şimdiki zaman Amer şimdi yemek yiyor.	الزمن الحاضر عامر يأكل الطعام الآن.
الزمن الماضي geçmiş zaman Amer biraz önce yemeği yedi.	الزمن الماضي تناول عامر الطعام قبل قليل.
الزمن المستقبل gelecek zaman Amer yakında yemek yiyecek.	الزمن المستقبل سيتناول عامر الطعام بعد قليل.

- الأزمنة في الجملة الاسمية:

اللغة التركية - Türkçe	اللغة العربية - Arapça
الزمن الواسع geniş zaman Bu çocuk kibar.	الزمن الواسع هذا الطفل مهذب.
الزمن الحاضر şimdiki zaman Ali şimdi yorgun.	الزمن الحاضر علي متعب الآن.
الزمن الماضي geçmiş zaman Khadija hastaydı.	الزمن الماضي كانت خديجة مريضة.
الزمن المستقبل gelecek zaman Ahmed mühendis olacak.	الزمن المستقبل سوف يكون أحمد مهندساً.

- الأزمنة المحكية:

اللغة التركية - Türkçe	اللغة العربية - Arapça
الزمن الواسع Geniş Zamanın Hikâyesi Selim gençliğinde pop müzik dinlerdi.	الزمن الواسع المحكى سلم كان يسمع موسيقى البوب في شبابه.
الزمن الحاضر Şimdiki Zamanın Hikâyesi Sınıfa girdim o zaman öğretmen ders anlatıyordu.	الزمن الحاضر المحكى عندما دخلت الصف؛ كان المعلم يشرح الدرس.
الزمن الماضي Geçmiş Zamanın Hikâyesi Amerika'ya gitmeden önce İngilizce öğrenmiştim.	الزمن الماضي المحكى كنت قد تعلمت الإنجليزية قبل أن أذهب إلى أمريكا.
الزمن المستقبل Gelecek Zamanın Hikâyesi Dün alışverişe çıkacaktım ama vakit bulup çıkamadım.	الزمن المستقبل المحكى أمن كنت سأخرج للتسوق، لكن لم أجد وقتاً ولم أخرج.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدراسات اللغوية المقارنة قيمة كبيرة في مجال تطوير العربية.

٢. حاجتنا إلى التجديد اللغوي ظاهرة في مجال تعليم اللغة للعرب والأجانب وفي واقعنا الاجتماعي والحضاري.

٣. الشعور بالحاجة إلى التجديد والتخلص من التعقيد هو ما دفع بعض العلماء إلى مهاجمة النحو والنحاة.

٤. كان من المفترض بدعاة التجديد أن يقوموا ببناء علم لغوي جديد، بدل تحميل حاجتنا المعاصرة لعلم النحو الذي بني على أسس خاصة في غاية من الدقة لا تحتمل التغيير بالزيادة أو الحذف.

٥. اللغات كلها تتطور، وتطور لغتنا يكون بتجديد طرق عرضها وليس بالزيادة أو الحذف؛ إذ إن ارتباطها بعلوم الإسلام جعلها لغة ثابتة لا تتغير.

٦. ننتقل في بناء علم اللغة التجريدي من خلال استقراء وظائف التراكيب، بعد تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، ثم اعتماد الزمن والصيغة والوظيفة أساساً في تصنيف التراكيب اللغوية.

٧. العلم الجديد الذي أدعو إليه هو مقدمة للعلوم اللغوية الأخرى أو مساعد لها؛ مهمته إكساب المتعلم اللغة الفصحى والتمهيد للعلوم الاختصاصية، ولا يمكن أن يكون بديلاً عنها.

٨. من خلال استقراء تراكيب العربية نحصل على اثني عشر زماناً، أربعة منها للجملة الفعلية وأربعة للاسمية وأربعة لصيغ الحكاية.

التوصيات:

١. العمل على إنشاء علم لغوي جديد باستخدام أساليب النحاة في تتبع التراكيب اللغوية ثم تقسيمها على المستويات، ولتكن الأزمنة وصيغ الطلب وأدوات الربط عموده الفقري.

٢. علينا أن نولي الدراسات اللغوية المقارنة والدراسات اللسانية والتطبيقية الحديثة مزيداً من الاهتمام لتساعدنا في تقديم لغتنا بشكل أيسر للمتعلم العربي والأجنبي.

٣. ينبغي أن ندرّب معلمي اللغة العربية على تعليم الطلاب العرب لغتهم الفصحى من خلال علم اللغة الحديث والقراءة المتدرجة والحوار حولها حتى يستقيم اللسان، وخلال سنوات سنلحظ عودة الفصحى إلى الحياة تدريجياً.

٤. بإمكاننا أن نطبق هذه التجربة على المدارس السوروية في الداخل والمهجر من خلال تدريب معلمي اللغة على هذا المنهج وإلحاق مادة مخصصة للأزمنة والتراكيب والصياغات العربية بشكل متدرج لتكون رافداً حقيقياً لعلم النحو.

النفي: مثل: (بالفعل لم أكن قد غادرت البيت عندما بدأت العاصفة).

الاستفهام: (هل كنت قد شاهدت هذا الفيلم من قبل؟ - نعم كنت قد شاهدته، أو: لم أكن قد شاهدته من قبل).

الاسم المقترح: «الزمن الماضي المحكي».

الثاني عشر: الزمن المستقبل المحكي

التعريف: هي الصيغة الزمانية المستخدمة لحكاية خطط مستقبلية تم اتخاذها في الماضي للقيام بفعل ما، أو لتوقع حدوثه؛ سواء وجد بعد ذلك أم لا.

الاسم: اسم هذه الصيغة في اللغة التركية (حكاية زمن المستقبل) (Gelecek Zamanın Hikâyesi) "مثل: (Dün alışverişe çıkacaktım ama vakit bulup çıkamadım). بمعنى: (أمس كنت سأخرج للتسوق، لكن لم أجد وقتاً ولم أخرج)، وليس لهذه الصيغة اسم خاص في العربية

الصيغة: (كان + اسم + صيغة الزمن المستقبل +) ويرافقها من التعبيرات ما يرافق الحاضر والماضي المحكي.

الأمثلة:

الإيجاب: (هو كان سيسافر إلى إسطنبول، لكنه غير فكرته لاحقاً).

النفي: (حقيقة ما كنت سأترك عملي، لكن المصنع أغلق).

السؤال: (هل كنت ستدرس في كلية الاقتصاد؟ الجواب: نعم، كنت سأدرس فيها، أو: لا، ما كنت سأدرس فيها).

الاسم المقترح: «الزمن المستقبل المحكي».

خاتمة:

إن لغتنا العربية تحتاج إلى خدمة حقيقية على المستويات كافة، في مجال البحث العلمي والتأليف والترجمة ونشر الكتب، وليس صحيحاً ما يشيعه البعض بأن ما وصلت إليه العلوم العربية سابقاً يمثل الكمال الذي لا مزيد عليه.

إن من يرى واقعنا اللغوي يبصر الفجوة المخيفة بين لغتنا الفصحى ومجتمعنا العربية، وإن إعادة تدريس العربية كلغة تواصل للعرب قبل غيرهم؛ كفيل بإعادة الفصحى إلى الحياة بدرجة كبيرة، وسأختم كلامي عن المسألة بتلخيص لأهم النتائج والتوصيات.

أهم النتائج:

١. البشر متشابهون في طرق التعبير عن احتياجاتهم، مما يعطي

الصف؛ كان المعلم يشرح الدرس)، وليس لها اسم خاص في العربية.

الصيغة: (كان + اسم + «فعل مضارع» +) ومن التعبيرات المرافقة لهذا الزمن: (أمس - البارحة - الأسبوع الماضي - قبل قليل - السنة الماضية - في يوم من الأيام)، ويتميز عن (حكاية الزمن الواسع) بأن الواسع لا يكون في زمن معين، بينما هذا يحكي عن حادثة واحدة وفي زمن معين.

الأمثلة:

الإيجاب: (كانت فاطمة تبكي قبل قليل).

النفي: (حينما كنت أدرُس، كان أخي لا يدرُس) (لم يكن الطفل يبكي، كان يضحك).

والسؤال: (هل رأيتني عندما كنت أتحدث في التلفاز؟ الجواب: نعم رأيتك عندما كنت تتحدث في التلفاز، النفي: للأسف ما رأيتك، حينما كنت تتحدث في التلفاز؛ كنت أذاكر دروسي).

ومن أشهر الصيغ التي يستخدم فيها ما يحوي (عندما - بينما - حينما)، مثل: (بينما كنت أتناول الطعام طُرق الباب)، حيث يضم هذا التركيب فعلين أو زمنين أحدهما طويل مستمر استغرق وقتاً من الماضي قطعه فعل آخر قصير.

الاسم المقترح: «الزمن الحاضر المحكي».

الحادي عشر: الزمن الماضي المحكي

التعريف: هو ما يدل على حكاية انتهاء فعل في الزمن الماضي.

الاسم: اسم هذه الصيغة في اللغة التركية (حكاية الزمن الماضي) (Geçmiş Zamanın Hikâyesi) "مثل: (Amerika'ya gitmeden önce İngilizce öğrenmiştim). بمعنى: (كنت قد تعلمت الإنجليزية قبل أن أذهب إلى أمريكا)، وليس لهذه الصيغة اسم خاص في العربية.

الصيغة: (كان + اسم + قد + صيغة الزمن الماضي +) ويمكن للتعبيرات التي ترافق صيغة (حكاية الزمن الحاضر) أن ترافق هذه الصيغة أيضاً، ومن أشهر الصيغ التي يستخدم فيها ما يحوي (عندما - حينما)، وغالباً ما تضم صيغة الزمن الماضي المحكي فعلين عندما يبدأ الثاني منهما كان أولهما قد انتهى، مثل: (كان أحمد قد أكل الطعام، عندما دخلت البيت)، (عندما وصلت سيارة الإسعاف؛ كان الرجل قد مات).

الأمثلة:

الإيجاب: (كان خالد قد كتب واجبه؛ قبل أن يلعب كرة القدم).

(٢١) - كتاب سلسلة اسطنبول (٨١/٥).

(٢٢) - كتاب سلسلة اسطنبول (٩١/٥).

(١٩) - كتاب سلسلة اسطنبول (٣٢/٥).

(٢٠) - كتاب سلسلة اسطنبول (٤٢/٥).

ومنعها من الاستفادة من التجارب الحديثة في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ بلادنا. وقد تمت طباعة الكتب المعدلة لأكثر من مرة من قبل وزارة التربية في الحكومة السورية المؤقتة وبعض المؤسسات الخيرية السورية والدولية.

ومع استمرار الثورة السورية أصبحت الحاجة ملحة لتعديل المناهج وتطويرها بما يتوافق مع التطور العلمي، وتصحيح مسار الهدف التربوي الذي اعتمدته النظام في المناهج، وهذا يحتاج خطأً استراتيجية تعتمد على مستويات تربوية متطورة للخروج بمخرجات جيدة لمستقبل أفضل للجيل القادم تضمن مركزية التعليم ووحدة أهدافه.

إحصائيات.. وآمال:

في منتصف عام /٢٠١٤/ شكّلت وزارة التربية في الحكومة السورية المؤقتة، وبدأ عملها بتاريخ: ٢٠١٤/٦/٤، وتسلم الوزارة الدكتور محي الدين بنانة، بدأت الوزارة بتأسيس مديريات مركزية للتربية في المحافظات، بلغ عددها /٩/ مديريات، في: حلب، إدلب، حماة، اللاذقية، دمشق، ريف دمشق، حمص، درعا، القنيطرة، يتبع لها /٣٥/ مجمّعاً تربوياً.

وبدأ العمل على ضبط سير التعليم واعتماد التخطيط المركزي ممّا ساهم في تعزيز العملية التعليمية، وساهم في بناء شراكات مع الجهات الداعمة، وتوجيه الدعم لِمَواطن الحاجة، والرقابة على جودة التعليم ومؤسساته وانضباطه بالقيم التربوية والعملية.

وتشير إحصاءات وزارة التربية إلى أنّ أعداد الطلاب الذين تُشرف عليهم في الداخل السوري المحرّر /٧٠٠/ ألف طالب وطالبة في /٢٢٨٠/ مدرسة، حيث بلغ عدد الطلاب المتقدمين لامتحانات الشهادة الثانوية دورة عام /٢٠١٧م/: /١٣٦٠٠/ طالب وطالبة ولشهادة التعليم

فاتهم، انطلق التعليم في المناطق المحررة عام /٢٠١٢/ بمبادرات فردية وبدأ تشكيل المكاتب التعليمية، وتوج العمل بإنشاء الهيئة الوطنية للتربية والتعليم، التي أشرفت على امتحانات الشهادة الإعدادية والشهادة الثانوية التي أجريت لأول مرة في مناطق سيطرة الثوار في ٢٩/ آب/ ٢٠١٣، حيث تقدّم لامتحانات /٩٤٨٤/ طالباً وطالبة، في /١١٣/ مركزاً امتحانياً، /٢٩/ منها في حلب وإدلب، و /١١/ في ريف دمشق، و /٩/ في الرقة، و /٧/ في دير الزور، و /١٣/ مركزاً في دول الجوار.

وبذلك أثبت الشعب السوري أنّه قادرٌ على إدارة المؤسسات التعليمية وإنجاحها متحدياً كلّ ما يصادفه من معوقات.

المناهج المعتمدة:

اعتمد القائمون على التعليم المنهاج السوري السابق المطبّق قبل الثورة، ولكن بعد تصحيح المسار التعليمي فيه قدر الإمكان وضمن الجهود المتواضعة والوقت المتاح، وذلك من خلال حذف كلّ ما له علاقة بالنظام السوري وحزب البعث، كذلك طالت التعديلات كلّ ما له علاقة ببناء شخصية التلميذ السوري الذي تشرب سابقاً عقلية الحزب الواحد والمتحكّم الظالم الواحد، إضافة إلى المعلومات التي تتعلّق بالعلاقات مع دول الجوار.

أشرفت الهيئة الوطنية على هذه التعديلات إلى أن تمّ اعتمادها من قبل وزارة التربية في الحكومة السورية المؤقتة، حيث أوكلت مهمّة تنقيح المناهج وتعديلها وتهذيبها إلى مجموعة من الخبراء والاختصاصيين والموجهين الذين جعلوا من المضمون العلمي للمناهج مبدأً ثابتاً حافظوا عليه حرصاً منهم على معايير المناهج واعتماديتها، ولكن بقيت هذه المناهج تعاني القصور العام الذي تراكم فيها لعشرات السنوات في فترة تسلط نظام العصابة؛ نتيجة لتدمير كوادرنات التعليمية

لم تُثن من عزيمة الأحرار، فقد بدأ المختصّون في مجال التربية من الثوار بتعليم الأطفال في البيوت والأقضية والمساجد وسرعان ما طوّروا عملهم، حيث أسسوا المكاتب التعليمية المرتبطة بالمجالس المحلية، وبدؤوا بإعادة تأهيل المدارس وافتتاحها.

كانت الصعوبات جمة، وكان من أكثرها تعقيداً نقص الكوادر التعليمية، ونقص الكتب المدرسية، وتخوف الأهالي من إرسال أبنائهم إلى المدارس خوف القصف.

أخذ المعلّمون المتطوّعون على عاتقهم العمل على تجاوز العقبات للانطلاق بعملية التعليم المدرسي؛ لأنّهم كانوا على يقين أنّ هذه المرحلة من أهم المراحل التي يُعتمد عليها في بناء البلد والتطوّر والنمو المستقبلي للجوانب المجتمعية جميعها، فبدؤوا بإعداد المعلمين المتطوّعين بتنظيم دورات تأهيل تُسهم في رفع سوية المعلم، وقاموا بتصوير الكتب المدرسية من خلال التواصل مع الجهات الداعمة، وتطوّر الأمر لطباعة الكتب، ونظّموا حملات لتشجيع الأهالي لإرسال أبنائهم إلى المدارس لمتابعة تحصيلهم العلمي؛ كي يتخرّجوا جيلاً منتجاً فاعلاً قادراً على التفكير السليم متطلّعاً نحو البناء والإبداع، يسعى لاستخدام قدراته ومواهبه كافّة من أجل إعمار وطنه.

وعلى الرغم من تعرّض قطاع التعليم -خاصّة المدارس- إلى الاستهداف المباشر من قبل طيران النظام وحلفائه، حيث دُمّر ما يقارب /٢٣٠٠/ مدرسة بالقصف إمّا تدميرًا كليًا أو جزئيًا -كما سبق- فإن العمل التعليمي لم يتوقّف بل تطوّر تطوّرًا ملحوظًا.

وبما أنّ الثورة السورية ثورة فكر ووعي، وبما أنّ الشعب لا يموت، فقد بدأ الغيرون على أبنائهم بإنتاج الحلول، وإن كانت غير جذرية، ولكنها محاولات لاستئناف العملية التعليمية، وتعويض الطلاب ما



التعليم في المناطق المحررة آلم وآمال ..

عبد الكريم محمد بهلول

ماجستير لغة عربية

مدير المعاهد المتوسطة لإعداد
المدرسين سابقاً

وما إن بدأت رقعة المناطق المحررة تزداد من درعا جنوباً إلى حلب وإدلب شمالاً، ومن ريف اللاذقية غرباً حتى الجزيرة والبادية شرقاً مروراً بحمص وغيرها؛ حتى أصبحت مدارس هذه المناطق هدفاً لجميع أنواع القصف بالطيران والبراميل المتفجرة وبأنواع الأسلحة كافة، وعمل على حرمان المناطق الثائرة من المخصصات التعليمية والاحتياجات اللازمة، وبدأ باعتقال المئات من الكوادر التعليمية من أبناء المناطق الثائرة، إضافة إلى قتل وتشريد فئة كبيرة منهم.

هذه الوحشية أدت إلى خسارة الكثير من الطلاب والمعلمين حياتهم، وبدأ الانقطاع عن التعليم يزداد يوماً بعد يوم، فضاعت الأعوام الدراسية الكاملة على عدد كبير من الطلاب، وحرمت فئة منهم من التعليم نهائياً بسبب القصف المستمر والظروف الحياتية الصعبة.

وهكذا قام النظام المجرم بتدمير أكثر من ٢٣٠٠ / مدرسة، وحرّم ملايين الطلاب من مدارسهم وتحصيلهم العلمي.

إن إدراك الأحرار لأهمية العلم في حياة الشعب السوري وخطر الجهل على الجيل جعلهم ينطلقون في تنظيم التعليم من خلال مبادرات فردية لتلبية الواجب في تعليم أبنائنا، متحذرين المخاطر العظيمة والهمجية التي أتبعها نظام الأسد في محاربة العلم والتعليم باستهدافه المنظم للمدارس والطلاب والكوادر التعليمية، فمن قصف إلى تشريد إلى اعتقال...

إن كل الولايات التي صيبتها قصف النظام على المناطق المحررة

العلم والتعليم أولى التوجيهات السماوية التي أمر بها المصطفى صلى الله عليه وسلم؛ ليجعلها مصابيح من نور في طريق البشرية ليهتدوا إلى طريق السعادة والنور.

فالعلم هو الغذاء الشافي للروح والعقل، يفتح القلب فيزيده نوراً وبصيرةً، ويهذب النفس، ويعدل السلوك، ويخرج الفرد السوي الصالح القادر على إدارة ذاته وحياته ومجتمعه... ويُعدّ التعليم من الأمور الأساسية لأيّ مجتمع، فهو الذي يُكسب الإنسان المعرفة الحقيقية التي تعينه على تطوير ذاته ومجتمعه؛ فيسعى نحو الإصلاح والبعد عن الفساد فيعيش حراً سعيداً.

التعليم في مناطق سيطرة الثوار: بدايات وآلم.

تأثر التعليم في سوريا كثيراً بسبب الظروف الجائرة للحرب التي مضى على بدئها أكثر من سبع سنوات، وكذلك بسبب النزوح وتراجع الأوضاع الاقتصادية والمعيشية، فمنذ أن خطّت أنامل أطفال درعا على جدار إحدى مدارسها «يسقط النظام» تحولت المنشآت التعليمية والمدارس وطلابها إلى هدف مشروع لنظام لا يملك الشرعية، وإنما كل ما كان يملكه هو همجية حولها بكل جرائمه إلى دمار أصاب كل ما يحيط به، لقد حول مراكز العلم إلى معتقلات وسجون للثوار، وجعل من أسطحها أبراجاً للقناصين لإزهاق الأرواح بدل إحيائها، فأصبحت متاريس عسكرية لحماية قصوره.

التركية من خلال مديرية التعليم مدى الحياة بدعم العملية التعليمية، وكانت البداية بترميم معظم المدارس المدمرة بسبب العمليات العسكرية لطرده تنظيم داعش، إضافةً إلى إنشاء غرفٍ صفيةٍ مسبقة الصنع كحلٍ إسعافيٍّ في بعض القرى والبلدات التي تدمرت مدارسها بشكلٍ كاملٍ وخرجت عن الخدمة.

وأخذت الوزارة على عاتقها تأمين المستلزمات الدراسية الضرورية لإنجاح التعليم في المنطقة من مقاعد وأثاث وقرطاسية ووسائل تعليمية ومعدات تقنية وإلكترونية، وتم توزيع مليون و ٥٠٠ / ألف كتاب مدرسي طُبعت بالتنسيق مع منظمة راف القطرية.

هذه التطورات خلقت حالةً من الثبات والاستقرار للعملية التعليمية، وبدأ الأمل ينبت في قلوب طلابنا بعد الشلل التام الذي أصاب كل شيءٍ في المنطقة بسبب تنظيم داعش، حيث أدى إلى بأس عميق كاد يُطيح بحاضرهم ومستقبلهم بسبب حرمانهم من التعليم.

ومن أجل توفير الكوادر التعليمية للمدارس التي بدأت بافتتاح أبوابها أقامت وزارة التربية التركية دورات تأهيل لتطوير المعلمين خلال صيف عام ٢٠١٧ / واختتمت الدورات بامتحانات تم من خلالها تثبيت الناجحين في المدارس مع بدء العام الدراسي ٢٠١٧-٢٠١٨، وكانت الأولوية لحملة الشهادات الجامعية التخصصية في المجال التربوي، وبحسب إحصاءاتٍ صادرة عن مديرية التعليم مدى الحياة في وزارة التربية التركية فقد خضع ٥٦٨٦ / معلمًا للدورة التدريبية فتم تعيين قرابة ٥٠٠٠ / معلم في حوالي ٥٠٠ / مدرسة استوعبت ١٥٠ / ألف طالب في جميع مدن وبلدات منطقة الفرات.

بهذه الجهود بدأت الرياض تزهر، ولكن ما زالت المنطقة لم تتحرر من الجهل والأمية بسبب انقطاع عدد كبيرٍ من الطلاب عن تعليمهم إذ لا تتجاوز نسبة الطلاب الذين

حصلوا على حق التعليم ٥٠٪ من الذين هم في سن التعليم، وتُحدد نسبة التسرب في المرحلة الابتدائية بـ ٢٥٪، لكنها ترتفع في المرحلة الإعدادية إلى ٦٠٪ وفي المرحلة الثانوية إلى ٨٠٪.

” من الأهمية بمكان

اختيار المنسقين من التربويين العاملين في المجال التربوي في الداخل السوري لما يملكونه من معرفة وخبرة بطبيعة العمل والتعليم في المناطق المحررة.

ومن أهم الأسباب في ذلك عدم وجود خطة تدريسية خاصة بالطلاب المنقطعين تتضمن البرامج والمناهج التدريسية الملائمة، مع عدم إمكانية تدريسهم المناهج العامة بسبب سنوات الانقطاع عن التعليم، والتي تبلغ عند بعض الطلاب خمس سنوات، إضافةً إلى عدم جاهزية البنية التحتية للعملية التعليمية نظراً لعدم وجود مدارس صالحة ومؤهلة تتضمن بيئة تعليمية مناسبة، وخاصةً في مخيمات النازحين حيث تفتقر المدارس إلى وجود أثاثٍ مدرسيٍّ، وتضعف فيها التجهيزات والمرافق الخدمية، إذ غالباً ما تكون المدارس عبارةً عن خيم لا تسهم في تطوير عملية التعليم، وهذا ناتج عن تركيز اهتمام المسؤولين في إدارة التعليم على مراكز المدن وإهمال القرى البعيدة والمخيمات، وكذلك عدم توافر الكتاب المدرسي، وصعوبة النقل، كما أن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للأهالي من أهم العوائق التي تواجه الطالب.

وتعدّ الخطة الإدارية التي تتبعها التربية

التركية غير متناسبة مع واقع التعليم وطبيعة المنطقة والأنظمة المعتمدة في سوريا من حيث نظام الشهادات الثانوية والإعدادية، إضافةً إلى تكليف إدارة التعليم المكاتب التعليمية في المجالس المحلية، وهي جهات إشرافية وليست اختصاصية في مجال إدارة العملية التربوية، وقد تمّ تكليف تربويين ومعلمين كمنسقين لمديريات التربية في الداخل السوري كانوا موجودين في تركيا منذ بداية الثورة، وليس لهم أدنى اطلاع على الوضع التعليمي في الداخل المحرر.

كل ذلك أدى إلى اختلاف الخطط الدراسية والأنظمة الداخلية وخاصة فيما يتعلق بإلغاء شهادة التعليم الأساسي، أو فيما يتعلق بضوابط الشهادة الثانوية وإلغاء الثانوية الحرة.. وكون هذه التعليمات تقتصر على المشافهة فإنها تقود إلى الارتباك والتضارب في التعميمات والتعليمات الارتجالية من مدينة إلى أخرى.

هذه الإشكاليات تتطلب ضرورة الانتباه إلى أهمية الإبقاء على الهيكلة التربوية القائمة على المجموعات التربوية المرتبطة بمديرية التربية كجهة اختصاص تشرف على إدارة المدارس، وتكون المكاتب التعليمية في المجالس المحلية عندئذ جهات رقابية تسهم في دفع عجلة التعليم إلى الأمام.

ومن الأهمية بمكان اختيار المنسقين من التربويين العاملين في المجال التربوي في الداخل السوري لما يملكونه من معرفة وخبرة بطبيعة العمل والتعليم في المناطق المحررة.

العمل على إحداث مدارس أو شعب ضمن المدارس خاصة بالطلاب المنقطعين والمتسربين عن الدراسة وتأمين المناهج الضرورية لذلك للوصول بهم إلى المرحلة الدراسية المناسبة لمراحلهم العمرية.

استمرار العمل على تأمين البيئة التعليمية المناسبة للطلاب بتوفير المدارس والساحات والملاعب للعب الأطفال.

الاهتمام بمجال الرعاية الصحية والنفسية

وبحسب إحصائيات الوزارة فإن عدد الذين حصلوا على شهادة التعليم الثانوي في الدورات الامتحانية السابقة / ٤٥٠٠ / طالب، و / ٩٦٠٠٠ / طالب حصلوا على شهادة التعليم الأساسي... وعلى الرغم من كل الجهود التي تبذل إلا أن حوالي ٥٥٪ من طلاب وطالبات المناطق المحررة من مختلف المراحل الدراسية لا يزالون منقطعين عن تعليمهم، ولذلك فإن هناك حاجة ملحة لتضافر الجهود الدولية، ولا سيما العربية والإسلامية منها لمنع المزيد من التدهور في قطاع التعليم، والعمل على تعافيه والنهوض به؛ باعتماد الدعم المستدام.

وبخصوص الاعتراف الدولي بالشهادات الممنوحة للطلاب السوريّ تعمل وزارة التربية على توفير الغطاء الشرعي للاعتراف بالشهادات الصادرة عنها وإعطائها مصداقية دولية من خلال إخضاع العمليات الامتحانية للمعايير الدولية، وذلك لضمان مستقبل الطالب الذي حصل على الشهادة الثانوية، فبحسب وزارة التربية أمام الطالب فرص عديدة لإكمال دراسته الجامعية، منها في الداخل السوريّ المحرّر حيث يمكنه التسجيل في كليات جامعة حلب في المناطق المحررة وجامعة إدلب وجامعة الشام العالمية، ويمكن للطلاب أن يكمل دراسته في معاهد إعداد المدرّسين، أمّا فيما يتعلق بإكمال دراسته خارج سوريا فتؤكد وزارة التربية أنّ الجامعات في تركيا جميعها تعترف بالشهادة الصادرة عنها؛ فيمكن للطلاب أن يسجل في تركيا، كما يمكن أن يكمل دراسته في عدد من دول الاتحاد الأوروبي كفرنسا وألمانيا وغيرها.

تحديات.. وحلول:

معوّقات التعليم وتحدياته في مناطق سيطرة الثوار كبيرة وخطيرة، من أهمّها الظروف الأمنية الصعبة بسبب تعرض المدارس للقصف من قبل النظام وحلفائه ممّا

التعليم في المناطق المحررة

من خلال تأمين المنح المالية المستمرة والمناسبة له لتساعده في استقراره ليتفرغ للعمل التربوي. كذلك يجب العمل على تأهيل المعلمين المتطوّعين، وتطوير مراكز التعليم وتجهيزها بالوسائل التعليمية والأجهزة التقنية، وتفريغ الإدارة التعليمية والتربوية لمتابعة العملية التربوية وفق الخطط السليمة التي تعتمد الجودة في التعليم، وهذا يوجب على الجهات العربية والدولية أن تكون على قدر المسؤولية الأخلاقية والإنسانية - وخاصة هيئات التعليم الكبرى في العالم كاليونيسيف واليونسكو- لتأخذ على عاتقها دعم التعليم في سوريا بشكل عام، واعتماد الدراسة في المناطق المحررة؛ للحفاظ على الجيل من خلال إعداد الوثائق والتشريعات وتوقيع اتفاقات وتفاهات تحافظ على حقوق الطالب السوري.

تجربة التعليم في منطقة درع الفرات:

انطلقت عملية درع الفرات في الشمال السوري في شهر آب / ٢٠١٦؛ من أجل تحرير المنطقة من تنظيم داعش وعناصر بي كي كي الإرهابيين، تمكّن الجيش الحر بدعم من تركيا من طرد التنظيمين من مدني عدة أهمّها جرابلس والباب.

وما إن تمّ تأمين المنطقة أمنياً وعسكرياً حتى تحوّل الاهتمام إلى إعادة تأهيل المؤسسات الاجتماعية، وكان النصب الأكبر للتعليم؛ نظراً للضرورة القصوى لأبناء المنطقة، وذلك بسبب الانقطاع عن التعليم لفترات طويلة أثناء سيطرة داعش على المنطقة.

ويعدّ الواقع التعليمي في منطقة درع الفرات الأفضل حالاً مقارنة مع المناطق المحررة الأخرى، فمن الناحية الأمنية قد توقّف القصف على المنطقة وعاد الأهالي إلى بيوتهم وظهرت حالة من الاستقرار، ومن الناحية التنظيمية فقد قامت وزارة التربية

بتسبب دائماً بوقوع ضحايا بين الطلاب والمدرّسين؛ فيؤدّي إلى عدم توافر أماكن آمنة للتعليم، وخوف الأهالي على أبنائهم الذي يمنعهم من إرسال أبنائهم إلى المدارس، حيث يضطرّ القائمون على التعليم لاستخدام الأقبية والملاجئ التي لا تتوافر فيها ظروف تعليمية مناسبة.

ومن التحديات عدم وجود التمويل الكافي للعملية التعليمية، فما تقدّمه المنظمات الداعمة يلبي أقل من ٥٠٪ من احتياجات العملية التعليمية، بحيث نجد رواتب المدرّسين لا تتجاوز / ١٠٠ / دولار إن وجدت؛ الأمر الذي يجعل المعلم مضطراً لأن يعمل أعمالاً إضافية لإعالة أسرته، مما يؤثر سلباً على استقرار العملية التربوية وعلى مستوى جودة التعليم.

ومن المعوقات ما يتعلق بتأمين مراكز التعليم ومستلزماتها وتجهيزها وتأهيلها، إذ بسبب دمار أكثر المدارس ونزوح أعداد كبيرة إلى المخيمات نجد أنّ معظم المراكز لا تتوافر فيها ظروف البيئة التعليمية المناسبة، فهي عبارة عن ملاجئ أو كهوف أو خيم غير مهيّئة للعملية التعليمية.

وكذلك نجد أنّ أعداد الطلاب المتسرّبين تبلغ نسبة خطيرة تفوق ٥٠٪، إضافة إلى وجود نسبة مرتفعة من الطلاب المنقطعين عن التعليم بشكل تامّ وخاصة في المناطق التي كان يُسيطر عليها تنظيم داعش الإرهابي، فقد انتهج التنظيم سياسة متممة لسياسة النظام في حربه على التعليم حيث منع التعليم نهائياً، ويتراوح عدد سنوات انقطاع الطلاب في مناطق سيطرته ما بين سنتين إلى خمس سنوات.. وهذا يتطلب إعداد مناهج خاصة للمنقطعين، وتدريب معلّمين متخصصين بهذه المناهج لتعويض نقص السنوات الدراسية لدى الطلاب ليعودوا إلى تعليمهم النظامي.

وإذا أردنا النهوض بواقع العملية التعليمية والعمل على استدامة التعليم لا بدّ من العمل على سدّ النقص في الكادر التعليمي المتخصص، والحفاظ على المعلّم وذلك

وبلغ عدد الطلاب الملتحقين والمتابعين لدراساتهم /٥٠٠٠/ طالب وطالبة.

ورغم الاعتماد على الأكاديميين المتخصصين من حملة الدكتوراه والماجستير في تدريس المقررات الجامعية كانت المشكلة الكبرى والهاجس المؤرق لدى الطلاب هو الاعتراف بالشهادة التي سيحصلون عليها.

تجربة جامعة الشام العالمية:

أنشئت جامعة الشام العالمية في ريف حلب الشمالي برعاية من منظمة / IHH / التركية في عام ٢٠١٦م وقد تميّزت الجامعة بالفروع الهندسية واستقبال الطلاب الذكور فقط وبلغ عدد المسجلين فيها /٦٠٠/ طالب حيث اعتمدت نظام المنح وتقديم المساعدة للطلاب المسجلين لاستكمال تحصيلهم العلمي، وتقديم الجامعة السكن

والمخابر التخصصية وغيرها.

ولم يقتصر الأمر على استقبال الطلاب المستجدين وإنما وضعت خطة لإكمال طلاب الجامعة المنقطعين عن جامعاتهم من خلال منحهم الأول: إكمال الطلاب في الكليات المفتوحة والثاني: إكمال لطلاب السنوات الأخيرة من خلال دورات امتحانية استثنائية.

تجربة جامعة إدلب:

بعد تحرير إدلب في آذار ٢٠١٥ بدأ العمل على استثمار الكليات والمعاهد الموجودة في المحافظة لإطلاق عملية التعليم العالي وفي شهر آب من العام نفسه أطلق العمل في /٢٥/ كلية ومعهد منها كليات قديمة تم إعادة تفعيلها ومنها كليات جديدة تم استحداثها وأهمها: الصيدلة والهندسة المدنية والميكانيكية وكلية الشريعة،

وقد كان لمعاهد التعليم الشرعي دور أساسي في رفد المدارس بمدرسي العلوم الإسلامية وسد نسبة كبيرة من حاجة المساجد إلى الأئمة والخطباء والمدرسين، ومن أشهر هذه المراكز الشرعية، معهد مكة الذي تشرف عليه رابطة العلماء السوريين، ومعهد الإمام النووي للعلوم الإسلامية ومجمع سلطان العلماء وغيرها.

التحق القسم الأكبر من خريجي المعاهد الاختصاصية بالمدارس بعد خضوعهم لمسابقات مديريات التربية، فيما التحق القسم الآخر بجامعة حلب في المناطق المحررة، حيث صدر قرار بقبول الطلاب الخريجين في السنة الثالثة في الكليات المماثلة لاختصاصهم.

تجربة جامعة حلب:

وبما يملك شعب بلدنا من وعي بأهمية التعليم عامة والتعليم الجامعي خاصة استكمل دورة الحضاري في افتتاح الجامعات في المناطق المحررة، حيث قامت وزارة التربية والتعليم في الحكومة السورية المؤقتة بتشكيل لجنة عليا لإدارة وتشغيل جامعة حلب في المناطق المحررة، وانطلق العام الدراسي الأول بتاريخ: ٢٠١٥/١٢/١٢م وبلغ عدد المسجلين قرابة /٢٠٠٠/ طالب وطالبة وزعوا على تسع كليات وستة معاهد أهمها كلية الطب البشري والصيدلة وكليات الهندسة والآداب والتربية، وكان العمل وفق نظام الوحدات الأوربي الحديث؛ حيث قامت الجامعة بفتح شعب وأقسام للكليات في المحافظات الأخرى، وتم الاعتماد على تدريس مناهج جامعة حلب لضمان الاعتراف؛ وذلك من خلال التواصل مع الدول التي أبرمت اتفاقيات مع جامعة حلب قبل الثورة لإعطاء صفة الاعترافية كجامعة مُنشأة في المناطق المحررة.

وكذلك تواصل الجامعة الحرص على توافر المعايير العالمية للجامعات من خلال تجهيزها بالوسائل التعليمية



جامعة إدلب بعد الترميم

اعتمدت المعاهد في بداية انطلاقها على دعم المجالس المحليّة ووجهاء المجتمع، وبعد ذلك تمّ الاتفاق بين وزارة التربية وبعض المؤسسات الإنسانية من أجل دعم المعاهد وتقديم منح مالية مساعدة للكوادر الإدارية والتعليمية.

أشرفت الوزارة على المعاهد وبدأ العمل على إعداد النظام الداخلي والمناهج الدراسية؛ وأقيمت من أجل ذلك العديد من ورشات العمل، وشكّلت اللجان المختصة التي بدأت العمل على إعداد المناهج وتوحيدها في فروع المعاهد المنتشرة في المناطق المحررة، والبالغ عددها ٢١ / فرعاً في المحافظات (حلب ٨ /، إدلب ٤ /، ريف دمشق ١ /، حمص ٣ /، ريف اللاذقية ١ /، درعا والقنيطرة ٢ /) وفي لبنان فرعان أيضاً.

اعتمدت المعاهد على نخبة من أهل الخبرة في مجال التدريس من حملة الدكتوراه والماجستير والإجازات الاختصاصيّة، حيث بلغ عدد الكادر التدريسيّ في فروع المعاهد ٤٠٠ / محاضراً ومدرّساً، إضافة إلى ما يقارب ٢٠٠ / إداري من ذوي الخبرة الطويلة والكفاءة العالية في المجال الإداري والتوجيهي.

وتعتدّ المعاهد بجوّة التعليم الذي اكتسبته طلبتها وخريجوها من خلال التزامها بضمان توفير بيئة دراسيّة تُشجّع التعليم وتُعزّز روح القيادة والمسؤوليّة الاجتماعيّة؛ لبناء القدرات وتطوير مهارات التعليم كونها سبيلاً مهمّاً لتحقيق أهداف المعاهد وغايتها التي أنشئت من أجلها.

وقد وصل عدد الطلاب الذين التحقوا بالمعاهد المتوسطة لإعداد المدرسين المنتشرة في المحافظات المحررة ومدنها / ٦٠٠٠ / طالب وطالبة وتمّ تخريج الدفعة الأولى في العام الدراسي: ٢٠١٥ / ٢٠١٦. وبلغ عدد الخريجين / ١٠٦٢ / معلّماً في كافة الاختصاصات وهي: (اللغة العربية - اللغة الإنكليزية - الرياضيات - معلم الصف - العلوم العامة - اللغة الفرنسية)،

لإعداد المدرسين في بداية عام ٢٠١٤م، وأضحت الملجأ والملاذ للطلاب الذين حصلوا على الشهادة الثانوية في المناطق المحررة لأول مرة عام ٢٠١٣م، وتعدّ مرحلة التعليم المتوسط بالغة الحساسية والأهميّة، فهي حجر الأساس في عمليّة اكتساب المهارات الضروريّة والمعرفة اللازمة للارتقاء بالمجتمع بشكل عامّ والتعليم بشكل خاصّ، فهذه المرحلة تمتاز بأنّها قادرة على رفع التميّز الشخصي والمهنيّ لتنمية المجتمع، وكذلك مدّة الدراسة فيها ستان ممّا يساهم في رفد المجتمع بالكوادر المؤهلة خلال فترة وجيزة.

بدأ المختصّون بوضع استراتيجية تهدف لتركيز الموارد والجهود للعمل على تحقيق قفزة نوعيّة في معايير التعليم للمعاهد المتوسطة، وكان التركيز على الأهداف الآتية:

١. تأهيل كادر تدريسيّ تعليميّ قادر على تنشئة جيل واع، وسدّ ثغرة غياب المعلم بسبب ظروف الحرب.
٢. استيعاب الطلاب والطالبات الحاصلين على الشهادة الثانويّة العامّة والشرعيّة في المناطق المحررة.
٣. الحفاظ على الكفاءات العلميّة والتدريسيّة من الهجرة وتأمين فرص عمل لهم.

” يعتبر الاعتراف بالشهادة الجامعيّة من أهمّ التحديات التي تواجه الطلبة فهذه الجامعات حديثة النشء ممّا يزرع المخاوف في نفوسهم من عدم وجود اعتراف دوليّ بها

لمتابعة حالات الطلاب ومساعدتهم للتخلص من الأزمات التي يعانون منها. ضرورة تزويد المدارس بالوسائل التعليميّة الحديثة والمتطورة التي تساهم في رفع جودة التعليم.

التوجّه إلى التعليم المهنيّ والفنيّ لماله من أهميّة في إعادة الإعمار.

رفع الدخل للمعلّمين ضمن سلّم رواتب يعتمد الشهادات والخبرة في تحديد الأجور ممّا يساهم في الاستقرار المجتمعيّ للحفاظ على المعلّمين المختصّين، وتفرغهم للعمليّة التربويّة.

تأمين اعتراف دوليّ رسميّ للشهادات التي يحصل عليها الطلاب، والمساعدة في استكمال تحصيلهم العلميّ في الجامعات المعتمدة.

التعليم العالي والمتوسط في المناطق المحررة:

إذا كان التعليم الأساسيّ متقدّماً للطلاب والمجتمع من حالة الأميّة والجهل، فإنّ دور التعليم العالي والمتوسط لا يقلّ أهميّة عن غيره؛ حيث تظهر نتائجه من خلال دفع عجلة التطوّر في المجتمع بواسطة الكفاءات من الخريجين الذين ينهضون بسوق العمل، ويعملون على نهضة المجتمع من خلال الدّور الحقيقيّ لهم في البحث العلميّ.

ولذلك كان لزاماً على طلبة الجامعات السوريّة وكوادرها ألا يتخلّفوا عن المشاركة في الحراك الثوريّ إذ كانت لديهم أسبابهم الإضافيّة الخاصّة؛ ألا وهي الثورة على الفساد الراسخ في التعليم الجامعيّ والمناهج النظريّة البالية ودور الرشوة والوساطة في تحديد النجاح وتزوير النتائج والتلاعب في المعدلات، أضف إلى ذلك الفساد الإداري.

انطلق الناشطون في المجال التعليميّ لإيجاد الحلول فكانت انطلاقاً المعاهد المتوسطة

الكتاتيب القرآنية

نشأتها ودورها في المجتمع المسلم

آسية بنسلمون - ماجستير تربية ودراسات إسلامية



فما سرُّ نشأة هذه الكتاتيب؟ كيف بدأت؟ وكيف كانت برامجها التعليمية؟ وما هو واقعها اليوم، وما واجبنا تجاهها لتعزيز وجودها واتخاذها سبيلاً للحفاظ على لغتنا وديننا وأطفالنا؟

أهمية القرآن في حياتنا:

في خضمّ ما تعيشه أمتنا من تقلّبات وتغيّرات، وانتشار الفتن في المجتمعات انتشار النار في الهشيم، فإنّ الإنسان المسلم يقف حائراً وتائهاً متسائلاً: أين السبيل؟ وأين النجاة؟ لا يدري أيّ وجهة يسلكها، وأيّ طريقة ينهجها، ثمّ سرعان ما يتجلّى له ذلك النور الذي لا ينطفئ، ويبصر وجهته التي لا يضلّ فيها، ألا وهي وجهة القرآن الكريم، فيسارع إلى رحابه ليتقيّاً من ظلاله ويقتبس من أنواره، متدبراً قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: الآية ١٦] مدركاً أن لا شيء أعظم من كتاب الله تعالى، فيجتهد في تدارسه والتهيؤ لخدمته، عاملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)، وإنّ تعلم القرآن الكريم وتعليمه لا يتحقّق أولاً إلا بالتمكّن من قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [سورة العلق: آية ١]، فالقراءة والكتابة مفتاح تعلم كتاب الله تعالى، وذلك هو العلم الذي يُنتفع به، ويرتقي المرء به من مرتبة الأخذ والتعلّم إلى منزلة العطاء والتعليم والإنفاق ممّا علّمه الله.

كانت كتاتيب القرآن الكريم في العصور الإسلامية بمنزلة المدارس الابتدائية في عصرنا الحاضر، وكان لها أكبر الأثر في الحفاظ على اللغة العربية وانتشارها بين جميع الأعراق المسلمة؛ إذ كان التلاميذ يتعلّمون فيها القراءة والكتابة العربية والقراءة الصحيحة للقرآن الكريم، كما كان الأطفال المسلمون يتلقّون في هذه الكتاتيب تعاليم الدين الأساسية، فيتعرّفون على أركان الإسلام ومعنى الإيمان، ويتعلّمون كيفية الوضوء والصلاة، إضافة إلى ذلك كان الأطفال يستمعون فيها لجملة من مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته أصحابه الكرام.

وفي العصر الحديث وبعد سقوط الخلافة العثمانية وقيام الجمهوريات، حلّت المدرسة العامّة محلّ الكتاتيب، ولكنها أخذت جانباً علمانياً بحثاً على الأغلب، ووصل الأمر ببعض البرامج التعليمية في الدول العربية والإسلامية إلى إهمال العربية مقابل الاهتمام المبالغ به باللغات الأجنبية، ممّا هدد العربية بالضيق.

مع الانتشار الواسع للمدارس بقيت جملة من المجتمعات الإسلامية تحافظ على كتاتيب القرآن الكريم وتحرص على إرسال أبنائها إليها بعد العودة من المدارس الرسمية أو في الصيف في العطلة المدرسية الطويلة، وقد كان للكتاتيب دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية وتعليم القرآن ومبادئ الدين والسيرة النبوية في ظلّ الإهمال الحكومي المتعمّد للعلوم العربية والإسلامية في برامجها التعليمية، والتضييق المستمرّ على مراكز التعليم الشرعي في عديد من الدول الإسلامية، ومنها سوريا في فترة تسلط عائلة الأسد عليها.

(١) رواه البخاري بسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، باب (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رقم (٧٢٠٥).

المجاني والطعام للطلاب بالإضافة للكتب الدراسية كما يتم منح الطلاب الملتزمين بالدوام منحة شهرية تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ليرة تركية.

وتضم الجامعة خمس كليات: (الإدارة- الاقتصاد - العلوم السياسية - الشريعة والقانون - كلية الهندسة والتي تتألف من أربعة أقسام: الهندسة المدنية - الهندسة المعلوماتية - الهندسة الكيميائية - الهندسة الفيزيائية).

تجربة الجامعات الخاصة:

يلاحظ المتابع لشؤون التعليم العالي في المحافظات المحررة انتشار عدد لا بأس به من الجامعات الخاصة وخاصة في ريف إدلب ومنطقة درع الفرات حيث تستقبل الطلاب بأقساط سنوية مرتفعة جداً بالنظر إلى الأوضاع المادية ودخل أبناء هذه المناطق، وتتراوح الأقساط بين / ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ / دولار سنوياً وهذا ما جعل إقبال الطلاب عليها محدوداً حيث لاقت إقبالاً لدى عدد من الطلبة ميسوري الحال خصوصاً.. ومن هذه الجامعات: (جامعة أكسفورد - جامعة الزهراء - جامعة إيبلا - جامعة روما - جامعة ماري - جامعة باشاك شهير).

وتتميز هذه الجامعات فيما يخص تجهيز أبنيتها وأثاثها وتوفير الوسائل التعليمية والمختبرات المناسبة ووسائل الشرح الإلكترونية والتجهيزات الصوتية التي تساعد في إيصال المعلومات، ولكن هذا التميز قد لا يعطيها التفوق على الجامعات العامة لما يوجد من سلبيات خطيرة على الطلبة ومستقبلهم أهمها عدم وجود اعتراف دولي بكثير منها، فما هو مصير الطلاب بعد تخرجهم منها؟ ومن هي الجهة الرسمية التي ستصدر شهادة التخرج منها؟

تحديات وآمال:

وبعد مضي ثلاث سنوات على انطلاق الجامعات في المناطق المحررة وصل عدد

الطلاب إلى ما يقارب / ١٥٠٠٠ / طالب بحسب إحصائيات وزارة التعليم العالي في الحكومة المؤقتة.

ومع اقتراب العام الدراسي الرابع من نهايته واستعداد الجامعات لتخريج الدفعة الأولى مع نهاية هذا العام؛ لا يخفى على أحد تلك العقبات والتحديات التي تواجه إصرار العاملين على العمل في الداخل المحرر لتأسيس البنية التعليمية القوية لتمكين الطلاب من استكمال تحصيلهم العلمي ليكونوا قادرين على خدمة بلدهم والمساهمة العلمية الفعالة في إعادة إعمارهم.

ويعتبر الاعتراف بالشهادة الجامعية من أهم التحديات التي تواجه الطلبة فهذه الجامعات حديثة النشء مما يزرع المخاوف في نفوسهم من عدم وجود اعتراف دولي بها، فوجود اعتراف دولي بشهادات الطلاب الخريجين أمر مهم لتلبية طموحاتهم دون أية مخاوف مستقبلية.

وكذلك تعد الظروف الأمنية الصعبة وقيام نظام الأسد وحلفائه باستهداف المنشآت التعليمية من أكبر التحديات التي تمنع وجود بيئة آمنة وأماكن محصنة لخلق ظروف تعليمية مناسبة.

وبسبب توزع الكليات وشعب الجامعات على محافظات متعددة؛ لا يوجد حرم جامعي مشترك وخاصة في جامعة حلب أو إدلب وهذا يؤدي إلى صعوبة الانتقال بالنسبة للطلاب والإداريين ويسهم في صعوبة العمل الإداري والتشغيلي للجامعة أضف إلى ذلك عدم وجود مدن جامعية أو مساكن للطلاب مما يصعب عملية الالتحاق بالجامعة.

وفيما يتعلق بالتمويل تعاني الجامعات جميعها من نقص في التمويل وفي حال وجوده فهو مؤقت وبذلك تنعكس النتائج على الجامعة وطلابها من حيث صعوبة تأمين المناهج الدراسية مطبوعة وعدم وجود المباني الجامعية المناسبة مع التعليم العالي والنقص في المخابر العلمية المتطورة وكفايتها.

وعلى الرغم من وجود هذه التحديات والمعوقات إلا أن الأمل بواقع تعليمي أفضل يبقى هدفاً للمؤسسات التعليمية في مناطق الثورة.

لا تزال مؤسسات التعليم في المناطق المحررة تطمح إلى تطوير العملية التعليمية على عدة محاور منها:

- **البنية التعليمية:** فهي بحاجة إلى مزيد من العناية لتوفير بيئة تعليمية صحية ومناسبة، وأكثر ما يبعث على الحزن المراكز التعليمية التي لا زالت في الخيم والمباني الضيقة مسبوقة الصنع وما تزرعه في نفوس الطلاب من إحساس بالحزن والانكسار.

- **الكوادر التعليمية:** لا تزال الكوادر تعاني من نقص شديد وتحتاج إلى وضع مخطط متكامل لتدريبها والارتقاء بمستواها.

- **المناهج:** إن المناهج والكتب التي يتم الاعتماد عليها في المناطق المحررة تعاني من التنظير القاتل الذي اتسمت به أيام تسلط النظام الطائفي ونحن بحاجة اليوم إلى منهاج يجمع بين التنظير والتدريب العملي لفتح الأفق الحياتية العملية أمام طلابنا.

- **الإدارة:** إن تنظيم العملية التعليمية من خلال إدارة رشيدة لا يقل أهمية عن ضبط المناهج والارتقاء بمستوى الكادر التعليمي أو صيانة الأبنية والارتقاء بمستواها، فالإدارة لها دور مهم في الارتقاء بمؤسساتنا التعليمية الناشئة.

وأخيراً: إننا نعيش حالة حرب على كل المستويات الاجتماعية والإنسانية، والعلم مع الأخلاق هو ما يحفظ مجتمعا وهو ما يميزنا عن باقي الأمم أو يجعلنا محط احترام دولي، وإن العلم مع الإنسانية هو الطريق الأوحد لحضارة إنسانية قوية تخدم الآخرين وتقدم لهم الخير والنفع... وما نطمح إليه اليوم هو أن نعيش حياة إنسانية كريمة تنقذ شعبنا من الضياع الذي يعانيه والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



فما زالت قائمة بفضل الله، وقد اتخذت بعض القوى المتنفذة في العالم من هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م حجة للضغط على الدول الإسلامية لإجبارها على إغلاق كثير من كتاتيب تعليم القرآن الكريم، كما حدث في باكستان وأفغانستان وغيرها من الدول بحجة أن هذه الكتاتيب تخرج المتطرفين والإرهابيين، وقد وجدت بعض الحكومات العلمانية المتطرفة في ذلك الوقت في التوجه الأمريكي حجة للتضييق على الكتاتيب والمدارس الإسلامية من خلال إغلاقها أو التدخل في شؤونها وبرامجها الداخلية كما فعل

نظام الأسد في سوريا عقب حربي أفغانستان والعراق.

إن عدم إدراك أهمية الكتاتيب القرآنية ودورها في الحفاظ على الدين واللغة من قبل بعض المجتمعات يهدد مستقبلها، مما يوجب علينا التعريف الدائم بدورها في المجتمع والحرص على دعم مسيرتها.

رغم ما هو معلوم للجميع من إيجابيات هذه الكتاتيب فإنها لا تخلو من بعض المآخذ، منها:

- أن بعض المعلمين لا يهتم بمن تحت يده بمقدار ما يهتم بما يجني منهم من رزق زهيد سواء من أئمة مساجد أو سواهم، وبعضهم متطوعون لا ينالون مقابل عملهم أجرًا مما يشغلهم عن التفرغ التام للتعليم.

- ضعف التكوين العلمي والمنهجي للشيخ المعلم، فأغلبهم لا يزيدون على حفظ القرآن الكريم، دون إلمام بعلوم اللغة أو التفسير، مما يقيم قطعة بين تلاوة القرآن الكريم وفهمه، وبين الحفاظ والسلوك.

- قصور البرنامج التعليمي فيها عن الحفاظ على شخصية اليافين في مواجهة دعوات التطرف والغلو التي تستغل حماس طلاب القرآن لخدمة الإسلام؛ إذ تقوم بتوجيه بعضهم إلى خدمة أهدافها الشريرة، كما فعلت داعش في سوريا والعراق.

- ومن سلبيات الكتاتيب قديمًا وحديثًا الاهتمام بتحفيظ الذكور دون الإناث في أغلب الأحيان.

- عدم الاهتمام بطرق التعليم الحديثة - التي تناسب أكثر مع تركيبة الطفل في عصرنا - وما فيها من وسائل التحفيز التي تحبب الطالب بكتاب الله، وتجعله يتردد على الكتاب بفرح وشغف.

تصويب المنهج التعليمي في الكتاتيب:

لقد كان للكتاتيب القرآنية أعظم الأثر في التاريخ الإسلامي، وما زالت إلى اليوم تحافظ على لغة أبنائنا في ظل الإهمال الحكومي للغة العربية والاهتمام المبالغ فيه باللغات الأجنبية، وما زال لها الدور الأكبر في تعليم عامة الناس مبادئ الدين والوضوء والصلاة؛ إذ أهملت الحكومات العربية والإسلامية هذا الواجب، وكذلك الحال في كثير من الدول الإفريقية والآسيوية فما زال الكتاب هو الرابط الأهم بين الطفل المسلم ودينه، ففيه يتعلم الأطفال الوضوء والصلاة والحروف العربية وقراءة القرآن وأركان الإيمان والإسلام، ولكن هذا لا يعني أبدًا أن نغفل عن العمل على تصويب هذه الكتاتيب ودفعها للمزيد من العطاء... وسأشير إلى بعض النقاط التي تحتاج منّا عناية وتصويبا.

أولاً: مما ينبغي إدراكه؛ أن أهم دور للكتاتيب القرآنية هو ربط الطفل بالقرآن الكريم، وتربيته على الخلق والعمل الصالح، والحفاظ على اللغة العربية والهوية الإسلامية في المجتمع، وهذا لا يتأتى إلا بالرجوع إلى المنهج الذي سار عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشيوخ الكتاتيب هم أنفسهم عليهم أن يتخذوا القرآن الكريم منهاج حياة ومشروع عمير، وعلينا أن نبذل جهدنا في تعريف المعلمين عظم الأمانة التي يحملونها، وأن حفظ القرآن ليس في حفظ حروفه فقط، ولكن بالعمل والتخلق به، قال

والحقيقة أنَّ القرآن الكريم والحرص على تعلّمه هو سرّ وجود الكتاتيب وانتشارها في المجتمعات المسلمة.

نشأة الكتاتيب:

الكتاتيب: هي جمع لكلمة كُتَاب، تلك الكلمة التي تطلق على مكانٍ أو فضاءٍ واسع يكون بجوار المسجد غالباً، يُشرف فيه شيخٌ الحيّ أو إمامُ المسجد على تعليم الأطفال أساسيات القراءة والكتابة العربية والقرآن الكريم.

إنّنا إذا ما رجعنا إلى تاريخنا الإسلامي نجد أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان المعلم الأوّل لأصحابه، يحثّهم على طلب العلم ويُقرّئهم القرآن الكريم، ثمّ كان يُقرّئ بعضهم بعضاً، ويحثّ كل واحدٍ منهم على تعلّم القراءة والكتابة، بل إنّه صلى الله عليه وسلم جعل التعليم مساوياً للحرية، حيث جعل فداء بعض أسرى بدر ممّن لا مال لهم أن يعلم الواحد منهم عشرة من الغلمان الكتابة فيُخلّى سبيله، فكان ممّن تعلّم منهم زيد بن ثابت رضي الله عنه^(٢)، وكانت هذه الحادثة نقطة نشوء الكتاتيب في التاريخ الإسلامي، وقد استمر نظام تعليم القراءة والكتابة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ثمّ الخلفاء من بعده، روي عن عبد الله بن سعيد بن العاص رضي الله عنه؛ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتباً محسناً^(٣).

وقد استمرّ التعليم بالكتاتيب مدى الأزمنة والعصور في كلّ المجتمعات الإسلامية خاصّة في البوادي والقرى، فهذه الكتاتيب مع بساطتها وضيقيّ مساحتها -عادة- إلّا أنّ لها دوراً مهماً في محو الأمية وربط المتعلّمين بكتاب الله، وتنوير عقولهم وصلّ ألسنتهم منذ الصغر، وممّن اشتهروا في تاريخنا الإسلامي بالتعليم في الكتاتيب التابعي المقرئ أبو عبد الرحمن السُّلَميّ الكوفي وقيس بن سعد، وعطاء بن رباح والكميت الشاعر، وعبد الحميد كاتب بني أمية، والإمام الزهري والأعمش والحجاج بن يوسف الثقفي، وأسد بن الفرات فاتح صقلية، وغيرهم كثير، ومنهم من كان يعلم الصبيان أوّل النهار والبنات في آخره^(٤).

ونلاحظ من الأسماء المذكورة أنّ الكتاتيب في الزمن الأوّل كان يقوم عليها علماء كبار، حيث كان الأطفال ينهلون منهم شيئاً من العلوم الإسلامية إضافة إلى القرآن الكريم، وهذا ما افتقدته الكتاتيب في العصور اللاحقة.

منهج الكتاتيب في التعليم:

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٨٢٣ / مكتبة المعارف بيروت ١٩٩١.

(٣) التراتيب الإدارية لمحمد عبد الحي الكتاني / تحقيق عبد الله الخالدي ج ٢ ص ٨٤ الطبعة الثانية.

(٤) آداب المعلمين لمحمد بن سحنون / تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ص ٨٤١ دار الكتب الشارقة

تونس.

كان التعلّم في الكُتَاب يأخذ معظم نهار الطالب من بعد صلاة الفجر إلى صلاة الظهر أو العصر عدا يوم الجمعة غالباً، ويختلف منهج التعليم من كُتَاب إلى آخر حسب بيئة المُلقّن ومستوى ثقافته، حيث يجلس المعلم على الأرض مواجهًا طلابه، ويتجمع التلاميذ المبتدئون على مسافة قريبة من الشيخ المعلم، ويقوم مساعد له من الطلبة المتميّزين بإرشادهم، وغالبًا ما يعتمد التحفيظ على وسائل معروفة من ألواح خشبية وأقلام.

أوّل ما يبدأ به الطالب في الكتاب هو تعلّم الحروف والكتابة والقراءة عن طريق الشيخ أو عن طريق مساعديه، ثم يلقّنه الشيخ القرآن الكريم إلى أن يتعلّم ويصبح ماهراً يكتُب لوحه بيده، ويلزمهمُ الشيخ باستظهار القديم قبل الجديد من المحفوظ، ولا يسمح بالخطأ فيه، فإن أخطأ يكلفه بإعادته مرّات ومرّات حتى يستظهره، وقد يعاقبه إن أخطأ.

كانت عقوبات شيخ الكُتَاب نظاماً متعارفاً في الكتاتيب، ولكنها قد تكون قاسية في بعض الأحيان، حتى إنّ منها ما كان سبباً في انفصال العديد من الطلبة عن التعلّم وحفظ القرآن، ومنها ما ترك آثاره السلبية في نفوس كثير من الحفظة، كما لا ينكر أحد الآثار الإيجابية للعقوبات حينما توضع في موضعها وبمقدارها الصحيح.

أمّا استراحة الطلاب والمعلّمين؛ فقد كانت يوم الجمعة، وكانت بداية ذلك في عصر الخلافة الراشدة استناداً إلى ما روي أنّ أطفال الكُتَاب في المدينة المنورة خرجوا إلى ظاهرها في يوم خميس لاستقبال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ عند عودته من رحلة فتح بيت المقدس، فأصابهم من السير على الأقدام عناءٌ شديدٌ، فأشار عمر ألا يذهب الأطفال إلى الكُتَاب في يوم الجمعة التالي ليستريحوا ممّا نالهم^(٥)، وصار الأمر بعد ذلك عادةً متبعة في أن يكون يوم الجمعة يوم راحة وإجازة.

وقد خرّجت تلك الكتاتيب حُفَظاً وقُراء وعلماء كبار في الماضي، ورغم انتشار التعليم الأكاديمي فقد كان طلاب الكتاتيب متميّزين في المدارس لحذق فهمهم وتوقّد ذاكرتهم بسبب أخذهم القرآن الكريم غُضّاً طريّاً منذ نعومة أظفارهم، إلّا أنّ دورها قلّ في الأزمنة الأخيرة وضعفت وظيفتها، لأنّها لم تَرِ اهتماماً ولا تطويراً في منهجها، إضافة إلى انتشار المدارس الحكومية.

واقع الكتاتيب اليوم:

لقد صُعِفَ دور الكتاتيب في عصرنا الحالي نظراً لحلول المدرسة والتعليم الرسمي محلّها، ولكنها ما زالت مستمرة في معظم المجتمعات الإسلامية في فترة الإجازة الصيفية أو بعد العودة من المدرسة، ومع كلّ التهميش والمضايقات التي تُحاصِرُها

(٥) التراتيب الإدارية ٢ / ٤٩٢.

كتاتيب القرآن بعد الثورة:

بعد الثورة السورية احتوت الجمعيات والمؤسسات العاملة في الداخل المحرّر والمخيمات الأطفال واليافين، وافتتحت لهم الكثير من الكتاتيب في المساجد والخيم، يقوم عليها معلمات فاضلات، وشباب غيورون على دينهم يعلمون الأطفال القراءة والكتابة وباقي المواد العلمية، ويحفظونهم القرآن الكريم، فأسهم ذلك بشكل كبير في محاربة الجهل وتنوير العقول ومواكبة السير وتكسير الركون العلمي الذي سببته الحرب.

ويبقى واجب القائمين على هذه الكتاتيب القرآنية اليوم أن يلحِقوا بها البرامج التعليمية التي تحفظ الطلاب من أفكار الغلو والتشدد التي ما زالت تشبث بالبقاء في المخيمات أو الداخل المحرّر؛ فإن من أهم الأخطار التي تهدد طلاب الكتاتيب اليوم التطرف والغلو، ففي كتاتيب القرآن يتعلّم الطفل أول مبادئ الإسلام وفيها يتعلّق قلبه بدينه منتظراً أن يشب ليخدمه بكل ما يستطيع.. وبينما هو في ريعان الصبا ككتلة متوقّدة؛ إذ به تحوم حوله شياطين التطرف والإرهاب باذلة جهدها لتغويه وتستزل قدمه وتستخدمه في خدمة عقائدها الفاسدة وأجندتها الأثمة، وإن القائمين على هذه الكتاتيب مطالبون بوضع برنامج تعليمي وتربوي للأطفال واليافين يشرح الإسلام ويبيّن مقاصده ويتضمّن بعض علومه بما يتناسب مع التركيبة العقلية للطفل بما يحميه من الانزلاق في طرق التطرف والتكفير، أو حتى التميّع والنفاق والحدائث... عن إبراهيم التيمي، قال: «خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبئها واحد؟! فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبئها واحد؟، وقبلتها واحدة؟! فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنّ أنزل القرآن علينا فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، واقتتلوا...»^(١٠).

خاتمة:

إنّ الكتاتيب القرآنية شعاع ثقافي مهم في المجتمع المسلم، فهي تُسهم في الحفاظ على اللغة العربية ونشر العلم، وتمسك الناس بحبل الله المتين، فإذا عمّت وانتشرت هذه الكتاتيب في مجتمعاتنا بتلك المعايير التي سبق أن ذكرناها؛ فسيكثر الخير والنفع والفضيلة ببركة القرآن الكريم، وينشأ جيل قرآني يحفظ عرى الإسلام، فمن أراد الدنيا فعليه بالقرآن ومن أراد الآخرة فعليه بالقرآن، ومن أرادهما معاً فعليه بالقرآن، ففيه عز الدين والدنيا، والحمد لله رب العالمين.

عنهما عتمة الجهل والتخلف، كانت كذلك في التاريخ القديم واستمرت على نسق واحد في فترة الخلافة العثمانية وحتى ما بعد ذلك سواء في فترة الاحتلال الفرنسي أو الحكومات اللاحقة.

الكتاتيب في فترة حزب البعث:

كانت أمور بلادنا لا تزال بخير إلى أن تسلّط حزب البعث على مقاليد السلطة في سوريا؛ إذ بدأ عتاته بمضايقة العلماء ومراكز التعليم الإسلامية والكتاتيب القرآنية فيها، ويوما بعد يوم -وتحت وطأة السجن والتعذيب والتهديد للعالم وعائلته ومن يلوذ به- بدأ العلماء يهاجرون والمدارس الإسلامية تنحسر والكتاتيب القرآنية تقلّ، وزاد الأمر خطراً بوصول حافظ الأسد وعصابته إلى السلطة حيث سعى جاهداً إلى محاصرة السلطة الدينية على المجتمع وبعد أحداث ١٩٨٢ قام بتهجير المئات من علماء سوريا ممن كان منتسباً لجماعة الإخوان المسلمين أو ليس كذلك، كما قام بإغلاق كثير من المؤسسات الإسلامية وما يتبعها من مراكز تعليمية ومصادرتها، حيث انحسر دور الكتاتيب القرآنية، وكان غالباً ما يتم السماح لأئمة المساجد بافتتاحها في الفترة الصيفية على ألا يأخذ المعلمون أجراً من الطلاب، وتحت رقابة المخابرات التي كانت تزور هذه المعاهد وتحصي أسماء الطلاب وأعدادهم وفي كثير من الأحيان تأخذ ضريبة من إمام المسجد مقابل ألا تتدخل في التعليم أو لا تغلق الكتّاب، ومما يحزن القلب المحاولات البعثية لتدنيس هذه المراكز القرآنية الطاهرة بالصاق اسم الطاغية المجرم حافظ الأسد بها، حيث أطلق عليها رسمياً اسم «معاهد الأسد لتحفيظ القرآن الكريم» كعادة هذا النظام الفاسد في سرقة جهود الناس ونسبة كل خير إلى نفسه وكل شر إلى شعبنا.

وقد كان لما تبقى من كتاتيب القرآن الكريم في المناطق السنية دور كبير في محو الأمية وتعليم الأطفال القراءة والكتابة في ظل التدمير العلوي الممنهج لنظام التعليم في كثير من المناطق السنية النائية أو الفقيرة ضمن سياسته لتخريب الجيل المسلم السني وتجهيله واستعباده.

لقد بذل نظام الأسد جهده للتضييق على المدارس الإسلامية وكتاتيب القرآن، ولكن مقاومة العلماء والشعب السوري المسلم لذلك نجحت في الحفاظ على قدر لا بأس به من هذه المدارس والكتاتيب، وتعدّ مضايقات الأسد للحركة الدينية في سوريا وإطلاقه العنان للتبشير الشيعي والجمعيات الإيرانية، مع طرد المعلمات المنقبات من المدارس الرسمية وتدمير التعليم في كثير من المناطق السنية؛ من أهم الأسباب التي أدت إلى انطلاق الثورة السورية.

(٩) واقع الكتاتيب والتعليم الإسلامي في سوريا أفاد به الأستاذ محمد علي التجار.

(١٠) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٩٠٢) وابن سلام في فضائل القرآن رقم (٦٧).

تخرّجت على يديه مئات الحافظات والمرئيات الطاهرات.

رابعاً: يستحبّ للشيخ المعلّم أن يستخدم السبورة لشرح بعض قواعد التجويد، أو لشرح الآيات، مراعاة للفروق الفردية، ولا يتمّ الاقتصار على التلقين، ففي بال الطفل اليوم كثير ممّا يُشغله ويحتاج إلى مزيد من جذب اهتمامه والعناية به.

خامساً: خلق جوّ من الراحة النفسية للطلاب بإشعارهم بالأمان وعدم ترهيبهم، وفي المقابل تحسيسهم بعظمة القرآن الكريم وعدم ترك المجال لهم للاستهانة بالحفظ أو بحرمة القرآن الكريم.

سادساً: ربط شراكات مع الجمعيات الإسلامية أو مع مؤسسات الأوقاف لتنظيم مسابقات وتحفيز الحافظين والحافظات وتكريم أصحاب الأخلاق الحسنة.

ومختصر الكلام؛ يجب الاهتمام بكلّ الوسائل التي تُسهّم في نشر ثقافة حفظ كتاب الله تعالى بين الناس، ويبقى أهمّ شيء في ذلك كلّ أن يحمل الشيخ أو المعلّم رسالةً وهدفًا في تعليمه لكتاب الله تعالى، ويتغني بذلك وجه الله خالصاً له، مربّياً طلابه على أخلاق القرآن الكريم.

استمرار الكتاتيب في البلدان الإسلامية:

ما زالت الكتاتيب قائمة بفضل الله في معظم البلدان الإسلامية وخاصة في إفريقيا وشرق آسيا، كما يُلاحظ أيضاً انتشار حفظ القرآن في الكتاتيب القرآنية بتقاليدها القديمة في بلدان المغرب العربي بشكل كبير بدايةً من ليبيا ومروراً بتونس والجزائر والمغرب وصحاري موريتانيا، وينالون المراكز الأولى في نسبة حفظ القرآن الكريم.

وما الإقبال الكبير هذا إلا بعدما أيقن الجميع أنّ القرآن هو السبيل المنجي، وأنّه هو النور الذي يُنير حياة الإنسان، وهو الخير كلّ، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُذَاى فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ [سورة طه: الآية ١٢٣] فمن حفظ القرآن الكريم وعمل به، لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أبشروا أبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: إنّ هذا القرآن سبب - أي حبل - طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً»^(٦).

كتاتيب القرآن في المجتمع السوري:

بلاد الشام كمصر والعراق وأقاليم المغرب الإسلامي كانت موئلاً للعلم والدين تنتشر فيها المدارس الإسلامية والكتاتيب فتمحو

العلامة المغربي فريد الأنصاري رحمه الله: (إنّ الحفظ هو الذي مارسه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث كانوا يتلقون خمس آيات أو عشرًا فيدخلون في مكابدة حقائقها الإيمانية ما شاء الله.. وإنّ الذي لا يُكابد منزلة الإخلاص ولا يجاهد نفسه على حصنها المنيع، ولا يتخلّق بمقام توحيد الله في كلّ شيء رغبا ورهبا لا يُمكن أن يُعتبر حافظاً لسورة الإخلاص.. ثمّ إنّ الذي لا تلتهب مواجيدته بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمل..)^(٧)، فلا بدّ للشيخ من أن يكون مربّياً قدوةً لطلابه، متبهاً لأخلاقهم، فلا يليق بمن يحفظ القرآن أن يسبّ ويتكلّم بالكلام الفاحش، أو يجلس يحفظ القرآن، فإذا أذن المؤذن للصلاة خرج يلهو ويلعب ولا يصلي كما يحدث في بعض الكتاتيب، وهنا يكون واجب المعلّم ألا يركّز على التحفيظ فقط، بل يجب أن يكون هدفه تكوين شخصية متزنة تجمع بين الحفظ وجمالية السلوك.

ثانياً: وممّا ينبغي الانتباه له هو عدم اللجوء إلى العقوبات العنيفة التي تنفر الطلاب من حفظ القرآن، لأنّ القرآن ميسّر من عند الله، فيجب التيسير والتسهيل في تحفيظه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ [سورة القمر: آية ١٧]، فينبغي بسط يد الرحمة للمتعلمين - خاصة الصغار منهم - وتشجيعهم على قراءة القرآن وحفظه، ولا يقولنّ إنسان إن ابني سينسى ما قرأ وحفظ فما فائدة الاستدامة في هذه الكتاتيب؟ فإنّ الإنسان وإن كان يحفظ القرآن وينسى، فإنّ عليه أن يستمرّ لأنّ القرآن يشتغل في داخله من حيث لا يشعر، فمع مرور الوقت سيظهر قلبه ويهذب سلوكه، يقول فريد الأنصاري رحمه الله: (وإنّ أحقّ ما توهّب له الأعمار كتاب الله، وفي مثل بليغ أنّ نملة انطلقت في طريقها عاقدة عزيمتها على حج بيت الله من أقصى الأرض، فقيل لها: (كيف تدركين الحج وإنما أنت نملة؟ إنك ستموتين قطعاً قبل الوصول)، قالت: (إذن أموت على تلك الطريق)^(٨)، فالشاهد من هذا المثل أنّ يُكرّس الإنسان حياته لكتاب الله لا يكلّ ولا يملّ ولا ييأس، ليرضى الله عنه ويفتح عليه من أسرار القرآن الكريم، أو يأتيه أجله وهو على ذلك.

ثالثاً: كما يجب أن نضمّ الكتاتيب دائماً جناحاً للبنات، للحرص على تخريج الفتاة القرآنية المتشبعة بأخلاق القرآن الكريم، وإتي لأعلم في بلادنا بلاد المغرب شيخاً جليلاً كرّس حياته لتحفيظ البنات صغاراً وكباراً منذ أربعين سنة في كتّاب متواضع جانب مسجد، ولقد رأيت يتردّد على الكتّاب صباحاً ومساءً كلّ يوم ولم يشك قطّ كلّ تلك السنين من تعب أو بُعد الطريق، يدرّسهم بالألواح والمصاحف حيث يجلس الصبيان الصغار لأقل من عشر سنوات في الأمام والبنات والنساء في الخلف، ويحفظ المتميزات منهنّ بعض المتون العلمية بعد تمكنهنّ من القراءة والكتابة، وقد

(٦) هذه رسالات القرآن للعالم فريد الانصاري / تقديم عبد الناصر المقرّي ص ٣١ دار السلام للطباعة والنشر / الطبعة ١ / القاهرة ٢٠١٢.

(٧) هذه رسالات القرآن ص ٧١

(٨) رواه الطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه.

التأليف في مختلف العلوم، وعلى رأسها الحديث الشريف والتفسير واللغة والشعر والسيرة والتاريخ والمنطق والفلسفة والطب، وكان الخلفاء العباسيون يجزلون العطاء على العلم والتأليف حتى كان المأمون يعطي للمؤلفين وزن كتبهم ذهباً.

وقد انتشر في العصر العباسي نوعان من المكتبات هما المكتبات الخاصة والمكتبات العامة، ولقد شهد العصر العباسي ظهور كثير من العلماء كجابر بن حيان والكندي وأبي بكر الرازي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم، وقد اجتمع لدى العديد من العلماء مكتبات خاصة نقل لنا المؤرخون أخبار بعضها، منها:

مكتبة الجاحظ:

كان أبو عثمان الجاحظ يملك مكتبة ضخمة، حتى أنه فيما اشتهر عنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة، وذكر ياقوت الحموي قولاً لأبي هفان وهو من معاصريه وممن عاشوا معه، قال: (لم أرق قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان)، ولا عجب إذ يفرد الصفحات الطوال في كتبه للحديث عن فوائد الكتب وفوائدها ومحاسنها، فألف رحمه الله العديد من الكتب، وكانت له مكتبة ضخمة حتى إنه كان يطالع يوماً فيها فوق عليه صف من الكتب أرداه ميتاً رحمه الله^(٤).

مكتبة ابن جرير:

وذكر الشيخ الكتاني المغربي في كتابه تاريخ المكتبات ابن جرير فقال: (وأعجب ما قرأته عن أهل القرن الثالث، ما في ترجمة ابن جرير في معجم الأدباء لياقوت الحموي، عن أبي القاسم الحسن بن حسين الوراق قال: (كان قد التمس مني ابن جرير أن أجمع له كتب الناس في القياس، فجمعت له نيفاً وثلاثين كتاباً...) قال: فإذا كان ابن جرير الذي مات سنة ٣١٠هـ يحضر له هذا العدد من الكتب في باب واحد من علم الأصول، فما بالك بغيره! إن هذا إلا عجب يريك الكثرة التي بلغوها في كل علم وباب^(٥)).

مكتبة الصاحب بن عباد:

وذكر أيضاً أن سلطان خراسان كتب لأبي القاسم الصاحب بن عباد ورقة يستدعيه لحضرته ليقبله الوزارة فأجابه معتذراً: (كيف لي بحمل أثقاله وعندي من كتب العلم خاصة ما يُحمل على أربعمئة جمل أو أكثر^(٦)).

مكتبات أخرى:

وقال الكتاني أيضاً: (كان في مكة مكتبة المؤرخ قطب الدين

صلى الله عليه وسلم، عن عبد الله بن سعيد بن العاص رضي الله عنه؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يُعلم الناس الكتابة بالمدينة، وكان كاتباً محسناً^(٧)).

وفيما تلا الحقبة النبوية عمل بعض الصحابة الكرام على تدوين ما تيسر لهم من الحديث والمسائل، كما أسس بعض الصحابة والتابعين مكتبات خاصة بهم يجمعون فيها صنوف الكتب والعلم، وبعد هذا أول ظهور للمكتبات في الإسلام، فيذكر أن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه كان يملك كتباً كثيرة بلغت جمل بعير، وكان لعبد الله بن عمر رضي الله عنه كتب إذا خرج إلى السوق نظر فيها، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحفظ كتبه وصحفه في صندوق له حلق، ولعروة بن الزبير كتب احترقت يوم الحرة فحزن عليها وقال: (وددت لو أن عندي كتبتي بأهلي ومالي^(٨))، وكان مجاهد بن جبير يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها^(٩).

المكتبات في العصر الأموي:

لقد استمر عصر المكتبات الخاصة في فترة الحكم الأموي، ويعد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أول من أمر بتدوين القصص والتاريخ وكتابته على الورق، ثم جاء بعده حفيده خالد بن يزيد، الذي كان له اهتمام خاص بعلوم الكيمياء، فأمر بإحضار كتب اليونان والقبط إلى دمشق وترجمتها إلى العربية، وبذلك وضع أول أساس للمكتبات العلمية في عالمنا الإسلامي، فالعلم يبدأ من ترجمة معارف الأمم الأخرى الأكثر تقدماً إذ تتعلمها الأمة ثم تبني عليها لتسهم في دورة الحضارة الإنسانية.

استمرت حركة التدوين واقتناء الكتب ضعيفة في ذلك العصر، واقتصرت المكتبات على الصعيد الشخصي؛ إذ كان اعتماد أهل العلم في ذلك الزمن على المشافهة والتلقي لا التدوين في الكتب، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فأمر بكتابة السنن وتدوينها، فأنفتح باب التدوين على مصراعيه بداية من السنة النبوية وأقوال الصحابة والفقهاء والتفسير وسائر العلوم الإسلامية والتواريخ إلى نهاية العصر الأموي في الشرق، ومن أشهر المدونين والكتاب في العصر الأموي الإمام الزهري ومحمد بن إسحاق كاتب السيرة النبوية، والإمام مالك صاحب الموطأ.

المكتبات في العصر العباسي:

وفي عصر العباسيين انتشرت حركة التدوين والنسخ أكثر، وكثر

(١) التراتيب الإدارية لمحمد عبد الحي الكتاني / تحقيق عبد الله الخالدي ج ٢ ص ٨٤ الطبعة الثانية.

(٢) أصول كتابة البحث العلمي وتحقيق المخطوطات، د. يوسف المرعشلي (ص ٦١٢) دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٣) أصول الحديث علومه ومصطلحه/ محمد عجاج الخطيب ص ١١ / دار الفكر ط ٢٠٠٢ بيروت لبنان

(٤) معجم الأدباء لياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس (ج ٥ / ص ١٠١٢) دار الغرب الإسلامي.

(٥) تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب للشيخ محمد عبد الحي عبد الكبير الكتاني، (ص ٤٧) الطبعة الأولى ٣١٠٢ / مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث/ المغرب الرباط.

(٦) المرجع السابق (ص ٤٧).



محمد عبد الحميد بكور
مجاز في الدراسات الإسلامية

المكتبات ودورها في نهضة الأمة



وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿سورة يونس: آية ١٠١﴾، وأمرنا ربنا بالتفكير في خلق الجبال والسموات والكواكب والزروع والحيوانات والنفوس البشرية وتاريخ الأمم لتنوع معارفنا عن الحياة التي تحيط بنا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: آية ٢٧ و ٢٨].

في صدر الإسلام كان المسجد النبوي هو مكتبة المسلمين يتعلمون فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتربون على يديه، وقد أمرهم بكتابة القرآن الكريم والحفاظ على الرقاع التي يكتب عليها، حيث كانت تحفظ في البيوت وتضان من التلف والتزوير، وكان هذا يمثل نقطة تشكل مفهوم المكتبات في الإسلام، وقد جُمِعَت هذه الرقاع والألواح في مكان واحد في خلافة الصديق حين بدأ بجمع القرآن الكريم إثر معركة اليمامة.

لقد تحول أعراب البادية وأبناء القبائل الفقيرة في المسجد النبوي المبارك من أناس بسطاء لا يعرفون شيئاً سوى الرعي والحرب وما توارثوه من الأخلاق والشعر إلى قادة للأمم يعلمونهم الأخلاق والحكمة والمعرفة ودين الله.

وقد تجلّى اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالعلم كأحد أركان المجتمع المسلم بعد معركة بدر الكبرى عندما جعل فداء بعض الأسرى تعليم القراءة والكتابة لعشرة من أولاد المسلمين؛ إذ استمر تعليم القراءة والكتابة طيلة العهد النبوي بأمر من النبي

لا شك أن نهضة أي أمة وازدهار حضارتها لا يأتيان من فراغ، إنما ذلك نابع من إنجاز متكامل ومتناسق في كل المجالات، إضافة إلى وعي تام بكل ما يوصل للتميز والرقي، خاصة في مجال العلم الذي يُعَدُّ مشعل الفخر بين الأمم، والمؤشر الأبرز لتقدمها الحضاري، من خلال العناية بالعلم والعلماء والإشادة بفكرهم، وتشجيعهم على البحث والإنتاج ونشر كتبهم وحفظها في الخزائن والمكتبات.

عَرَفَ تاريخنا الإسلامي حقبا لا نظير لها في اتساع رقعة العلم والتأليف في كل الفنون والميادين، وشهد ببرز أكبر المكتبات التي كانت تُشَدُّ إليها الرحال من كل أقطار العالم لذيع صيتها وندرة كتبها.

المكتبات في الصدر الأول من الإسلام:

على خلاف كثير من الديانات والملل فقد جاء الإسلام بالحث على العلم وعلى كل الوسائل المؤدية إليه، وخاصة القراءة والتفكير، كان أول ما أنزل من القرآن الكريم قول ربنا سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: آية ١-٥]، إنه أمر صريح بالقراءة وذكر العلم والقلم الأداة الأولى لكتابته وتدوينه.

وقد شجع القرآن الإنسان على التفكير في خلق الله والنظر في الكون فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وتطلعاتهم.

٢. عقد الندوات والمحاضرات في المكتبات العامة والوقفية وتنظيمها، وعرض الكتب الجديدة لتكون في متناول الحضور.
٣. تنظيم مسابقات ثقافية وبحثية بمستويات متنوعة لتشجيع الطلبة على القراءة والبحث العلمي.
٤. فهرسة المكتبات وتوفير آلات النسخ المجانية للقراء والباحثين.
٥. الاهتمام بتأسيس المكتبات الصغيرة والكبيرة على السواء، انطلاقاً من المدرسة والمسجد ومعاهد تعليم القرآن وانتهاء بالجامعة.

تجربة في توجيه الطلاب إلى القراءة:

أرادت بعض المدارس السورية في تركيا أن تقوم بتشجيع الطلاب على القراءة، ولا تملك القدرة المادية لتأسيس مكتبة، فاقترحت الإدارة أن يحضر كل عضو في الكادر التدريسي ما لديه من كتب في بيته لجمعها في المدرسة وإقامة معرض لها، وبالفعل حصلت المدرسة على مكتبة مؤقتة متنوعة المجالات، واستفاد الطلاب والمعلمون من هذه التجربة أيما استفادة... وهذه المحاولة على بساطتها يمكن تطبيقها في كل المدارس السورية الفقيرة في المخيمات والمهجر والداخل؛ للارتقاء بمستوى جيلنا الذي دمرته الحرب وأنهكه الظلم والطغيان... وقد صدق من قال: إن الجيل الذي يقرأ تسهل قيادته ولا يسهل استعباده، والجيل الجاهل -كالذي عمل حزب البعث على صنعه وتربيته- يسهل استعباده وتصعب قيادته.

تقوم بعض المدارس التركية بتجربة رائدة لتعويد الطلاب على القراءة، وذلك من خلال توزيع الكتب التاريخية الهادفة على الطلاب، وتخصيص وقت يومي للقراءة تحت إشراف المعلم بين الدروس أو في آخرها، وأحياناً يطلب المعلم من بعض الطلاب أن يحدثوه عما استفادوا من الكتب التي قرؤوها، وما الدرس الذي تعلموه من كل كتاب، وكلما انتهى الطالب من كتاب تبادل مع صديقه الآخر... وقد كان لهذه التجربة أثر كبير في إزالة الجفوة ما بين الطالب والكتاب، وانطلق الطلاب بعدها للبحث عن كتب جديدة لشراءها وقراءتها.

وإن هاتين التجربتين على بساطتهما لو طبقناهما في مدارسنا السورية ومعاهد تعليم القرآن في فترات متلاحقة وتحت توجيه المعلمين إلى الكتاب المفيد والقريب إلى الاختصاص المفضل للطالب؛ لوجدنا لها أثراً طيباً في ربط جيلنا بثقافة عصره، مما سيجعله جيلاً منتجاً بدل أن يكون جيلاً جاهلاً عالة على الإنسانية... وما يقع على عاتقنا أن نعلمهم القراءة، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

تاريخنا الإسلامي، وعلى أهمية المكتبات في دفع عجلة العلم والحضارة.

المكتبات في عصرنا الحاضر:

ما زالت المكتبات العامة والوقفية مستمرة إلى عصرنا هذا، ولكنها فقدت بريقها مع الفجوة الحاصلة بين المواضيع التي تحويها وبين حاجة المجتمع اليوم، كما أن لتخلفنا الحضاري ونفور الناس من البحث العلمي أثراً كبيراً في عزوف الناس عن القراءة.

إن التراجع الذي مُنيت به القراءة العلمية والبحثية في زماننا أفقد المكتبات بريقها وأثرها الحضاري، مما أدى بدوره إلى تدني المستوى العلمي لدى الناس عامة وطلبة العلم خاصة.

إنه لا يخفى على عاقل الدور الكبير الذي تؤديه المكتبات في نشر ثقافة القراءة وتشجيع البحث العلمي ونشر الوعي في المجتمع، ومشكلتنا الحاضرة أن أغلب مكتباتنا الشهيرة اليوم تتوفر على كتب قديمة لا تتجدد، الكتب نفسها تبقى على الرفوف سنوات متعاقبة لا تستبدل ولا تكلف إدارة المكتبات نفسها بمسايرة التطور العلمي وتوفير كل جديد من العلم لطلابها، فكم من طالب علم يود شراء كتاب فيجد سعره غالياً ويبحث عنه في المكتبات العامة فلا يجده، أو قد يجده فتحول قوانين المكتبة وقبورها بينه وبين الانتفاع به... لذلك تشهد أمتنا تراجعاً هائلاً وعزوفاً كبيراً عن القراءة، إضافة إلى انشغال الناس بالهواتف الذكية ومواقع التواصل وبرامج الدردشة ومتابعة الأخبار السياسية والفنية والرياضية.

وهنا لا يمكننا أن نغفل دور الكتب الإلكترونية المتوفرة في الشبكة العنكبوتية في إغناء جزء من الباحثين عن الرجوع إلى المكتبات والجلوس فيها، ولكن ما نعالجه هنا العزوف المخيف عن القراءة وحب التعلم في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة.

نحو مجتمع قارئ:

لا شك أن هناك علاقة مطردة بين تخلفنا الحضاري وعزوفنا عن القراءة، ولكن في انطلاقنا إلى النهضة العلمية المنشودة فإن القراءة هي الحجر الذي نبني عليه تطورنا العلمي، ولهذا يجب على قادة المجتمع ومعلميه أن يبذلوا جهدهم في دفع الجيل إلى القراءة العلمية المثمرة، وإعادة التفاعل بين المكتبة والإنسان المسلم.

ولعله يمكننا إعادة اللحمة بين المكتبة والجيل من خلال عدة إجراءات، منها:

١. توفير كتب جديدة ومتنوعة في المكتبات تلبي حاجة القراء

وهي أول مكتبة أكاديمية وعامة، ويُرجع المؤرخون بداية تأسيسها إلى الخليفة هارون الرشيد رحمه الله، وقد تردد إلى هذه المكتبة بحثًا وتأليفًا علماء كثر، منهم الكندي والخوارزمي، وتضمنت كمًّا هائلًا من الكتب في التراث الإسلامي والإنساني على السواء، ككتب التراجم والسير ومصنفات الكيمياء والفلك والطب والجبر، واحتوت على مرصد فلكي، وكانت تحوي غرفًا للمحاضرات والمناظرات، وغرفة للاستراحة، وغرفة للمترجمين، وغرفة للنساخين، وغرفة للمجلدين والوراقين، وغرفًا للخازنين والمناولين، وغرفًا خاصة للتدريس، وغرفًا أخرى لسكن طلاب العلم، وظل هذا المشروع العلمي الضخم قائمًا يستفيد منه الرواد حتى وقع بلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ حيث نهبوا وخربوا وألقوا بالآلاف المخطوطات والكتب في النهر^(١٣).



رسم لبغداد - تنوسطها دار الحكمة في العصر العباسي

مكتبة جامع الزيتونة:

ومن المكتبات الشهيرة في إفريقيا مكتبة جامع الزيتونة بتونس، المعروفة بالعبدية، وعدد مجلداتها خمسة آلاف ومئتان وتسعة وأربعون، وعد بعضهم ما اشتملت عليه خزانة جامع الزيتونة فقال: اشتملت على أزيد من سبعة آلاف مجلد^(١٤)، وقد استمر الجامع بما فيه من شيوخ ودروس وكتب منارة للعلم في إفريقيا قرونًا عدة وما زال.

مكتبة جامع القرويين:

ومن المكتبات الإسلامية العريقة في شمال إفريقيا مكتبة جامع القرويين بالمغرب، والتي كان يحج إليها الناس من بقاع العالم يطلبون العلم فيها، وما زالت إلى يومنا هذا حاضنة للمثقفين وطلاب العلم والباحثين.

وغيرها كثير من المكتبات التي لا يسع المقام لذكرها كلها، وهذا يدل على الازدهار الثقافي والعلمي والحضاري الذي عرفه

النهرواني الحنفي، كان عظيم الجاه عند الأتراك، وكانوا يعطونه العطاء الواسع، فكان يشتري بما يحصله نفائس الكتب ويبدلها لمن يحتاجها، فاجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند غيره، ومكتبة أبي الغيث القشاشي التونسي^(١٥)، كان صاحب جاه عظيم ومال كثير، بنى جوامع ومدارس وقناطر، وجمع من نفائس الكتب ما لا يحصى... وكذا مكتبة أبي المواهب شرف الدين الأنصاري^(١٦)، كانت كتبه كثيرة، وكان حريصًا على خطوط العلماء ضئيلاً بها، ومن جملة كتبه ثمان عشرة نسخة من طبقات السبكي وثمانية وعشرون شرحًا على البخاري وأربعون تفسيرًا^(١٧).

وقد أوقف العديد من العلماء كتبهم ومكتباتهم على طلاب العلم، كالإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي رحمه الله، الذي وضع مؤلفاته الكثيرة في دار خاصة وجعلها وقفًا لأهل العلم^(١٨).

المكتبات العامة في التاريخ الإسلامي:

إن المكتبات العامة إحدى أبرز معالم النهضة العلمية عند العرب والمسلمين، وقد كثرت منذ أواخر القرن الثاني الهجري، وتنافس الخلفاء في الحصول على أنفس الكتب وأندرها حتى زخرت المكتبات العامة بآلاف المجلدات، وانتشرت خزائن الكتب في أقطار العالم الإسلامي من سمرقند وفاس إلى بخارى وقرطبة ومن بغداد ودمشق إلى حلب والقاهرة، وأمدّها الأمراء والخلفاء بما تحتاج إليه من الموظفين والمواد الكتابية وما يلزم لتجليد الكتب^(١٩).

ولقد كان المأمون يشترط على ملك الروم في معاهداته معه -بعد انتصارات المأمون المشهورة عليه- أن يسمح للمترجمين المسلمين بترجمة الكتب التي في مكتبة القسطنطينية.. وكان لخلفاء بني العباس موظفون يجوبون الأرض بحثًا عن الكتب العلمية بأي لغة لتترجم وتوضع في مكتبة بغداد، بعد أن يتولاها علماء المسلمين المتخصصون بالنقد والتحليل^(٢٠).

ومن أشهر المكتبات العامة في تاريخ نهضتنا الإسلامية مكتبة الحكمة ومكتبة جامع الزيتونة ومكتبة جامع القرويين.

بيت الحكمة:

أو دار الحكمة، وهي من أشهر المكتبات في العصر العباسي،

(٧) محمد الكمراني، التونسي، القادري، (أبو الغيث) طيب مشارك في بعض العلوم، توفي مطلعونا بتونس (١٣٠١) انظر معجم المؤلفين (١١/٣٦١).

(٨) من أحفاد الشيخ زكريا الأنصاري الشافعي توفي ٢٩٠١هـ ترجمته في فهرس الفهارس والأثبات (٤٦٠١/٢).

(٩) تاريخ المكتبات (ص ٧٥٢) يتصرف.

(١٠) أصول كتابة البحث العلمي للمرعشي (ص ٧١٢).

(١١) أصول كتابة البحث العلمي يوسف المرعشي (ص ٦١٢).

(١٢) «المغول وحرق مكتبة بغداد» الدكتور راغب السرجاني موقع الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات.

(١٣) «المغول وحرق مكتبة بغداد» الدكتور راغب السرجاني موقع الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات.

(١٤) تاريخ المكتبات ص ٣٣.

بأساتذته.

إني لأتطلع حقيقةً إلى اليوم الذي نتخذ فيه من مدى نجاح المدارس في تحبيب التعلم إلى طلابها معياراً أساسياً في تقييم جودتها ودرجة تصنيفها.

ترسيخ عادات الناجحين:

يشكل النجاح في الحياة عنصراً مهماً في تكوين (الحياة الطيبة) فأمة الإسلام التي تعاني من التخلف في العديد من المجالات في حاجة إلى أن يكون بين أبنائها أكبر عدد ممكن من الناجحين والمتفوقين، كما أن النجاح يُلبّي حاجات عميقة في نفوسنا، مثل تملك القوة، والتقليل من الحاجة إلى الناس، وتأمين متطلبات الحياة، بالإضافة إلى أن النجاح يُجنّبنا تذوق مرارات الفشل.

صفات الناجحين:

- قدرة عالية على التكيف مع الظروف والبيئات الجديدة.
- الاستعداد الدائم لمناقشة الأفكار الجديدة، والتخلي عن وجهات النظر الخاصة إذا ثبت عدم صوابها.
- حبّ المرح والتمتع بحسّ الدعابة مع التفريق بين الجدّة والعبوس.
- يعلم الناجح أنه لا يعلم، ولا يطرح أفكاراً إذا لم تثبت لديه ولا يملك من الأدلة ما يكفي للإقناع بها.
- يحدّد أهدافه بوضوح.
- يقرأ كل يوم، ويحاول قراءة كتاب واحد في الشهر على الأقل.
- يؤجّل رغباته، ويضبط نفسه، ويبادر إلى فعل الخير.

الحفاظ على الهوية الثقافية.

نحن اليوم في عصر الحداثة السائلة، حيث انتهى عصر الأفكار والمذاهب الكبيرة، فنحن نشهد التفكيك لكل ما هو مشترك وجامع، إذ تعمل العولمة

على جعل الشباب ينغمسون في بحار المتعة واللذة واللهو والتسلية والولع الشديد في البحث عن الخلاص الفردي والمستقبل الشخصي... هذه الوضعية تشكل تحدياً غير مسبوق لكل الهويات الثقافية والوطنية، وحين يضعف الانتماء العقدي والوطني؛ فإن الدفاع عن الذاتية الدينية والأخلاقية يصبح في مهبّ الريح.

إن الهوية الثقافية عبارة عن مركّب من المعتقدات والفنون والعادات والقوانين والأعراف التي تمنح الأمة خصوصيتها بين الأمم، وإن عقيدتنا الإسلامية السمحة تشكل عماد هويتنا الثقافية بالإضافة إلى بعض القيم الأساسية، مثل الحفاظ على تماسك الأسرة والوفاء للصديق واحترام الكبير ورعاية حقوق الجار، والوقوف إلى جانب الضعيف والمظلوم...

المواطن العالمي

إنسان تتجاوز اهتماماته

حدود الوطن الذي يعيش

فيه، إنه ينظر إلى بني البشر

جميعاً على أنهم يستحقون

المساعدة والعيش الكريم

والحماية من الفقر والظلم

والمرض

إن من واجب المدارس بناء عقول منفتحة وثقافة رحبة لدى الطلاب، يستطيعون من خلالها التمييز بين الصالح والطالح والغلث والسمين، كما أن عليها أن تجسّد في علاقاتها وأعرافها ونظمها الداخلية كل ما يساعد على تشكيل الشخصية الإسلامية السوية.

المواطن العالمي:

الإسلام رحمة للعالمين، والمسلم معنيّ بهداية العالم، وإيصال رسالة الإسلام إليه، كما أنه مهتم بإعمار الأرض، وازدهار الأوطان ونظافة البيئة، والحفاظ على الموارد التي أتاحها لنا الخالق الجليل.. هذا كله يتطلب من مدارسنا تنشئة جيل يحمل عقل المواطن العالمي وقلبه وروحه.

المواطن العالمي: إنسان تتجاوز اهتماماته حدود الوطن الذي يعيش فيه، إنه ينظر إلى بني البشر جميعاً على أنهم يستحقون المساعدة والعيش الكريم والحماية من الفقر والظلم والمرض، إن الذين يمكن أن يُستثنوا من هذا هم فقط الذين نعدّ أنفسنا في حالة حرب معهم.

نحن في عصر الإنسان المرتجل الذي يولد في بلد، ويتعلّم في بلد، ويعمل في بلد ثالث، وهذا يتطلب من المدارس أن تزوّد طلابها بعدد من المهارات الثقافية، وترسخ في أذهانهم عدداً من المفاهيم والمفردات الأخلاقية التي تساعد على تفهّم التنوع الثقافي والمشاركة في الأعمال مع أشخاص مختلفين دينياً ولغوياً، بالإضافة إلى القدرة على التفاوض وتداول الأفكار، والمشاركة في النقاش، وتفهم الخصوصيات والعادات والتقاليد والأعراف المرعية لدى الآخرين.

هذه المفاهيم والمهارات تحتاج إلى بناء خلفية ثقافية حديثة لدى الطلاب، كما تحتاج إلى تدريب عمليّ واسع عبر الأنشطة المصاحبة للمنهج الدراسي.

من المهم لتكوين المواطن العالمي أن نعتمد في بناء شخصيات طلابنا شيئين أساسيين:

الأول: هو السعي إلى أن يكون العالم بأسره مكاناً أفضل للعيش على نحو

لماذا نعلم؟



د. عبد الكريم بكار

عضو أمناء المجلس الإسلامي السوري

لا شك في أن المناهج والأنشطة المدرسية المتوافرة الآن تساعد على إيجاد الوعي الذي نتحدث عنه، لكن على نحو جزئي؛ وإن لدى بعض المدارس اليابانية تجارب جميلة في هذا الشأن، ولعل ما يلفت النظر منها شيان:

الأول: هو طرح الأسئلة المفتوحة على الطلاب دون انتظار أجوبة على تلك الأسئلة منهم، بغية إيقاظ عقولهم حول بعض المسائل والقضايا المتعلقة ببعض القيم أو بمستقبل البلاد، ومن ذلك مثلاً:

• هل من المناسب إطلاع طلاب المدارس المتوسطة على مرض السرطان؟

• هل استنساخ البشر شيء مقبول؟

• هل من المناسب صرف مرتبات لطلاب المدارس الابتدائية؟

الثاني: ترتيب زيارات لوزراء وقادة وعلماء ورؤساء بلديات ورجال أعمال بارزين للمدارس، وهذا منظم وكثيف لدرجة أن الطالب حين يتخرج من الثانوية يكون قد التقى على الأقل بخمسين شخصية مجتمعية... ويغدو من خلال السماع لتجارهم وآرائهم والنقاش معهم وقد صار على وعي تام بالعديد من جوانب الحياة، كما أن اللقاء بالقادة والناجحين يولد طاقة تحفيزية هائلة لدى الطلاب.

إشعال الرغبة في التعليم:

من المتفق عليه أن المدارس والجامعات -مهما علا شأنها- لا تخرج علماء، ولهذا فإن أنفُس ما تقدّمه لطلابها هو إشعال رغبتهم في المزيد من التعلم وتحبيب القراءة والكتاب إلى نفوسهم، ومن المؤسف أن معظم مدارسنا قد أخفقت في هذا إخفاقاً شديداً، وهذا قد يعود إلى عدد من العوامل، لكن يبدو أن أهمها يكمن في الأسلوب الذي تقدّم به المدارس المعرفة والتجربة لطلابها، وفي نوعية العلاقة التي تربط الطالب

رمزاً لشيئين: الاستقرار والاندماج، وكلاهما ينتج من شيئين: وضوح الرؤية وزوال التناقض من الحياة اليومية للإنسان... هذا يفرض على مؤسساتنا التعليمية التركيز على مجموعة العقائد والمبادئ والقيم التي ترسم خط السير الشخصي للطالب في هذه الحياة، مثل الإيمان العميق بالله تعالى، والعمل للأخيرة والاستقامة والحفاظ على التماسك الأسري، وبرّ الوالدين والرحمة والتعاون، واحترام خصوصيات الآخرين والجدية والمثابرة والشغف بمعرفة الجديد.

إن المعنى السلبي الذي يُقابل الانسجام الذاتي هو (الاغتراب الذاتي) وهو مصطلح يُشير إلى العديد من المعاني السيئة، منها: العجز والعزلة واللامبالاة والاستسلام لليأس والإحباط، وفقد المعايير، وتفكك القيم.

هذه المعاني تشيع لدى كثير من فتياننا وفتياتنا؛ بسبب الخلل الهائل الذي أوجدته الحضارة الحديثة.

تنمية الوعي:

نحن نعيش في واقع شديد التعقيد، وحتى يتخذ الطالب القرارات الصحيحة في حياته يحتاج إلى (الاتصال العميق) بذاته وبمحيطه، وهذا هو (الوعي).

إن تحديد الأهداف والغايات في كل مجالات الحياة هو دائماً شيء جوهري ومهم؛ لأنّ الهدف يشكّل البوصلة لأنشطتنا في المجال الذي نعمل فيه.

إن الهدف الذي ينبغي أن نحدده أولاً هو الهدف النهائي لكل المؤسسات والأشغال التعليمية، وحين نحدد الهدف النهائي يسهل علينا تحديد الأهداف الفرعية، وكل ما يتوسل به إلى تحقيقها.

لو سئلت؛ ما الشيء الذي يمكن أن يكون الهدف النهائي والأكبر لكل العمليات التعليمية، لقلت دون تردد: إنه (الحياة الطيبة) وهذا استلزام لقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: آية ٩٧].

الحياة الطيبة المرادة هنا هي الهناء والسعادة والأمن والاستقرار والنجاح والرخاء، وشعور المرء بأنه ماضٍ في الطريق الصحيح، وعلى هدي عقيدته ومبادئه وقيمه...

مكونات الحياة الطيبة:

الانسجام الذاتي:

يشكل الانسجام الذاتي على نحو عام



أثر الشعوبية في المجتمع العربي المسلم

الأستاذ تميم اليونس - إجازة في الشريعة



للعرب في الحضارة، ومحاولتهم النيل من العرب بإشاعتهم في مسارحهم أن العرب قوم يخبئون ذبولهم تحت عباءتهم الطويلة، ثم نشوء تيارات من المثقفين والأدباء العرب يحترقون قومهم، وينسبون كل خير فيهم إلى اليونان والأمم السابقة، وفيما تلا ثورة الخميني في إيران وما تبعها من محاولة للتسلط على العرب، زادت الحكومة الإيرانية المتطرفة حجم الكراهية للعرب تحت ذرائع مختلفة، مما جعلهم موضوعا لكثير من الهزليات الشعبية في إيران.

وسأعرض في هذه المقالة موجزا عن مبدأ الإسلام، وتكليف الله للعرب بحمله، ما أدى إلى ظهور حملات منظمة للقضاء على العرب ومهاجمتهم من قبل الأمم التي رفضت الإسلام، أو التي خلطته بعصبيتها القومية واستخدمت الدين في خدمة مصالحها الفئوية، وقد خبت هذه الحركة في فترة حكم المماليك والترك، وعادت للظهور بأشرس صورها في عصرنا الحديث، وزادت من هجومها المنظم فيما تلا ثورات الربيع العربي؛ لقتل الأمل في نفوس العرب ومنعهم من التحرك والقيام من جديد.

قانون الاصطفاء الإلهي:

إن الله سبحانه خلق الخلق ونوعه بحكمته، وكما نوع أصناف الخلق فقد نوع خلقه البشر، فمنهم الأحمر والأبيض والأصفر والأسود، وجعلهم شعوبا وقبائل مختلفة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣].

وكان من حكمة الله أن يصطفي من خلقه ما يشاء، فقد اصطفى آدم وذريته وأخلفهم في الأرض، وجعل المخلوقات مسخرة لهم، ثم اصطفى من بني آدم من يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [سورة البقرة:

إن الأمم الكبرى كلها تمر خلال عمرها الطويل في مراحل مختلفة من الانتصارات والانكسارات، والعرب أمة من الأمم التي شرّفها الله وأعزّها بدينه الإسلام، يمرّ عليها ما يمرّ على غيرها من صعود وانحدار... وفيما تلا فترة ثورات الربيع العربي وما تخللها من انكسارات ومؤامرات على الشعوب العربية المسلمة، ظهرت موجة من اليأس والعجز عند الشباب العربي المسلم، ونتيجة لهذا الإحساس بالعجز واليأس ظهرت بعض الأفكار والمقالات والكتابات السلبية، وهذا أمر طبيعي، ولكنه ومع ازدياد كمية هذه المناشير التي تثبط الناس وتقتل الثقة بالنفس وما يتخللها من طعن بالعرب وبالقيم الإسلامية التي يحملونها، يراودك الشك في مصدر هذه الرسائل وتلك المقالات الطويلة المنمقة التي لا تكف عن مقارنة العرب بالغرب، وتدعو إلى الانسلاخ عن الإسلام بحجة أنه المسؤول عن كل ما أصابنا من مصائب.

إن هذه الهجمة المنظمة على العرب وعلى ما يحملونه من ثقافة إسلامية، أو ما يقدسونه من أوامر ربانية؛ تعيد ذاكرتنا إلى تاريخ الحركات المتطرفة التي تبنت القيام بهجمات فكرية خبيثة على الإسلام وحملته من العرب عبر التاريخ الإسلامي الطويل، إذ عرفت تلك الحركات باسم (الشعوبية).

إن ما شاهدناه في القرن العشرين من هجوم على المسلمين عامة، وعلى العنصر العربي خاصة، هو مظهر من مظاهر عودة الحركة الشعوبية التي تهدف إلى الطعن بالإسلام والعنصر العربي، بعدد أصل عناصر الإسلام، وبلغته جاء القرآن الكريم، ودونت السنة النبوية، وألفت علوم الحضارة الإسلامية.

وقد تمثلت الشعوبية المعاصرة في عدة مظاهر، منها: تحميل العرب خاصة مسؤولية سقوط الخلافة الإسلامية؛ من خلال تصويرهم العنصر الخائن، وكلنا نعلم أن سقوطها كان نتيجة لانحياز في الأمة كلها، بكل أعراقها.

ومن مظاهر الشعوبية المعاصرة محاولة الغرب إنكار أي إسهامات

دائم، ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً.

الثاني: هو الاشتمزاز من الظلم والتطيف في المعايير، فالظلم هو أساس لمعظم ما يحل بالبشر من نزاع وعذاب وتشرد.

فترية المواطن العالمي ليست من الترف أو الأمور الكمالية، إنها في الحقيقة جزء من اللياقة الحياتية لدى طلابنا.

النظرة المستقبلية:

من المهم دائماً لطلابنا ليحيوا (حياة طيبة) ألا تقع أسرى لما نعرف، ولما نستطيع فعله، بل علينا التفكير دائماً فيما يجب علينا فعله، ونحن اليوم نرى بأن أعيننا سرعة التطورات الهائلة على كل أصعدة الحياة، مما يوجب علينا أن نعد طالب الثانوي - مثلاً - ليحيا ويعمل، ويبدع في بيئة ستكون موجودة بعد عشر سنوات، وهذا يعني أن على المدارس محاولة اكتشاف وتخيّل المعطيات السائدة التي سيتعامل معها الطالب بعد تخرجه من الجامعة، فيومئذ ستكون على نحو مؤكّد فرص وتحديات لا عهد لنا بها اليوم.

أ - من المتوقع استمرار توفر قدر هائل من المعلومات في كل المجالات، ومن المتوقع كذلك ازدياد إمكانية الحصول عليها، وهذا يعني تراجع درجة الاهتمام بالحفظ، مما يتطلب التركيز على تدريب الطلاب على معالجة المعلومات والتعامل معها، وهذا يقتضي الارتقاء بملكة النقد لدى الطالب، وتنمية مهارات ممارسته، وذلك يتم من خلال تدريبه على التفهم العميق للمعارف التي يدرسها ويطلع عليها، كما يتم من خلال تدريب الطالب على تحليل المعلومات والمعطيات المتوفرة، ثمّ تقويمها وصولاً إلى توظيفها واستثمارها.. ومن المؤسف أن مناهجنا التعليمية بعيدة كل البعد عن ملاسة هذا الأفق كما لا يخفى على المطلّع!

ب - على واضعي المناهج امتلاك البصيرة والمعرفة الكافية لإدراك المؤهلات والمهارات التي يحتاجها الطلاب من أجل دخول سوق العمل، والحصول على وظيفة مرموقة فيه، وإن شيئاً كهذا يتطلب إعداداً فكرياً ونفسياً معيّنًا، كما يتطلب إيجاد اهتمامات وتمليك مهارات محدّدة، ونحن نرى بأن أعيننا اليوم كيف تتجه كل اقتصادات العالم نحو الحاجة إلى الإبداع والمعارف التخصصية، ونحو الاعتماد على المزيد من البرمجة والأتمتة، ومن هنا فإن على المدارس تحفيز الطلاب على إتقان مهارات مثل التعامل مع الشخصيات الصعبة، والتواصل والتعامل مع زملاء العمل، ومثل تعلم أبعاديات صناعة (الروبوتات) وتقنية (النانو) وتعلم أبعاديات (الطاقة المتجددة)، إن العالم كله يتجه نحو تطوير هذه الأشياء بالإضافة إلى تطوير عالم الاتصالات والمواصلات ودمج الذكاء الصناعي في المخّ البشري، وإبداع المزيد من المواد الجديدة...

ت - تدريب الطلاب على التفكير المنهجي والتقييم الموضوعي للمعارف والأفكار والأحداث، وهذا يتضمّن بالطبع التدريب على تحديد الأولويات والأفكار الأساسية في كل مشروع من المشروعات، إلى جانب تدريب الطالب على بلورة أعظم الأخطار والتحديات التي يمكن أن تعصف به.

ث - ستكون الخيارات في المستقبل هائلة، كما أن المغريات والمرفّهات في نموّ مطّرد، وهذا كله يقتضي تعليم الطالب كيف يحيا حياة متوازنة، حيث يكون المطلوب منه القيام بموازنات كثيرة بين المبادئ والمصالح، وبين ما هو عاجل وآجل، وما هو شخصي واجتماعي...

ج - غرس حبّ العمل التطوعي والخيري في نفوس الطلاب وعقولهم

وتدريبهم على ذلك عبر تهيئة الفرصة لهم للانخراط في العمل في بعض المؤسسات الخيرية خلال الدراسة في المرحلتين المتوسطة والثانوية، وهذا كله يتطلب رؤية استراتيجية وتخطيطاً استراتيجياً، وإلا فسنجد أنفسنا دائماً نعلم أموراً وندرب على مهارات صارت في حكم الهامشية أو المنسوخة.

إذا كان ما يحتاجه التعليم العام ممّا ذكرناه كبيراً وملحاً، فإن حاجة (التعليم الشرعي) إلى ذلك أكبر وأشدّ إلحاحاً بسبب عدم وجود جهات عليا ترعاه، وتعمل على تطويره وتحديثه.

والحمد لله ربّ العالمين



إن الحرب السرية المنظمة على الإسلام والعرب بعددهم حكام الدولة الإسلامية الأولى وحماها بدأ منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من خلال عمل فارسي وآخر يهودي أدى إلى اغتيال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبل غلام فارسي، ثم قيام الفتنة على عثمان رضي الله عنه واستمرارها في عهد علي كرم الله وجهه؛ إذ ذهب ضحيتها الآلاف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيه، ومن أبرز من ظهر اسمه في مقتل عمر الأمير الفارسي المسلم الهرمزان، ولولا ما رآه عبيد الله بن عمر من سقوط الخنجر الذي قتل به أبوه من بين أيديهم ل بقي الأمر سرّاً أبداً الدهر لا يعلم به أحد، ومن أشهر من اشتهر بإذاعة الفتنة في زمن علي عبد الله بن سبأ اليهودي، وقد أدت جهودهم المنظمة إلى اغتيال ثلاثة من الخلفاء الراشدين، وكانت كل تلك الاغتيالات تتم بيد أناس مسلمين دخلوا الإسلام نفاقاً كالحرمزان وابن سبأ، أو أدت بهم حماقتهم إلى أن يكونوا أداة بيد قوى منظمة تعمل على هدم الدولة الإسلامية تقتله عثمان رضي الله عنه.

هذا هو حال الحرب السرية على الإسلام في العصر الراشدي، ونلاحظ أن دوافعها إما أن تكون دينية كاليهودية، أو عرقية كالفارسية، وقد استمرت هذه الحركة في العصر الأموي ولكنها ضعفت آثارها على المجتمع بينما كانت تتقد تحت الرماد.

وفي العصر الأموي، وتحديداً في خلافة عبد الملك بن مروان، توجهت الدولة إلى تعريب دواوين الخراج والاستغناء عن المسؤولين الروم والفرس في الدولة؛ إذ لم يكونوا من أهل الثقة أو الأمانة، قال البلاذري في فتوح البلدان: (ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولي عبد الملك بن مروان، فلما كانت سنة إحدى وثمانين أمر بنقله، وذلك أن رجلاً من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئاً، فلم يجد ماء فبال في الدواة، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه، وأمر سُلَيْمَانَ بْن سَعْدٍ بنقل الديوان، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة، ففعل ذلك وولاه الأردن، فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبد الملك فدعا بسر جون كاتبه، فعرض ذلك عليه فغمه وخرج من عنده كثيراً، فلقبه قوم من كتاب الروم، فقال: اطلبوا المعيشة من غير هذِهِ الصناعة، فقد قطعها الله عنكم).

وكان يشرف على ديوان الخراج بالعراق في ذلك الوقت رجل يسمى «زادان فروخ» من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي، وتصادف أن قتل هذا العامل أثناء فتنة عبد الرحمن بن الأشعث بين سنتي ٨٢ و٨٣ هجرية، وهو الأمر الذي سهل على الحجاج تحقيق سياسة الدولة المالية الجديدة الساعية إلى تعريب الدواوين؛ إذ كلف الحجاج رجلاً يسمى صالح بن عبد الرحمن ممن كان يجيد اللغة الفارسية والعربية بتعريب ديوان خراج العراق، وقد حاول «مردان شاه» ابن «زادان فروخ» الذي قتل في فتنة ابن الأشعث أن يدفع رشوة لصالح بن عبد الرحمن حتى يثنيه ويمنعه عن عمله في تعريب الدواوين، وأبى هذا العامل العربي، وأتم عمله بنجاح باهر، وتخرج على يديه نفر

وخفي ما خفي، ومن الحكم الظاهرة ما ذكره الله في كتابه من عاداته في خلقه أن يرسل كل رسول بلغه قومه ليفقهوا قوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم: آية ٤].

ولقد أكد الله سبحانه عريية القرآن حينما اتهم الكفار نبيه بأخذه من بعض الرهبان فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [سورة النحل: الآية ١٠٣].

وقد اختار الله العربية لغة كتابه الخاتم لما فيها من سعة ودقة لا تحويها اللغات الأخرى، قال الإمام الشافعي: (لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً ولا نعلمه يحيط بجميع علمه نبي) (٤) وأشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض من أسرارها فقال: (تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة) (٥)، وصدق في ذلك فقد شهد العجم للعربية كما شهد لها أبناؤها، قال الإمام الزمخشري - وهو خوارزمي ليس له أصل عربي - في مقدمة كتابه (المفصل): (الله أحمده على أن جعلني من علماء العربية، وجبلي على الغضب للعرب والعصبية، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز، وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز، وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلا الرشق بألسنة اللاعنين، والمشق بأسنة الطاعنين)، ويقول المستشرق الإيطالي كارلو نلينو عن اللغة العربية بعد أن تعلمها وسحرته بجمالها: (اللغة العربية تفوق سائر لغات العالم رونقاً وغنى ويعجز اللسان عن وصف محاسنها).

وإن العربية ليست لغة قوم وإنما لغة سماوية يمتاز بها كل من نطق بها وإن كان من أصل غير عربي، حتى نص كثير من علماء السنة على أن العربية اللسان وليست العرق، قال الإمام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط في معرض حديثه عن العرب: (وما ذكرنا من حكم اللسان العربي وأخلاق العرب يثبت لمن كان كذلك وإن كان أصله فارسياً وينتفي عن من لم يكن كذلك وإن كان أصله هاشمياً) وهذه قاعدة مهمة في بيان معنى العرب والعربية، فأفضلية العرب في تمسكهم بدين الله فإن أهملوا ذهب فضلهم.

وقد تحدث الجاحظ حول هذه المسألة أثناء ذكره لعروبة إسماعيل عليه السلام فقال: (وقد جعل الله إسماعيل وهو ابن أعجميين عربياً لأن الله فتق لسانه بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب ثم فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين، ثم حباه من طبائهم - أي العرب - ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأتقهم وهمتهم على أكرمها وأسناها وأشرفها وأعلاها) (٦).

بداية الحركة الشعوبية:

(٤) كتاب الرسالة، تحقيق أحمد شاكر (٤٣).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب طلب العلم، والعلم إذا أطلق علم الدين، رقم (٦٥٥١).

(٦) الجذور التاريخية للشعوبية، للدكتور عبد العزيز الدوري (٨٧).

ويبدو أن هذا الاختيار قد أحدث ردة فعل لدى الشعوب غير العربية فأخذت تبث شكوكها وتكشف عن استيائها، وإن قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، قول صريح وقاطع في الرد على كل من يعترض على حكمة الله في اصطفاؤه لمن شاء من عباده.

وممن اشتهر عنه إنكار الوحي إلى نبي عربي اليهود، وقد ذكر الإمام الرازي وجهين لمحاجة اليهود في نزول الرسالة الخاتمة على نبي عربي عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ١٣٩]، وقال: (اختلفوا في تلك المحاجة وذكرُوا وجوهاً، أحدها: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَوْلَهُمْ إِنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ وَالنَّبُوَّةِ لِتَقْدَمِ النَّبُوَّةُ فِيهِمْ، وَالْمَعْنَى: أَتَجَادِلُونَنَا فِي أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَى رَسُولًا مِنَ الْعَرَبِ لَا مِنْكُمْ وَتَقُولُونَ: لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ لَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، وَتَرَوْنَكُمْ أَحَقَّ بِالنَّبُوَّةِ مِنَّا! وَثَانِيهَا: قَوْلُهُمْ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْإِيمَانِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَبْدُوا الْأَوْثَانَ...).

العرب بين التشريف والتكليف:

وقد كان مع هذا التشريف الإلهي للعرب - باختيار النبي الخاتم منهم - تكليف شاق؛ إذ وقع على عاتقهم تبليغ رسالة الله ونشرها بين الأمم، وقد قاموا بذلك أبما قيام، حتى قضى عشرات الآلاف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآفاق حاملين دين الله ومجاهدين دونه، وقد شاركتهم في هذا الشرف آخرون من غير العرب كالصحابي الجليل سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي رضي الله عنهم أجمعين.

ومهما يكن فقد كان العرب في مطلع الإسلام هم أصل هذه الدعوة وحملتها، حتى قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه موصياً من سيخلفه: (وَأَوْصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ)^(١)، وقد نالوا من الشرف بمقدار ما حملوا من هموم الدعوة والبذل في سبيلها فأكرمهم الله بخيرية هذه الأمة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ النَّاسِ قُرْبِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ»^(٢).

نزول القرآن بالعربية:

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل بين العرب وبلغتهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف: آية ٢]، وقال ربنا سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَكُونُ عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: آية ١٢].

وكان نزول القرآن بلغة العرب لحكم كثيرة ظهر منها للبشر ما ظهر

آية ١٣٠]، وكل ذلك لحكمة إلهية فقد يصطفي الله أفراداً وقد يصطفي أقواماً، وليس اصطفاؤه أقواماً دليلاً على أن كل من فيهم هو أفضل ممن لم يصطفهم؛ إذ مرجع الأفضلية إلى التقوى كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣].

ولقد فضل الله بعض الأقوام على آخرين ببعض النعم والعطايا، كما فضل بني إسرائيل بكثرة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [سورة البقرة: آية ٤٧]، وقد ذكر موسى عليه السلام قومه بنعم الله عليهم فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٢٠]، وعندما عصوا بذي الله حالهم وجازاهم من البلاء بمقدار ما كفروا من النعمة، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ٦١].

اصطفى الله سبحانه من مختلف أعراق بني آدم أناساً صالحين أوحى إليهم بالنبوة أو الرسالة ليبلغوا دينه إلى الناس، وانقطعت النبوة فترة في انتظار النبي الخاتم الذي شاع نبؤه ونباؤه في الكتب السماوية السابقة، وقيل مبعثه كان علماء الأديان يترقبون ظهوره، وكان اليهود لا يشكون في أنه مبعوث فيهم؛ إذ يعتقدون أنهم أبناء الله وأجباؤه، وكان النصارى مثلهم في ذلك.

النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم:

انقطعت الرسالة فترة من الزمن، ثم شاء الله سبحانه أن يرسل نبيّه الخاتم إلى عباده، فنزل أمره على نبي عربي هو سيد الكائنات محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك اصطفاً من الله ونعمة منه على العرب، قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨] (قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها، وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كَنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كَنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»^(١).

إن اصطفاً الله للعرب لحمل الرسالة لم يكن اعتباطاً إنما يرجع إلى أن العرب على استعداد لقبول الرسالة وحملها والدفاع عنها إذ كانوا قوماً أصفياء النفوس لم تتكدر عقولهم بفلسفات الحضارات وجدلياتها.

(٢) قطعة من حديث رواه البخاري في باب قصة البيعة واتفاق الناس على عثمان بن عفان رضي الله عنه، رقم (٧٩٤٣) طبعة البيضا.

(٣) رواه الشيخان وأحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) الحديث رواه مسلم، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (٧٧٠٦) بترقيم المكنز، وقد ذكره القرطبي في تفسير سورة التوبة (١٠٣/٨) دار عالم الكتب.

الإسلامية لترزعزق قاعدة المجتمع وأساسه، وهي تنفذ باسم العقل والمنطق إلى تحوير معنى النصوص والمفاهيم الإسلامية؛ إذ تنتقل إلى التأويل الذي يخرج النصوص من معانيها الإسلامية إلى مفاهيم غريبة بعيدة عن الإسلام^(١٧)، وهم يفعلون ذلك باسم الحرية الثقافية وتحت ستار الفكر المتحرر، ومن ذلك ما عبر عنه أحد الشعوبيين بقوله: (نرفض في الظاهر ما بيننا من العداوة ونظهر موافقتهم ومساعدتهم وندخل في دين محمد ونؤمن به، ثم نفسد عليهم دينهم بلطيف الحيل ونذكر منهم ما لم يمكن إدراكه بالقهر والغلبة)^(١٨).

يقول ابن قتيبة: (وأعاذنا الله من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية، فإنها لفرط الحسد ونغل الصدر؛ تدفع العرب عن كل فضيلة، وتلحق بها كل رذيلة، وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبتهت في الكذب وتكابر بالعصيان)^(١٩).

ولذا نجد الشعوبية تنتهي في كثير من الحالات بالخروج على الإسلام وسلوك طريق الزندقة، فهي تبدأ من التهجم على العرب إلى مهاجمة العربية وتنتهي بالهجوم على الإسلام، وقد أدرك الجاحظ الصلة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة حين قال: (فإن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدل المؤدّي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف والقدوة)^(٢٠).

يقول الدكتور عبد الله السامرائي: (ومن متابعة نشاط الحركة الشعوبية وقفت على أن أهدافها تتركز في ثلاثة أمور أساسية متداخلة: تشويه مبادئ الإسلام وهدمها من الداخل بكل الأساليب، ومحاربة الأمة العربية والعمل على إزالة سلطانها وتشويه حضارتها، من أجل إعادة السلطة وإحياء الحضارة الإيرانية)^(٢١).

وقد عادت الشعوبية بقوة في العصر الحديث بعد تولي الثورة الإيرانية مقاليد الحكم ودعوة الخميني إلى تصدير الثورة الإيرانية إلى الدول المجاورة، وما رافق ذلك من خطاب طائفي وإذكاء للنعرات الطائفية والمذهبية بين شعوب المنطقة.. يقول الدكتور صبري محمد خليل: (ورغم أن هذه الشعوبية التاريخية قد خفتت في مراحل تالية، إلا أنها استمرت في الظهور عبر تاريخ إيران رغم تغير الأنظمة السياسية الإيرانية)، ثم يقول مبينا غاية الشعوبية المعاصرة: (كما تقوم الشعوبية في الأمة العربية المسلمة على الدعوة إلى إلغاء أربعة عشر قرناً من التاريخ أوجد فيه الإسلام للعرب أمة ليعودوا إلى الشعوب السابقة على الفتح الإسلامي..).

أما الشعوبية الدينية فكانت منظمة لها أساليبها الخاصة في العمل وتنظيماتها المحكمة في إعداد الدعاة والاتصال بالناس، وعلى الرغم من أن الشعوبية العنصرية لم تكن منظمة تنظيمياً يحدد معالمها وأساليبها ويوحدها في حركة واحدة، فإن الشعوبية العنصرية كانت تستتر بالإسلام وتعمل على تحقيق أغراضها من خلال التظاهر بالولاء القبلي والولاء السياسي^(٢٢).

وتحاول الشعوبية طمس الذات العربية وقطع الجذور تاريخياً وثقافياً وتفتيت الوحدة، فتبدأ بمهاجمة الأنساب العربية القديمة، وتهاجم العرب القدماء، وتظهرهم بمظهر التآخر والهمجية وتسخر من ثقافتهم، وتشكك في شعرهم بما تدخله فيه من انتحال، وتهاجم العربية، وهي بعد ذلك تهاجم المروءة العربية بما فيها من فروسية وكرم ووفاء وفصاحة، وهي تندد بالمثل الخلقية وبالقيم العربية الإسلامية، وتذهب إلى التحلل، وتنزع إلى المجون، وتدعو إلى نظرات اجتماعية وخلقية تتعارض كلياً مع القيم العربية الإسلامية، والشعوبية تفعل ذلك باسم الظرف والحضارة وتبجح بدعوى الحرية الاجتماعية، وهي تدرك أنها سبيل فعال لتفكيك الروابط وإضعاف الكيان الاجتماعي.

ثم تأتي الشعوبية إلى العرب والإسلام فتكر دورهم في حمل الرسالة الإنسانية، وتحاول طمس دورهم الحضاري، فتدعي أن الحضارة العربية الإسلامية ما هي إلا اقتباسات من الأعاجم.. تريد بذلك زعزعة الثقة بالذات، وصرف الانتباه إلى الثقافات الأعجمية، وهي تفعل ذلك في وقت تحاول فيه إحياء التراث الأعجمي وتمجيد الآثار الأعجمية، وتعمل على بثها في المجتمع العربي الإسلامي، وعلى تحويله عن ذاته، وتريد بعد هذا أن تطبع الإدارة والحياة العامة بطابع أعجمي، فتترجم الكتب عن الفارسية في المراسيم والعادات وشكل الحكم والأخلاق، وتضع كتباً ورسائل تنسبها للقدماء وتعمل على بثها وترويجها^(٢٣).

واتخذ هؤلاء سبلاً مختلفة، منها: إكثارهم من الترجمة عن الفارسية في موضوعات تتصل بصميم الذات الفارسية كالآداب والتاريخ والتقاليد والمثل، وقد شهد العصر العباسي ترجمة واسعة عن الفارسية، وهي مستقلة عن حركة الترجمة التي تبناها الخلفاء، ومن أمثلة هذه الترجمات «خداينامه» أو «سير ملوك الفرس» وهو كتاب ينطوي على كثير من الأساطير والمواعظ والتمجيد، ويغلب عليه عنصر القصة والأسطورة، ومنها «الآيين نامه» وهو يتضمن أدباً ومثلاً أخلاقية مجوسية لا تألف والمفاهيم الإسلامية، وقد ترجمه ابن المقفع^(٢٤).

وسلكت الشعوبية سبلاً متعددة بين ظاهر ومستور، ولكل منها أثرها وخطرها الخاص، فهي تريد أن تربك العقائد وتشوه المفاهيم

(١٧) الجذور التاريخية للشعوبية للدكتور عبد العزيز الدوري (٤٩).

(١٨) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية للدكتور عبد الله السامرائي (٣٤).

(١٩) الجذور التاريخية للشعوبية للدكتور عبد العزيز الدوري (١٥).

(٢٠) كتاب الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار الجيل ٦٩٩١ (٧/ ٢٠٢٢).

(٢١) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية للدكتور عبد الله السامرائي (٧).

(١٤) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية للدكتور عبد الله السامرائي (٧).

(١٥) الجذور التاريخية للشعوبية، د. عبد العزيز الدوري (٤٩).

(١٦) الجذور التاريخية للشعوبية للدكتور عبد العزيز الدوري (١٥).

من كبار موظفي المالية العرب في العراق.

أحد أسوأ الأمراض الاجتماعية في القرن الثاني والثالث الهجري.

انتشار الشعوبية:

وقد انتشرت الشعوبية بين المسلمين الفرس، لأنهم أول من دخل في الإسلام من غير العرب، وفيهم طائفة لم تقبل ما صار عليه حال قومهم من الدخول في الإسلام، فغرموا على إشاعة الكراهية والفتنة بينهم، ثم ظهر شعوبيون هنود وأتراك ومن مولدي الأندلس، يقول الجاحظ في رسالته فخر السودان على البيضان: (إن الشعوبية لم تكن تشيع بين الفرس فحسب، وإنما طالت بقية الأمم كالأندلسيين والزنج من أهل أفريقيا واجتمعوا وهؤلاء على العدا للفرس والاستطالة عليهم والخط من شأنهم).

لقد امتدت ساحة المواجهة بين المسلمين العرب من جهة والشعبية من جهة أخرى على رقعة واسعة من الحجاز إلى خراسان عبر بلاد العراق، كما تمثلت في بلاد الشام واليمن والعراق معرجة إلى شمال إفريقيا والأندلس وفي مناطق أخرى حيث يقيم الموالي^(١٠).

أعمال الشعوبيين بين القديم والحديث:

يؤكد بعض المؤرخين أن حادثة اغتيال أبي لؤلؤة المجوسي للخليفة عمر بن الخطاب كانت أولى الأعمال العدائية للحركة الشعبية انتقاماً للدولة السامانية التي قُهرت في عهده^(١١).

وقد تزاوجت شعوبية اليهود مع شعوبية الفرس في صدر الإسلام وكان من روادها اليهودي اليمني عبد الله بن سبأ^(١٢).

وانتقاماً من العرب تحالفوا مع القوى الأجنبية المعادية للإسلام والمسلمين كتتحالف الطوسي وابن العلقمي مع هولاءكو والمغول، وكان لهذا التحالف امتداد في العصر الحديث حين تحالف الإيرانيون مع بوش لإسقاط صدام حسين وإقامة دولة فارسية في العراق على أنقاض الدولة العربية^(١٣).

مظاهر الشعوبية:

عملت هذه المقاومة الشعبية في مجالين كما بين ذلك الدكتور عبد الله السامرائي:

١- مقاومة قامت في وجه الإسلام واستهدفت محاربه وتشيويه مبادئه بكل الأساليب، وقد تمثلت هذه المقاومة بحركتين كبيرتين هما حركة «الغلو» وحركة «الزندقة» ويطلق عليها المقاومة الشعبية الدينية.

٢- وثمة مقاومة أخرى استهدفت الطعن في العرب وتشويه حضارتهم وهدم سلطاتهم وتفضيل الشعوب الأخرى عليهم، ويطلق على هذه المقاومة الشعبية العنصرية.

إن اعتماد الأمويين العربية لغة رسمية في الدواوين وسك العملة وإخراج الموظفين الروم والفرس والأقباط وغيرهم من هذه الوظائف؛ أدى إلى الحد من أطماعهم في الترقى في وظائف الدولة المسلمة والمشاركة فيها، فامتثلوا حقدًا على العرب، وقد أضاف الأمويون إلى تعريب العملة والدواوين اقتصارهم في الولايات والمناصب الكبرى على العرب خاصة، مما زاد حقد الأقوام الأخرى على العنصر العربي وعلى دينه الإسلام، ولم يعد هناك فرق بين كلمة عربي ومسلم حتى غدت كلمة (عربي) مرادفة لكلمة (مسلم) فقد اعتذر دهاقين بخارى من قلة الضرائب فكاتبوا إلى والي أشروس يقولون له: (ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً) أي أصبحوا مسلمين^(١٤).

لقد كانت الشعوبية في هذه الفترة تنفذ تحت الرماد، وقد وجد الفرس الحاقدين على بني أمية متنفسه في الدعوة العباسية، فأيدها قسم منهم نكاية بالدولة الأموية التي صبغت الحياة كلها بالصبغة العربية ومنعتهم من الإمارات والولايات، وقد حاول هؤلاء فيما بعد وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني أن يعلنوا عن مطامعهم ويحولوها إلى دولة، ولكن العباسيين كانوا لهم بالمرصاد.

الشعوبية في العصر العباسي:

إن إطلاق اسم «الشعوبية» على الحركات التي تحض على كراهة العرب كان في العصر العباسي، حيث ظهر العداء للعرب في أجلى صورته بعد منع بني العباس مؤيديهم الفرس من السيطرة على قيادة الدولة الإسلامية، وقد ظهرت لها بعد تلك الفترة تعريفات عدة؛ إذ غدت لفظة شعوبي عرفاً على من يكره العرب، سواء كان شعوبي مسلماً أو غير مسلم، يقول البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق: (الشعوبية: الذين يرون تفضيل العجم على العرب ويتمنون عودة الملك إلى العجم)، ويقول الإمام القرطبي: (الشعوبية تبغض العرب وتفضل العجم) وأما اللسان فيعطي تعريفاً واضحاً للشعوبية حين يقول: (الشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم)^(١٥).

وقد أسمى الشعوبيون حركتهم في بدايتها بحركة (التسوية) أي بين حقوقهم وحقوق العرب، تلك التي تبدلت تدريجياً إلى حركة تفضيل العجم على العرب، قال المفكر الإيراني علي شريعتي: (تحولت الشعوبية تدريجياً من حركة تسوية إلى حركة تفضل العجم على العرب، وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة)^(١٦).

ومن أشهر من تكلم عن الشعوبية وأظهر ملامحها الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، حيث تعرض لها في كثير من مؤلفاته، مما يدل على أنها أصبحت

(١٠) الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية للدكتور عبد الله السامرائي (٦).

(١١) من مقال على الإنترنت بعنوان استنهاض الشعوبية ودرء المد القومي العربي لرائية المدهون.

(١٢) من مقال الشعوبية في العصر الحديث من موقع شبكة البصرة عام ٢٠٠٢.

(١٣) من مقال: الشعوبيون الجدد، للدكتورة حسناء عبد العزيز القنيعير، عبر الانترنت.

(٧) كتاب الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية للدكتور: عبد الله سلوم السامرائي، (٣٣).

(٨) الجذور التاريخية للشعوبية للدكتور عبد العزيز الدوري (٩٤).

(٩) من مقال بعنوان الشعوبية على الشبكة العنكبوتية باسم المعرفة spth://gro.aferam.ww شعووية.



غرابي عبد الحدي غرابي
ماجستير في العقيدة الإسلامية
مدرس في جامعة تراكيا - أدرنه

مَفْهُومُ الحضارةِ وشروطُها عندَ مالِكِ بنِ نبيٍّ

تمهيدٌ:

يُعَدُّ ابنُ نبيٍّ أحدَ أهمِّ علماء الاجتماع -بعد ابن خلدون- الذين درسوا نشوء الحضارات ونهوضها والأمراض التي تصيب حضاراتها من منطلق استطلاعيٍّ رصين، إلا أنه كما لم يغدُ ابن خلدون ظاهرةً في البلاد الإسلامية في زمنه؛ فإن ابن نبيٍّ قد ناله المصير ذاته، وعلى الرغم من شهرة الرجلين وتداول كتبهما إلا أن المؤسسات الرسمية لم تُولِ أطروحتيهما في دراسة المجتمعات الإسلامية كبير اهتمام، ولم تسعَ إلى تناول قراءتيهما بالدعم والمراجعة والتبني.

مفهوم الحضارة:

تشير المراجع اللغوية إلى أن الحضارة مأخوذة من مادة (حَضَرَ) والتي تفيّد الإقامة في الحَضَر وتضادّ الإقامة في البادية^(١)، إلا أن ابن خلدون يشير في مقدّمته إلى أن العمران البدويّ أصلُ العمران الحضريّ، فجعلَ طور البداوة السابق على الحضَر أصلاً له^(٢)، أما الحضارة في الرّؤى المعاصرة فتطلق على معنيين، أحدهما موضوعيٌّ مشخّص، وثانيهما ذاتيٌّ مجرد، ويقصد بالحضارة بمعناها الموضوعيِّ جملة مظاهر التّقدّم الأدبيّ والفنّيّ والعلميّ والتّقنيّ؛ إذ إنّ مزيّة هذه المظاهر انتقالها من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو

مجتمعات متماثلة، فيقال: الحضارة الأندلسية أو الإسلامية أو الهندية مثلاً، فتتخصّر الحضارة ههنا بنطاقها الجغرافي ولغاتها المحليّة، أمّا الحضارة بمعناها الذاتيّ المجرّد فتطلق على مرحلة التطوُّر الإنسانيّ المقابلة لمرحلة التّوحُّش، أي إنّ الحضارة ههنا تعرّف بمعناها الغائيّ فلا مشاحة في إطلاقه على أيّ حضارة وإن اختلفت حدود الزّمان والمكان لاشتراكها في عناصر مُتّحدة، وقد ترادف الحضارة مفردة الثقافة، إلا أنّهما لا يدلّان على مدلول واحد، فالثقافة تطلق عند بعض المفكرين على تنمية العقل بالفكر، بينما يطلقها آخرون على نتيجة هذه التّنمية، ويقصد بها علماء الأنثروبولوجيا -من طرف آخر- كلّ مظهر من مظاهر الحياة سواء كان المجتمع في حالة التّخلف أو التّقدّم، في حين أنّ الحضارة تُطلق عندهم على منتجات المجتمعات المتقدّمة^(٣)، وما يهْمُنّا في هذا المقام إدراك مفهوم الحضارة عند ابن نبيٍّ وأثر هذا المفهوم في رؤيته لنهضة الحضارة وأفولها.

مفهوم الحضارة عند ابن نبي:

توزّعت بحوث ابن نبي عن الحضارة في العديد من كتبه ومقالاته التي أطرها بسلسلة «مشكلات الحضارة» التي شغلت حيّزاً كبيراً من مشروعه الفكريّ، وذلك كما في

(١) ينظر لسان العرب، جمال الدين، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، مادة: حضر.

(٢) ينظر مقدمة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، أو ما يعرف بتاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٨٩، (ج١/ ٢٥١-٣٥١).

(٣) ينظر المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ط، ٢٨٩١، (ج١/ ٥٧٤-٧٧٤) وينظر المعجم الفلسفي، د. مراد وهبة، دار قباء، القاهرة، ٧٠٠٢، (٥٨٢) مادة "الحضارة".

لكانوا من الخمس أو السبع الأوائل، وإن كانوا يملكون بظروف استثنائية مزعجة فهذه سنة الحياة.. لكن الاستهزاء بهم وجلد الذات، وإظهارهم على أنهم أمة الجنس والطعام والتفاهات؛ أمر لا يقبله عاقل، فهذه الفئة من الناس موجودة في غيرنا من الأمم أكثر مما هي عندنا، وإن كثرة المناشير المسيئة لأمتنا تؤدي إلى سلبية أكثر وإلى ضرر أكبر على النفسية العربية، ومن يقرأ التاريخ يعلم أن لا شيء يدمر الأمة مثل فقدان الثقة بالنفس والأمل.. لهذا كشخص عربي أشعر بالألم عندما يرسل لي أحدهم واحدة من تلك المقالات المسيئة التي تقتات على الاستياء العام للشعوب العربية وتغذيه، وأدعو أصدقائي إلى زجر من يشيع مثل هذه المقالات بدل تأييده، ولنشغل أنفسنا بالعمل ولنكف عن السلبية فقد قال الرسول ﷺ: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم»^(٢١) وأنتم يا أيها الدعاة العابرة والمفكرون اليائسون! يا من ترون أنفسكم في عالية لا يبلغها بنو قومكم وتكبرون على أوجاعهم وتسخرون من آلامهم؛ إن كنتم لا تثقون بأمة عربية يبلغ تعدادها مئات الملايين وتشكل جزءاً أساسياً من أمة المليار ونصف، ولا تزال رغم سقوط دولتها منذ أكثر من مئة عام في تقدم مستمر... فاعتزلوا الناس والتزموا الصمت؛ يكن ذلك خيراً لكم وللعالم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(٢٢).

وأختم بقول الإمام أحمد في بيانه عقيدة أهل السنة: (ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فإن جبههم إيمان وبغضهم نفاق)^(٢٣)، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالى الذين لا يحبون العرب ولا يقرون لها بفضل فإن لهم بدعة ونفاقاً وخلافاً^(٢٤).

خاتمة:

إن الشعوبية حركة قديمة حديثة، وعلى الباحثين المسلمين أن يدرسوها دراسة دقيقة ليوصلوا المجتمع المسلم إلى اكتشاف ظواهرها ومخططاتها في تدمير المجتمعات المسلمة عبر بث الفتن بينها وبين العرب، وتشويه الإسلام من خلال تسليط الضوء على مشاكل العرب الاجتماعية ونسبتها إلى الإسلام.

ومن الواجب علينا أيضاً؛ تعريف الباحثين العرب بهذه الحركة وأهدافها، حتى ينتبهوا إلى أنفسهم فلا يكونوا ضحية لها من حيث لا يشعرون... والله المأمول أن يرشدنا إلى الصواب، والبعد عن مواطن الزلل والفتن ما ظهر منها وما بطن، والحمد لله رب العالمين.

ولا يخفى ما للكيان الصهيوني من دور في بعث الشعوبية من جديد وإذكاء نارها، فيقول الدكتور مينا دور الكيان الصهيوني في إظهار الشعوبية المعاصرة: (وفي هذا السياق فقد أثبت اكتشاف شبكات التجسس الإسرائيلية في العديد من الدول العربية استهداف إسرائيل للأمن القومي العربي بكل أبعاده السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية.. ويضاف إلى هذا كله مجموعة ضخمة من مراكز الدراسات والأبحاث التي تسهم أيضاً في أعمال التجسس والتخريب والتشجيع على الانقسامات والفتن داخل العالمين العربي والإسلامي.. وتعتمد الموساد ومراكز الأبحاث المشار إليها على مجموعة من النظريات والمخططات التي ترمي في آخر المطاف إلى تفتيت المجتمعات العربية عبر إثارة الفتن وتأجيج حالة التمرد والعصيان والتنازع، وذلك من خلال الاستعانة بالجماعات الإثنية والطائفية والمذهبية التي تعيش حالات من التذمر والغضب والنزوع نحو الانفصال والتقسيم)^(٢٥).

ولا بد من الانتباه إلى أن الشعوبية الحديثة تتخذ اليوم مظاهر مختلفة وتلبس ملابس شتى، منها:

١- الدعوة الحارة إلى إحياء اللهجات العامية المحلية وهجر اللغة العربية الفصحى، وقد تنادي بإحلال اللاتينية محل الحروف العربية والانصراف عن قواعد النحو والإعراب وترك الشعر التقليدي ذي الوزن الخليلي.

٢- الدعوة إلى التفريق بين العقلية وعميق الفروق بينها في الدراسات والبحوث، وربط المبدعين العرب بشتى ألوان العلوم والفنون بغير الأصل العربي ورده إلى أصول آرية أو إلى أصول غير عربية.

٣- إشاعة فكرة الرفض التي تتبنى رفض الماضي، ورفض الكتب الصفراء، ورفض التراث، ورفض كل اعتزاز بمجد تليد بحجة التطلع إلى الأمام؛ احتذاء بأهم أخرى تختلف ظروف حياتها عن ظروف الحياة العربية حاضراً وماضياً ومستقبلاً.^(٢٦)

الشعوبية وثورات الربيع العربي:

لقد تعالت أصوات الشعوبية أيضاً مع بدايات ثورات الربيع العربي فكانها وجدت في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأمة فرصة لتحقيق مآربها وأطماعها.. وتأثر بها كثير من المثقفين والأكاديميين العرب، من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فأصبحنا نرى الاستخفاف بالعرب، وتصويرهم بمظهر الإفلاس الحضاري والفشل الاجتماعي، كما لم نعهده من قبل.

(والحقيقة أن العرب أمة من الأمم مثلهم مثل غيرهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، بل لو قيسوا بأكثر أمم الأرض تحضراً وتقدماً

(٢٢) الموقع الرسمي للدكتور صبري محمد خليل خيرى من مقاله المعنون بـ (الشعوبية التاريخية والمعاصرة من منظور نقدي إسلامي).

(٢٣) مجلة رابطة الأدب الإسلامي العالمية من مقال بعنوان بين شعوبية القدماء وشعوبية المعاصرين، للدكتور بكرى شيخ أمين.

(٢٤) رواه مسلم، باب النهي عن قول هلك الناس، رقم (٥٥٨٦) بترقيم المكنز.

(٢٥) من مقالات منشورة على الإنترنت للأستاذ محمد علي النجار، وحديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٦) حديث «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق»، رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم (٥٩٤١) والحاكم في المستدرک، رقم (٨٩٩٦).

(٢٧) عقيدة الإمام أحمد رواية أبي بكر الخلال، دار قتيبة ٨٠٤١ - ص (١٨)

دامت هذه الفكرة مستمرة في التركيب بين هذه الفئات الثلاث فإنها ستبقى متمية إلى كتلة بناء الحضارة في التاريخ^(١٦)، أما إذا صار الإيمان بالفكرة محض جذب فردي، فإنه سيفقد إشعاعه، وستنتهي رسالته التاريخية لعجزه عن دفع الحضارة وتحريكها^(١٧).

عناصر الحضارة عند ابن نبي:

تركّب الحضارة من عناصر متعدّدة، إلا أن عناصر تركيب الحضارة ليست منتجات حضارية بالضرورة، بل هي أصول تفرضها طبيعة المنتجات وشروط الإنتاج^(١٨)، ومن هنا فإن ابن نبي يسعى إلى تحليل وافٍ لعناصر الحضارة، داعياً إلى تناول المسألة كما تتناول المختبرات التحليلات والتفاعلات الكيميائية^(١٩)، وقد توصل بعد طول بحث إلى أن عناصر البناء الحضارية محصورة بالمعادلة الآتية: (منتوج حضاري = إنسان + تراب + وقت)^(٢٠)، ومجموع المنتجات الحضارية بالضرورة ناتج عن مجموع إنسان ومجموع تراب ومجموع وقت^(٢١)، ومهما تكدّست المنتجات الحضارية فلا يشي ذلك بوجود حضارة حقيقية، لتأكيد المستمر على فهم الحضارة بناءً مركّباً يشمل العناصر الثلاثة فقط مهما بلغت درجة تعقيد هذا البناء^(٢٢)، كما يلتزم مالك في أبحاثه عن بناء الحضارة وشروط انطلاقتها بمحورية الإنسان (فرداً ومجتمعاً) فيها؛ إذ يعدّه المحور الرئيس في أي مشروع حضاري، فهو البداية والغاية، كما أن قوة فكره أو مرضه دليل على قوة حضارته وضعفها؛ إذ إن جميع الأعراض التي ظهرت في السياسة أو في صورة العمران لم تكن إلا تعبيراً عن حالة مرضية يعانها الإنسان الجديد الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي كان يحمل في كيانه جميع الجرائم التي سينتج عنها في فترات متفرقة المشاكل التي تعرّض لها العالم الإسلامي منذ ذلك الحين، فالتقائص التي تعانها النهضة الآن، يعود وزرها إلى ذلك الرجل الذي لم يكن طليعة في التاريخ^(٢٣).

إنّ التراب لا يكون عامل حضارة إلا بتهيئته مادة المنتجات الاجتماعية، وكذا الوقت، فلا يكون عنصراً في بناء الحضارة إلا إذا تكيف مع المجتمع فأصبح زمناً اجتماعياً تجري فيه عمليات الصناعة ونهضة الاقتصاد والثقافة^(٢٤)، ويضاف الدين إلى هذه العناصر ليكون المركّب الأساس فيما بينها، ومن

تولّد العلاقة الاجتماعية وتنشئها، وهي ما يربط بين الإنسان والإنسان، فستطيع بذلك النظر إلى العلاقة الاجتماعية والدينية تاريخياً على أنها حدث، ومن الوجهة الكونية على أنها تطوّر اجتماعي واحد^(٢٥)، فبضعف العلاقة الدينية تضعف الشبكات الاجتماعية وبقوتها تقوى.

ولعل أهم آثار هذه الفكرة عند ابن نبي فهم العلاقة بين قوة «الفكرة الدينية» وضعفها أثناء نشوء الحضارة وتطورها أو أفولها؛ فيتجلّى ذلك في انتقال العقل بسبب قوة الروح من مرحلة الخمول إلى النهوض وملء مجالات الحياة بالفنون والعلوم والصناعات، إلا أنه لضعف الروح أمام نهضة العقل تخرج الغرائز عن السيطرة وتسرب من المنافذ التي تتيحها المادة فيتاح لها التمدّد إلى أن تصل إلى مرحلة التغوّل في مواجهة «الفكرة الدينية»، فتتوقّف آثار هذه الفكرة في المجتمع وتدخل الحضارة ليل التاريخ مُمّةً بذلك دورتها^(٢٦).

إنّ الفكرة (الدينية/ المعنوية) التي مثّلت مبعث الحضارة الإسلامية الدين الإسلامي، حيث بدأت دورته بنزول القرآن وتغلغل مبادئه في نفوس المؤمنين به، فشهدنا بعد ذلك حياة المثل العليا، كما شهدنا ظهور علوم جديدة وحركة فكرية لا تضاهي، إلى أن ظهرت حياة الترف وحبّ العظمة، فبدأت شمس الحضارة تأفل رويداً رويداً.

” يلتزم مالك في أبحاثه عن بناء الحضارة وشروط انطلاقتها بمحورية الإنسان (فرداً ومجتمعاً) فيها؛ إذ يعدّه المحور الرئيس في أي مشروع حضاري ”

ولعل أهم ما نستخلصه من كلام ابن نبي عن «الفكرة الدينية» وأثرها في بناء الحضارة كون الدين العامل الأساس الذي يعدّ السرّ الكوني المركّب بين ثلاثية (الإنسان والتراب والوقت)، والباعث لها بقوة فعالة في التاريخ^(٢٧)، فيشكل الظواهر والقيم والمبادئ الاجتماعية^(٢٨)، والحضارة من هذه النظرة الفاحصة لا تقوم إلا في ظل وجود شبكة من العلاقات الاجتماعية التي تشكل الميلاد الحقيقي للمجتمع في التاريخ وبداية إنجازها التاريخي على ضوء «الفكرة الدينية»^(٢٩)، وما

(١٦) ينظر المصدر السابق نفسه.

(١٧) ينظر المصدر السابق، (١٠١-٤٠١-٥٠١).

(١٨) ينظر ميلاد مجتمع، (٤٧).

(١٩) ينظر وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ٥٨٩١.

(٢٠) ينظر تاملات، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، د. ط.

(٢١) ينظر المصدر السابق، (٨٩١).

(٢٢) ينظر وجهة العالم الإسلامي، (٦٣).

(٢٣) ينظر آفاق جزائرية، (٤٧).

وفرة المنتجات الفكرية والمادية وتكديسها؛ إذ إن ذلك يتخيم المجتمع بالشيئية ويسلبه طاقة القيام ويوقعه في خانة التبعية والاستهلاكية، بينما الأمر على النقيض من ذلك؛ لأن للحضارة قدرة على البناء والإبداع وصناعة الأطر الملائمة لذلك، ضمن رؤية شاملة للوسائل والأهداف.

ويتكوّن مفهوم الحضارة عند مالك من عدة محاور تركز على انسجام الجهود الإنسانية وتكاملها مع قوانين النهوض المادي والمعنوي وجملة الشروط الخاصة بالنمو والازدهار في شتى المجالات الفكرية والروحية والاقتصادية والمادية في الواقع المعاش^(٧)؛ إذ الغاية من تاريخ الإنسان السير بركب التقدم إلى أفضل أشكال الحياة الرّاقية^(٨)؛ ومن ثمّ تتطلّب عملية بناء الحضارة أسساً فكرية معيّنة وجهوداً في عالمي الأشخاص والأشياء، ولكن ذلك لا يتم إلا في صورة برنامج تربوي يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معيّنة، حتى يتمكن من أداء وظيفته الاجتماعية ويحقق بناء المجتمع المتحضّر^(٩).

انقداح الحضارة وأثر الفكرة الدينية فيها:

لم يغفل ابن نبي في نقاشاته وأبحاثه أهميّة الدين في بناء الحضارة، فعده أساس تحريك عجلة التاريخ ونقطة البداية في بناء صرحها؛ لأثره في حركة التاريخ ودوره في حياة الأفراد والمجتمعات... ويستند مالك في رؤيته هذه على وجود عناصر الحضارة المادية في عامّة الأمم، وحاجتها لاستثمار هذه الشروط والتأليف بينها إلى المحرك أو القادح الذي ينسج عملية البناء والتركيب فيما بينها، ويختار ابن نبي -في هذا الإطار- «الفكرة الدينية» محرّكة الحضارة وموقدة انطلاقها، ولعلنا نجد تأسيساً لهذا الإطار عند سابقه كـ ابن خلدون في نظريته عن «العصبية» وتوينبي في نظريته عن «التّحدي».

إنّ «الفكرة الدينية» التي تقف خلف النهوض الحضاري لا تقتصر على مجتمع دون آخر، فسواء كنّا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أو المجتمعات التي اختفت من الوجود فإننا نستطيع أن نقرّر أن الفكرة التي غرست أثرها في حقل التاريخ ناتجة عن فكرة دينية^(١٠).

ولعلّ مردّ هذا عائد إلى أنّ العلاقة الروحية بين الله والإنسان

«شروط النهضة» و«مشكلة الثقافة» و«وجهة العالم الإسلامي» و«ميلاد مجتمع» و«آفاق جزائرية» وغيرها، معتمداً العمق في التحليل والاستفاضة في البحث للوصول إلى إبداع نظرية متكاملة في فهم الحضارة وأسباب نشوئها ومشكلاتها التي تعترضها فتؤدّي إلى أفولها.

بدايةً يشير ابن نبي إلى أنّ الحضارة بما يتعارف عليه علماء الأنثروبولوجيا تعني «كل شكل من أشكال تنظيم الحياة البشرية»^(١١)، ولا يخلو هذا التعريف من تعميم مُخل؛ إذ لا يخلو أيّ مجتمع من هذه الأشكال وإن تدنّى مستواها، لينطلق ابن نبي في حفراته في صياغة مفهوم للحضارة من خلال بروز المفاهيم التي يتوصّل إليها مع المجتمعات التي تعاني مصاعب التخلف والضعف والقابلية للاستعمار، مستنداً إلى فرضية عدم إمكان التوصل إلى بناء هذا المفهوم إلا بدراسة هذه المجتمعات، فالحضارة تتبع ظروف المجتمع المتخلف وهي أدوات التي تعطيها القدرة على النمو، فتكون بذلك مجموع الشروط المادية والأخلاقية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في أطوار وجوده المساعدة الضرورية له^(١٢)، فيكون مفهوم الحضارة بذلك مستنداً إلى ظاهرة مركبة ترتبط بالفرد فكراً وتعاملاً.

”الفكرة الدينية» التي تقف خلف النهوض الحضاري لا تقتصر على مجتمع دون آخر، فسواء كنّا بصدد المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسيحي أو المجتمعات التي اختفت من الوجود فإننا نستطيع أن نقرّر أن الفكرة التي غرست أثرها في حقل التاريخ ناتجة عن فكرة دينية

لقد انطلق ابن نبي في دراسته لنشوء الحضارة من عدة جوانب، كبنية الحضارة وعناصر تركيبها، إضافة إلى وظيفتها التي تتعمّق في فهم الغاية التي تؤدّيها بنظّمها في المجتمعات التي تنتشر أفكارها فيها؛ ليتوصّل في النهاية إلى تحليل طرق نشوء الحضارة وتطوّرها وغايتها الرسالية التي تحقّقها^(١٣)؛ لنخلص إلى أنّ الحضارة ليست عبارة عن

(٧) ينظر البناء الحضاري عند مالك بن نبي، د. جيلالي بوبكر، دار المعرفة، الجزائر، د. ط، ت، (٨٣).

(٨) ينظر ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ٤٧٩١، (٦١).

(٩) ينظر مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، محمد عبد السلام الجفاري، الدار العربية للكتاب، تونس، ٤٨٩١، د. ط، ٥٢١، ويقارن بالمصدر السابق، (٩٣).

(١٠) ينظر ميلاد مجتمع، (٢٥).

(١١) آفاق جزائرية، مالك بن نبي، مكتبة النهضة الجزائرية، د. ط، ت، (٠٣).

(١٢) ينظر المصدر السابق، (٧٤، ٦٤)، وينظر الظاهرة الغريبة في الوعي الحضاري، د. بدران بن الحسن، سلسلة كتاب الأمة، العدد ٣٧، ط ١، ٠٠٠٢، (٩٦، ٠٧).

(١٣) في مفهوم الحضارة، د. بدران بن الحسن، مجلة نوافذ: اتجاهات فكرية، ٥٢ / ٢١ / ٣٠٠٢.

من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل



عبيدة خالد عبد القادر

ماجستير في الحديث النبوي الشريف

إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رُسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا [النساء: آية ١٧١ و ١٧٢]

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة: (ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصراني، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ [سورة التوبة: آية ٣١].^(٢)

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما سمع عمر رضي

الحاجة لمن يمتلك جميع مفاتيح الحلول لجميع الأزمات والتحديات التي يواجهونها في حياتهم.

لكن السؤال الأهم حول كيفية الغلو في الأفاضل المفضي للمفسدة، حيث يعتمد البعض إلى تعظيم من له فضل من العلماء والدعاة والصالحين وذلك وفق تسلسل منطقي من حيث المقدمات والنتائج والموضوع والمحمول، فالأمر دائما يبدأ بالاحترام والتقدير والإجلال والإطراء لشخص العالم أو الداعية أو العابد الصالح والمستحق بسبب علمه وفضله وزهده وعمله في خدمة الدين لهذا التقدير والإجلال.

ويتطور هذا التقدير والاحترام ليتحول إلى المحبة والتعلق العاطفي بشخص الفاضل، ولا ينتهي إلا وقد أصبح الفاضل عند محبيه -لفرط الغلو في تقديره- معصوماً خليفاً عن العيوب والأخطاء مبرا من كل نقصان، بل قد يتطور الأمر إلى أبعد من ذلك فيغدو الفاضل عند أتباعه وثنا يعبد من دون الله تعالى، والأدلة ومثلها الشواهد وكلام العلماء رحمهم الله تعالى شاهدة على هذا الأصل؛ إذ يضيّق المقام عن استيعابها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. يقول الله عز وجل في وصف أهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

يقول ابن الجوزي رحمه الله: (إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً للخير يريد به باباً من الشر).^(١)

تنوع طرائق الشيطان التي يسلكها لإغواء البشر وتعدد، ويلحظ المتأمل في هذه الطرائق من الدهاء والمرونة، والجَلَد والخفاء ما تشيب له الرؤوس، ولعل من أدق طرائق الشيطان وأخفائها في إغواء الخلق وصدّهم عن سبيل الله تعالى طريقة ظاهرها الخير والمصلحة ولكن ما تفضي إليه الشر والمفسدة المحضة.

وقد بحثت عن عبارة تلخص مفهومها فما وجدت أروع ولا أبلغ ولا أوجز من قولهم: (من أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل).

والحقيقة التي يؤكدتها علماء الاجتماع أنّ كلّ البشر من الممكن أن يمرّوا بتجربة الغلو في الأفاضل والإفراط في تقديرهم إذا توفرت بعض الشروط والملازمات الاجتماعية التي تجعلهم مستعدين لتقبل فكرة التسليم المطلق لمن تراه فاضلاً والتعائش معها، في امتداد لما يسمى الفرعونية الاجتماعية.. فتراهم يميلون إلى الغلو في تقدير الأشخاص استناداً لضعفهم وعجزهم الذاتي، وسيادة فكر

(١) تلبس إبليس (ص: ٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٤).

الأوج - أو ما سمّاه عصر ما بعد الموحّدين - حيث بدأت قوّة الفكرة الدينيّة في تسيير المجتمع بالغياب ومالت الطّبيعة إلى استعادة غلبتها على الفرد والمجتمع^(٣١)؛ وهكذا نصل إلى النتيجة التي وصل إليها ابن نبيّ من قبل في عدم وجود حضارة ما تكاد تشدّ عن هذه الدورة^(٣٢).

تعاي الحضارة - لا ريب - من مشكلات عديدة ترهقها وتربط فيما بينها بوشائج متعدّدة تدفعها إلى النكوص عن غاية النهوض الروحيّ والسموّ العقليّ إلى غايات المادّة وطغيان الأشياء والاستهلاك وتصنيم الأشخاص، وذلك لغياب الفاعليّة المطلوبة من العقيدة والأفكار والثّقافة، وهو ما يحتاج بحدّ ذاته إلى توسّع وتقصّ مستفيض يوضّح المقصود بالفاعليّة وقواعدها وأنواعها وأسباب تخلفها عن أداء دورها.

ختم وإيجاز:

لا يمكن لشعب أن يفهم مشكلته النهضويّة ما لم يتعمّق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها؛ إذ الحضارات المعاصرة والماضيّة والقادّمة عناصر للملحمة الإنسانيّة منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن، فهي حلقات لسلسلة واحدة منذ أن هبط آدم على الأرض إلى آخر وريث له فيها^(٣٣)؛ ومن ثمّ فإنّ أهمّ ما يمكننا الختم به من آراء ابن نبيّ في الحضارة كونها مفهومًا مركّبًا يتساق مع الظاهرة الحضاريّة في نشأتها وتطوّرها وأفولها؛ إذ هي في فحواها انسجامٌ لجهود الإنسانيّة مع السّنن الإلهيّة في النهوض الماديّ والمعنويّ في شتّى المجالات الإنسانيّة والعلميّة والدينيّة، فالغاية من ذلك التقدّم والارتقاء بالإنسان إلى أفضل أشكال الحياة الممكنة، إلّا أنّ عمليّة بناء الحضارة تستدعي أسسًا يحصرها ابن نبيّ في عالمي الأشخاص والأشياء، إضافةً إلى حاجتها لمحرّك يعطي العمليّة البنائيّة قوتها واستمرارها، وهو ما حدّده بـ «الفكرة الدينيّة» المنتمية - بضرورة الحال - إلى عالم الأفكار، مشيرًا إلى أنّ ذلك لا يتمّ إلا بتنسيق شامل يهدف لتغيير الإنسان من الداخل وفق شروط معيّنة، ثمّكنه من أداء وظيفته الاجتماعيّة وبناء المجتمع المتحضّر، واختلال هذه الشروط عند ابن نبيّ سيؤدّي لطغيان هذه العناصر بعضها على بعض، وانزواء الأفكار المحرّكة للحضارة مقابلها؛ مما يُنذر بأفول شمسها واستفحال التبعيّة الفكرية والاستهلاكية وأمراض عديدة في جسد المجتمع وفكره.

ثمّ فإن رؤية مالك لعناصر الحضارة تجتمع بهذه الثلاثيّة مع «الفكرة الدينيّة» فيطلق عليها مجتمعة مصطلح «العُدّة الدائمة» الواجبة لتحقيق الحضارة^(٣٤).

دورة الحضارة:

لم يحصل أن اتّفق المفكّرون على تعريف واحدٍ للحضارة أو عوامل تطوّرها وانتكاسها والعمر المفترض لها، إلّا أنّهم عمدوا إلى رسم دورات يرون الحضارات داخلها فيها، فمن دورة العصبيّة عند ابن خلدون إلى التناقض عند هيجل أو صراع الطبقات عند ماركس أو الأطوار الثلاثة عند دوركايم^(٣٥)، وقد استفاد ابن نبيّ من فكرة دورات الحضارة التي بحثها المفكّرون وعلماء الاجتماع السابقون، فتفحص مقالاتهم ونقدها^(٣٦)، واستفاض في البحث لتكوين نظرة جامعة في فهم دورات الحضارة، فتوصل إليها وحدّد مخصّصاتها وشروطها، وضبطها بين البداية والأفول، محدّدًا المرحلة التي تسبق البداية والمعالم التي تسم النهاية^(٣٧)، فابتدع ابن نبيّ دورة (النهوض والأوج والأفول) بحسب التفاعل الذي تقوم به الفكرة الدينيّة مع ثلاثيّة الشهيرة على نحو ما أسلفنا من أنّ الحضارة تبدأ بارتباط فكرة دينيّة معيّنة تنهي سطوة الغرائز الجسديّة وتطلق الروح من سجنها فينطلق العقل معها ليؤوّل الحال مرّة أخرى إلى ارتباط الغرائز بسطوة العقل فخمود الألق الروحيّ وسيطرة المادّة على حسابها^(٣٨).

ومرّد هذه الدورة برأي الباحث عائد إلى أنّ أيّ حضارة إنما تنتج عن فكرة جوهرية تطبع المجتمع في مرحلة ما قبل التحضر، وتدفعه لدخول ميدان التاريخ بحضارة وثيقة، فقد أخرجت الفكرة المسيحية أوروبا إلى مسرح التاريخ، وبنت عالمها الفكري انطلاقًا منها، إلّا أنّها تغيّرت بتغيّر فكرتها مع استعادة عصر النهضة أدبيّات الإغريق وفلسفاتهم الماضية^(٣٩)، لتصبح حضارة الغرب بذلك معنيّة بالمادّة لا الروح، ولو أردنا دراسة دورة الحضارة الإسلاميّة - في تطبيقيّ نظريّته - فإننا نلاحظ بدايتها مع الفكرة الدينيّة الإسلاميّة، ففي مرحلة ما قبل الحضارة كانت الجاهليّة تضرب أطنابها على مجتمع الجزيرة العربيّة، فجاءت الفكرة الدينيّة الإسلاميّة محرّرة الروح من ربكة غرائز الواقع المحيط بها، ودفعت بمعتقداتها إلى طور الأوج، فقام المسلمون بالفتوح ونشر العلوم وتطويع الفنون، لتصل إلى طور الأفول مع نهايات طور

(٢٥) ينظر شروط النهضة، (٢٩).

(٢٦) أي المرحلة اللاهوتية، ثم الميتافيزيقية، ثم الوضعية.

(٢٧) ينظر شروط النهضة، (٣٩-٩٩).

(٢٨) ينظر شروط النهضة، (٨٩، ٩٩).

(٢٩) ينظر شروط النهضة، (٥٠١).

(٣٠) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي، ترجمة: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢، (١٤).

(٣١) ينظر شروط النهضة، (٢٠١-٤٠١).

(٣٢) ينظر السابق، (٩٧).

(٣٣) السابق (٩١، ١٠٢).

وأثمتها، بل إن بعض هذه الجماعات يرون في أفكارهم الحق المطلق الأمر الذي يجعلهم يزددون كل من يخالفهم من أهل العلم والفضل مهما بلغ من الصلاح والخدمة لهذه الأمة.

ولسائل أن يسأل ما هو الحدُّ بين طرفي القصد وهما الغلو في الأفاضل ومقابله ألا وهو التقصص منهم والجرح فيهم؟

إن الحد الفاصل بين الغلو والتقصص يكمن في التزام ضوابط الشرع في ذلك والحذر من الوقوع في حبال الشيطان الذي يلبس على الناس دينهم في محاولة منه للخلط بين عدة قضايا يجب الفصل بينها في التعامل مع أهل العلم والفضل والدعوة، فالتقدير والمجبة والإجلال للأفاضل مسألة لا بد منها، وهي صمّام أمان يحفظ الأمة ويحصنها من الضياع، لكنَّ التقدير لهم ومعرفة حقهم لا يعني قط نسبة العصمة لهم وإنزالهم منزلة الأنبياء في ذلك، وعدم التجرؤ على نقدهم وفق الآداب والأصول إن وقع منهم بعد عن الصواب، وهو أمر لا ينفك عنه بنو آدم.

وإن نقد خطأ العالم شرطه ألا يقود صاحبه إلى جرح العلماء والنيل منهم، في انحراف واضح عن جوهر النقد البناء الذي يجب أن يركز على القول والمسألة المنتقدة لا على القائل، وشرط ألا يكون هذا النقد لخطأ العالم مُفضيًّا إلى تناسي ما له من علم وفضل ودعوة ومكانة ومواطن إصابة للحق يحفل بها تاريخه.

إن إتقان التعديل ومثله الجرح العلمي وفق أصولهما وقواعدهما العلمية الدقيقة -التي خطها علماؤنا ومراجعنا سلوكًا ونظرًا- لهو شرط التوازن الأساس في التعاطي مع العلماء والأفاضل وأهل الدعوة، في حالة صحّة خليّة عن الغلو والتقصص.

يتحصل بما ينتجه هؤلاء العلماء، ولا سيما علماء الدين والدعاة والمصلحون، فهم الحملة للواء الدين والعلم الشرعي أحد أهم مقومات الحفاظ على الأمة في جوهر بقائها، ألا وهو الدين والإيمان، وفي صحيح البخاري: «وأنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر»^(١٠)، ويقول الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه إعلام الموقعين: (فصل... فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام؛ فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لِيَأْمُرُوا بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ﴾ آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) [النساء: ٥٩] قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في إحدى الروايتين عنه وجابر بن عبد الله والحسن البصري وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح والضحاك ومجاهد في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد^(١١).

ومن الأمثلة الشاهدة على خطورة الانتقاص من شأن الأفاضل والخط من أقدارهم ما نراه اليوم من نتائج كارثية لسلوكيات بعض الجماعات الإسلامية التي دأبت على الانتقاص من علماء الأمة والخط من أقدارهم والمعارضة الدائمة لاعتبارهم مرجعيات مناسبة تمكّن الأمة من الحد الأدنى من الوحدة والاتفاق على مرجعياتها ومشايخها

فإن التقصير في حقهم والانتقاص من قدرهم، والتطاول على مقامهم، والتجرؤ على أعراضهم، والتسلط عليهم بالذم والإنكار، بسبب الخلاف معهم في قضايا تحتمل الخلاف؛ كذلك ينطوي على مفاسد كثيرة.

إن من نتائج التجرؤ على أهل العلم والصلاح في زماننا فقدان الناس الثقة بكلام أهل العلم والفضل، فلا يقبلون منهم كلامًا ولا فتوى، ولا نصيحة ولا إرشادًا، الأمر الذي يفضي لا محالة إلى حدوث شاغر في دور الريادة والقيادة في الأمة، هذا الدور الذي تصدّره العلماء وأهل الفضل لعقود طويلة في ظل سيادة الأمة الإسلامية والتمكين لها، وقد كان البديل المأساوي للمجتمعات الإسلامية أن يتخذ الناس رؤوسًا جهالًا يضلّون ويضلّون، ففي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما؛ اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسُئِلوا فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا وأضَلُّوا»^(١٢).

وحين يتجرأ سفهاء الناس على الطعن في العلماء وأهل الفضل؛ يتحقق أحد أهم أهداف أعداء الإسلام في إسقاط قادة الأمة وفصلهم عن قيادة الأمة المسلمة والحفاظ عليها، لأن العلماء والأفاضل والدعاة هم خط الدفاع المتين أمام تمرير أفكارهم الهدامة لعقيدة الأمة أو لقيمها وأخلاقها.

ولا نبعد إن قلنا: إن تطور الأمم وعلو شأنها يقاس بتقديرها لعلمائها ومنحهم المقام الذي يستحقونه لشرف محمولهم، وحجم الخدمات التي يقدمونها للأمة، بل إن رقي الأمم وتقدمها وازدهارها

(١٠) رواه أبو داود، باب الحث على طلب العلم، رقم (١٤٦٣)

بترقيم الأرنؤوط، والترمذي باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٨٩٨٢) بترقيم المكنز.

(١١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٨ / ١)

(٩) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم رقم (٥٠١) بتحقيق البغا، ومسلم في باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل، رقم

(٣٧٦٢ / ٣١) بتحقيق عبد الباقي.

الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبده، فقولوا عبد الله، ورسوله»^(٣).

والإطراء: هو الإفراط في المديح ومجاوزة الحد فيه إلى الغلو والخروج عن المألوف عرفاً في مديح من يستحق المدح والثناء^(٤).

وفي صحيح البخاري عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله»^(٥).

وفي ترجمة الحسن بن صالح بن حي كلمات قاسية أطلقها بعض الأئمة فيه مع ما عرف من فضله، (قال أبو صالح الفراء: ذكرت ليوسف بن أسباط عن وكيع شيئاً من أمر الفتن، فقال: (ذاك يشبه أستاذه -يعني الحسن بن حي- فقال: فقلت ليوسف: ما تخاف أن تكون هذه غيبة! فقال: لم يا أحمق أنا خير لهؤلاء من آبائهم وأمهاتهم أنا أنهى الناس أن يعملوا بما أحدثوا فتبعهم أوزارهم، ومن أطراهم كان أضمر عليهم)^(٦).

وفي الصحيحين وغيرهما عن علي رضي الله عنه قال: «ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع أبويه إلا لسعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقاص) فإني سمعته يقول يوم أحد: «يا سعد ارم فداك

أبي وأمي»^(٧) وكان سعد قد قعد عن قتال البغاة، فكان علي إذا كان في جماعة يخشى أن يتبعوا سعداً بالقعود ربما أطلق غير كاذب كلمات توهم الغرض من سعد، وإذا كان مع من لا يخشى منه القعود فذكر سعداً ذكر فضله.

” إِنَّ تَطَوُّرَ الْأُمَمِ وَعُلُوَّ شَأْنِهَا يُقَاسُ بِتَقْدِيرِهَا لِعِلْمَائِهَا وَمَنْحَهُمُ الْمَقَامَ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ لِشَرَفِ مَحْمُولِهِمْ، وَحُجْمِ خِدْمَاتِ الَّتِي يَقْدُمُونَهَا لِلْأُمَّةِ

والأمثلة من واقع الأمة الإسلامية على تردّي أصناف من أبناء الأمة وجماعاتها في هذا الوادي كثيرة جداً، وحسبنا أن نعلم أن أغلب الطوائف المنحرفة عن منهج الأمة وعقيدتها؛ بدأت الانحراف من خلال المبالغة والغلو في أفاضل انطلقوا في مبادرات ومشاريع يقصدون بها وجه الله، فخلف من بعدهم خلف غالوا في تقديس صاحب المشروع وبالغوا في تقديره، وانصرفوا في تقديرهم عن أهداف المشروع ورؤيته ورسالته إلى التمحور حول صاحب المشروع وإطرائه والثناء عليه وتدييع الخطابات والمقالات والكتب في الثناء عليه، وأنكروا أن تكون لهذا الفاضل أي أخطاء أو ثغرات، وبالغوا في الدفاع غير المحق عنه حتى باتوا سداً منيعاً أمام النقد البناء المفضي لتصحيح المسار وتقويم العيوب، لتكون العاقبة انحرافاً واضحاً عن المنهج الذي خطه وأراده ذاك الفاضل، بل وصرفاً لبوصلة المشروع عن خدمة الأمة؛ إلى خدمة قضية طَرَفِيَّةٍ، جعلت الولاء للفاضل

مقياس الحق والباطل، ولتكون المآلات وبالأعلى الأمة في حاضرها ومستقبلها. وبالعودة إلى الأمثلة التاريخية الشاهدة على خطر الغلو في الأفاضل نجد في الشيعة الإمامية مثلاً واضحاً على أثر هذه الظاهرة الخطيرة المفضية إلى الانحراف التام عن الحق والصواب.

لقد كانت بداية الشيعة الإمامية الغلو في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسذاجة العوام أو خبث الخواص منهم، بتفضيله على باقي الخلفاء الراشدين، ثم تكفير من سواه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختراع النصوص التي تسوغ منهجهم الضال، الأمر الذي أوصلهم إلى ما نراه اليوم من المغالاة وتجاوز الحد في علي رضي الله عنه ومنّ تتابع من ذريته وآل بيته، بل وإضفاء بعض الصفات الإلهية على الأئمة الذين ادّعواهم.

وقد بلغ بهم الأمر إلى معادة سائر أهل الإسلام ممن يرونه مخالفاً لهذا الاعتقاد أو كان يشكل حائلاً أمام الخرافات التي ادّعوا لها علي رضي الله تعالى عنه وآل بيته، وهو ما تجلّى في تكفيرهم لكبار الصحابة ومن جاء بعدهم من أهل السنة والجماعة، بل واستحلال دمائهم وأموالهم.. كل ذلك في تجسيد كامل للتمادي في الغلو في الأفاضل المفضي لمفاسد كبيرة شكلت شرخاً كبيراً في جسد الأمة الإسلامية.

روى الإمام الخطابي في كتاب العزلة عن ابن عائشة رحمه الله قال: (ما أمر الله تعالى عباده بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: فإما إلى غلو، وإما إلى تقصير فبأيهما ظفر قنع)^(٨)، وقالوا فيما مضى: (كلا طرفي القصد مذموم).

كما أن الغلو في الأفاضل المفضي لتنزيههم عن الخطأ والقصور ينطوي على مفاسد -قد بسطنا القول فيها آنفاً-

(٧) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب المجن ومن يترس بترس صاحبه، رقم (٥٠٩٢).

(٨) العزلة للخطابي (ص: ٧٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها} [مريم: ٦١] رقم (٥٤٤٣).
(٤) قال الإمام بدر الدين العيني: (لا تطروني) بضم التاء من الإطراء، وهو: المديح بالباطل، تقول: أطريت فلانا مدحته فأفترطت في مدحه، وقيل: الإطراء مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، قوله "كما أطرت النصارى" أي في دعواهم في عيسى بالالهية وغير ذلك، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، طبعة دار إحياء التراث العربي (٦١/ ٧٣).
(٥) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة رقم (٤٣٤).

(٦) تهذيب التهذيب (٢/ ٦٨٢).

منها جزءاً من المطلوب بحسب إدارتها ومواردها الذاتية، مما أدى إلى استهلاك واستنزاف كبير ونتائج أقل ولا سميّاً في المجالات الخدمية.

والحقيقة أن الذي أوجد هذه الحالة عوامل كثيرة، منها إرث تاريخي كبير من غياب الحالة الجماعية والتنظيمية لدى الشعب السوري في ظل حكم الطائفة، وغياب العقد الاجتماعي لدى السوريين وضعف الشعور بالانتماء إلى الوطن أو من يمثله، أو العمل لأجل المصلحة العامة، إضافة إلى حالة الانعقاد من المؤسسات الأمنية التي تعقبها حالة لا إرادية من الفوضى والتشتت، ولكن استمرار هذه الحالة المخزية من التشتت وعدم التنظيم ليس مسوّغاً أبداً؛ ولا سيما مع مرور سنوات، وإن كان يُمكن تسويغه وفهمه في الأشهر الأولى من الثورة فقط.

٢- الأطراف تدير المركز:

تحولت حالة الإدارة الطبيعية للمناطق المحررة من المركز إلى الأطراف، أي من مراكز المدن إلى أرياف المدن، وهذا خلاف الحالة الطبيعية في الإدارة وسرعة الاستجابة، كما أن الخبرات القادرة على إدارة المؤسسات عادة ما تتجمع في المركز أي في المدن، قرب المراكز الحيوية فيها، حيث تتوفر الخبرات التراكمية المدربة... كما أنه أصبح صاحب القوة أو من يسيطر أو يحرر منطقة هو من يديرها ويعين من يشرف على هذه المؤسسات والمراكز وهو لا يملك الخبرة المناسبة التي تؤهله لذلك، وفي أحيان كثيرة سُخِّرَت المؤسسات لمصلحة الفرد أو العائلة كاستمرار طبيعي للثقافة التي رسخها حزب البعث في المجتمع السوري.

٣- غياب الوعي:

من أسباب الفشل أيضاً غياب الوعي تجاه هذه المنشآت على أنها ملك للشعب وليست ملكاً للنظام، وعدم

على مدى ثماني سنوات من عمر الثورة. إن معرفة الأسباب التي أدت إلى الفوضى وسوء الإدارة تُعدّ الخطوة الأولى للعلاج واستدراك ما فات، وسأعرض هنا أبرز أسباب ضعف التنظيم والإدارة في الثورة، من خلال التطبيق على عدة مؤسسات موجودة وعاملة على الأراضي السورية.

أبرز أسباب الغياب الإداري والتنظيمي في الثورة

إن المطلع على واقع الثورة السورية يعلم تمام العلم أن الحالة التي وصلت إليها اليوم كانت نتيجة لمجموعة من الأسباب الإقليمية والدولية والاجتماعية والإيديولوجية والتنظيمية، ولكنها كلها تندرج تحت قسمين أساسيين، هما الأسباب الداخلية والأسباب الخارجية.

الأسباب الذاتية الداخلية:

إن استقراء جميع الأسباب الداخلية لسوء الإدارة من الصعوبة بمكان، ويحتاج إلى دراسات كثيرة، وسأعرض لأهم هذه الأسباب بحسب معائتي للواقع:

١- غياب المؤسسة الواحدة والجسم الواحد:

إن غياب المؤسسة الواحدة التي تشرف على كل قطاع وتوزع السلطات والصلاحيات فيه، وتنسق بين مؤسساته سببٌ أساس في إفشال الحالة الإدارية، إذ إن لمؤسسات كل قطاع مواردها الخاصة بها التي تشرف عليها إدارة موحدة توزع عليها الموارد والمهام بشكل عادل.. ولكن غياب هذا الجسم الواحد أدى إلى توزيع غير عادل للمهام والموارد والاختصاصيين، فتشتت الطاقات، وعمّت الفوضى، ونشأت سلطات متعددة ومؤسسات متنوعة، تؤدي كل

الهيئات الخاصة بالمراقبة والمتابعة، مما يجعل المسؤول في حرص دائم على رضا الشعب وتقديم أكمل الخدمات والحصول على أفضل النتائج، إن كان يتبغي الاستمرار والنجاح في عمله أو تجنب المحاسبة.

نتيجة للممارسات الطائفية للعصبة المتسلطة على مؤسسات الدولة والشعب في بلادنا قامت الثورة الثورية كحركة تطالب بالإصلاح وإنهاء الفساد والتمييز الطائفي والحزبي، ولكن نتيجة لممارسات النظام الحاكم وإراقة الدماء تحولت الثورة السورية من الحالة السلمية إلى العسكرية، وأصبحت مناطق كبيرة تحت سلطة الثورة وخارج سيطرة نظام الأسد، فأنشئت مؤسسات مختلفة ومتنوعة لإدارة المناطق التي تخضع لسيطر الثوار لإدارة الملفات السياسية والعسكرية والخدمية، وتنظيم حركة المعابر الحدودية، وتوظيف الموارد البشرية والمادية الموجودة بكل أنواعها، ولكن للأسف - ونتيجة لاعتقاد الشعب السوري مدة خمسة عقود على أساليب الإدارة البعثية الفاشلة - انتقلت أساليب الإدارة البعثية بكل أمراضها الخطيرة إلى المناطق المحررة، باستثناء التدخل الأمني، فقد كان في المناطق المحررة قليلاً نوعاً ما، وتم فتح المجال للكفاءات بنسبة أكبر للقيام بدورها في المؤسسات المُحدثة.

إن الفشل الإداري والتنظيمي في المناطق المحررة كان من الواضح بما لا يخفى على أحد، وإن هذا الأمر يعود لاعتبارات كثيرة جداً ذاتية داخلية - وهي الأكبر - وعوامل أخرى خارجية أدّت دوراً لا يستهان به في حالة الفشل التنظيمي والإداري لمؤسسات الثورة الناشئة في ظروف استثنائية يمكن أن تقبل فيها بعض الأخطاء وحالات الفوضى، لكن الأمر الذي لم يكن مقبولاً بحال استمرار حالة الفوضى بل وازديادها



الدكتور زكريا ملاحفجي

دكتوراه في الإدارة والتخطيط الاستراتيجي

التنظيم والإدارة ومدى التطبيق في الثورة السورية

العصابات وتشكيلات المافيا، بعيداً تمام البعد عن أساليب الإدارة المنتظمة والعادلة التي تتميز بها أنظمة الحكم الرشيد، مما منع البلاد من الاستفادة من علوم الإدارة وفنونها، والتخطيطات المعاصرة المتبعة في كل الدول المتقدمة، أو حتى الكفاءات الإدارية الموجودة بين أبناء الشعب السوري.

إن الإدارة علمٌ متكامل له قواعده ومبادئه ونظرياته الخاصة، والإدارة فنٌ يحتاج إلى خبرةٍ وذكاءٍ في الممارسة، وإن صورة إدارة العصابة القائمة على الولاءات وليس الكفاءات، أو على القرارات الارتجالية الأمنية التي تزرع الخوف في كل الدوائر الحكومية؛ لا يمكن أن تتفق بحال مع أي شكل من أشكال الإدارة الرشيدة.

إنه على الرغم من غنى سوريا بالموارد البشرية المتميزة، إضافة إلى الموقع والإمكانات المادية الجيدة، فإنها لم تكن تدار بشكل جيد ولم تستثمر قدراتها إلا في حدود شبه معدومة نتيجة لنظام الحكم الدكتاتوري وغياب أي شكل من أشكال الحكم المؤسساتي، الشورى أو الديمقراطية.

وكتيجة لتقديم الولاءات الطائفية والحزبية على أسس الإدارة الرشيدة خلال خمسين سنة مضت لم يُسمح لأحد من ذوي الكفاءة بإدارة قطاع ما؛ إلا في حالاتٍ نادرةٍ -وعلى نطاق ضيقٍ- لا تشكل ربيعاً، في حين تجد الدول الحديثة تسعى بكل جهد نحو توظيف أمثل للطاقات والإمكانات، مع استطلاع دائم لرأي الشعب وتقييمه لأداء المدراء والمسؤولين الذين يديرون شؤونهم من خلال الانتخابات الدورية أو

إن النظم الإدارية تُعدُّ العمود الفقري لكل المؤسسات والأحزاب والحركات الناجحة في العالم، وإن أي عمل تطغى عليه العشوائية مصيره الاضمحلال لا شك في ذلك.

إننا اليوم نعيش في عالم متطور سريع التقدم والتقلب، يحترم الأقوياء ولا يرحم الضعفاء، وإن أبرز ما يميز القوة في عصرنا الحالي الإدارة وحسن التخطيط والقدرة على توظيف الإمكانيات المتوفرة... وإن الحالة التي وصلت إليها الثورة السورية لا تخفى على أحد، ولذلك أسباب كثيرة منها ما هو معلوم ومنها ما ليس معلوماً، وسأعرض في هذه العجالة للحالة الإدارية في الثورة السورية؛ لعل ذلك يسלט الضوء على أحد أهم أمراضنا التي أصابت ثورتنا السورية في مقتل.

هل قامت مؤسسات الثورة بإدارة جيدة لمؤسساتها، وهل استثمرت الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة لها بشكل جيد أو بالشكل المطلوب؟

ما مدى التنظيم والتخطيط وتطبيق الأسس الإدارية في الثورة كركن من أركان النجاح في عالمنا المعاصر؟

قراءة في الواقع

سوريا قبل الثورة - كحال معظم الدول النامية - كانت تعيش حالة فشل إداريٍّ وحضاريٍّ على كل المستويات، رغم الفرص الكثيرة للنمو والتقدم؛ إذ كان يتسلط على حكومتها ومؤسساتها مجموعات عصابية من البعثيين والنصيريين والأمنيين، يديرونها بشكل أقرب ما يكون إلى نظم إدارة

ليس عسكرياً فقط، وإنما هو سياسي واقتصادي واجتماعي أيضاً.

حتى وإن رأينا شبه توقف للصراع العسكري مع نظام الأسد، فإنه سيستمر بمجالات مختلفة سياسية واقتصادية وحقوقية، كما أنه سيستمر من خلال النضال المدني الشعبي، وإدارة المناطق المحررة بشكل صحيح وإعطاء نموذج عصري علمي لإدارة القطاعات الخدمية، والعمل على استقرار الأهالي وخدمتهم... وهكذا ستكون الثورة قد تحولت إلى شكلها الجديد، ولا سيما بعد أن انكشفت كل الجماعات المتطرفة والانفصالية أمام المخدوعين والمغرر بهم.

إن عدالة قضيتنا لا يكسبها القدرة على الاستمرار أو النجاح، بل لا بد لها من إدارة وتنظيم كي تصل إلى مرحلة تستطيع فيها تحقيق آمال شعبنا في الخلاص من العصابة المتسلطة، وتستحق فيها أن تُحترم من قبل الجميع.

إن غياب الإدارة يعني الفوضى دائماً، والفوضى تعني الفشل، وقد تنجح قضية ما بالفوضى مرة واحدة، ولكن هذا النجاح لن يدوم بالتأكيد... وإذا غاب التخطيط فالبديل هو الارتجال والانفعال.

إذا غاب التنظيم عبر السلطة الواحدة فالبديل هو التشرذم والسلطات المتعددة والمتخاصمة، والنتيجة هي الضياع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٤٦].

لقد حملنا أسباب الفشل المرّ لسنين، وقد آن الأوان لتخلص من هذه الأسباب المتمثلة في غياب القيادة والسلطة الواحدة وسوء التنظيم والإدارة، وإن الاستمرار هكذا يعني المزيد من الاستنزاف والضياع والخسائر... وأختم بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١).

(١) أخرجه أبو يعلى والطبراني.

الخطط المرحلية التشغيلية والخطط الاستراتيجية بعيدة المدى وفق الأهداف المقررة مسبقاً.

إن الإداري الجيد هو الذي يُحسن تشخيص واقعه كما يحسن التنبؤ وقراءة المستقبل، يعرف كيف يستثمر الموارد المتاحة والاستثمار الأمثل لنتائج أفضل؛ مستوعباً خلال ذلك كل الأدوات المتاحة والفرص وحتى التحديات التي أمامه، فما كان في السابق تحدياً هو اليوم فرصة، والعكس أيضاً صحيح.

توجد في مناطقنا اليوم حالة من نفوذ دولي متوزع، يرافقها دفع باتجاه حل سياسي لم تبلور صورته حتى الآن، كما نلاحظ انخفاض القصف في مناطق النفوذ الدولي وانعدامه تماماً في مناطق أخرى، حتى عادت أشكال الحياة شبه طبيعية، لكن بظل مخلفات حرب قاسية.

الآن ظرف وواقع جديد وواجبات كبيرة، ولا سيما بعد حالات التهجير التي طالت كثيرين، وواجبنا اليوم تلافي كل أسباب الفشل الإداري الذاتية، واستغلال تغير الوضع الخارجي، فهناك مناطق آمنة ولا تزال أمامنا فرص كثيرة للاستفادة منها وإدارة المناطق بكل مواردها وتجميع كل الطاقات وتوظيفها وتقديم الخبرات، كما أن هناك عدداً من الكوادر التي اكتسبت خبرات جيدة طيلة السنين الماضية، يمكن الاستفادة منها، وخاصة في ظل وجود أعداد من منظمات العمل المجتمعي التي تحركت في هذه المساحات وعملت بحرفية لسنوات من أجل المجتمع.

هناك الواجب المتأخر جداً وهو السعي للجسم الواحد المنظم، الذي يستقطب الكفاءات ويشرف على كل النواحي الإدارية والتنظيمية ويضع استراتيجيات عملها.

إن تشكيل الجسم الواحد للمناطق المحررة سيحسن شروط التفاوض والعملية السياسية، فالصراع في منطقتنا

الكل، وإنما كانوا يفضلون التعاطي مع الجزء الذي يناسبهم حسب التوجه الفكري السياسي أو الإيديولوجي الذي يمثلته القوائم على مؤسسة ما، وهذا رسخ حالة الانقسام والتعدد وتكريس مصلحة الفرد والجماعة، لهذا غابت المؤسسة التي تدير التطبيق الإداري بمنهجية موضوعية علمية، وترسخت حالة عدم وجود الجسم الواحد الذي يدير المؤسسات ويوزع السلطات.

٤- عدم وجود منطقة آمنة:

كان لانعدام الأمن واستمرار القصف العشوائي على المناطق المحررة أثر كبير في إفشال العمل المؤسسي، حيث أصبح من المتعذر في هذه المناطق العمل بشكل آمن وحر.

٥- التنظيمات المجهولة:

لعل السبب الخارجي الأهم في منع وجود حالة إدارية مستقرة في مناطقنا ما قامت به دول شتى بالتعاون مع نظام الأسد أو حلفائه الإقليميين من إغراق الساحة السورية بأشخاص مجهولين قدموا عبر الحدود ليقوموا مشروعا خاصا متطرفا لا علاقة له بالوضع السوري، استغل الدين واحترام الناس له لإفشال المشروع السوري داخلياً وخارجياً وضرب الحالة السورية ومنع أي مؤسسة من التطور أو النجاح، والوقوف سداً منيعاً ضد أي حالة إدارية، وقد كانت هناك حالة تخادم دائمة بين نظام الأسد وبين هذه القوى الظلامية التي تُعد السلاح الأقوى الذي أسهم في إيصال الحالة السورية إلى ما نراه عليها اليوم.

الواقع الحالي والحلول

إن الواقع الحالي اليوم في المناطق المحررة مختلف تماماً عن السابق، وهناك ظروف جديدة نحتاج فهمها من أجل العمل بما يناسب المرحلة انطلاقاً نحو الهدف، وهذا عمل الإداريين؛ إذ يُشخصون الواقع الحالي، ثم يضعون

التمييز بين المؤسسات الخدمية التي لا ينبغي المساس بها وبين المؤسسات الطائفية والحزبية التي تمثل النظام ويسيطر من خلالها على أركان الدولة، فتم التعامل مع المؤسسات على أنها سواء، وأصبح التعامل على أساس انتماء الموظف ومدير المؤسسة ورأيه السياسي، وليس على أساس خبرته، إضافة إلى عدم تأمين البديل المناسب لمن مُنعوا من العمل.

٤- قلة الخبرات الإدارية:

من الأسباب أيضاً قلة الخبرات الإدارية التي تجمع بين المعرفة النظرية والخبرة العملية، مع الاستعداد الشخصي، أقصد بمستوى خبراء وليس مبتدئين، أو بتعبير القرآن الكريم «القوي الأمين».

٥- تدمير نظام الأسد للبنى التحتية:

تعمدَ نظام الأسد تدمير كثير من المنشآت الخدمية والمؤسسات التي يمكن الاستفادة منها؛ إذ عمد إلى تدمير البنى التحتية والمراكز الحيوية من أجل سلب الناس الشعور بالاستقرار في المناطق الخارجة عن سيطرته، ومنع الناس من الاستفادة من هذه المراكز، وإفشال أي تجربة إدارية ناجحة في تلك المناطق.

٦- عدم استثمار الموارد:

إن الموارد المادية في المناطق المحررة بعمومها تقسمت بين القوى العسكرية المسيطرة، ولم تحصل حالة استثمار منظمة لها تعود بالفائدة العامة على المناطق التي تحكمها، وأبرز هذه المواد المهجرة النفط والغاز والمعادن والمحاصيل الزراعية والمنشآت الاقتصادية؛ إذ تراجع إنتاج كثير من هذه المواد، وهُمشت مؤسساتها، وكان كل ذلك نتيجة حتمية لغياب المؤسسة الواحدة والجسم الواحد، وتعدد السلطات واختلافها فيما بينها.

٧- تدخل الحالة العسكرية بالإدارة

المدنية:

لقد كان لتدخل الفصائل العسكرية في المؤسسات المدنية للمناطق المحررة دورٌ كبير في إفشال كثير من التجارب الإدارية التي ظهرت فيها بوادر النجاح والأمل، ولا سيما التنظيمات الإيديولوجية والقوى الانفصالية التي كانت تسعى إلى أهداف خاصة لا تتفق أبداً مع أهداف الشعب والثورة.

٨- التوجه نحو الدعم الخارجي:

لقد كان لتوجه الناس نحو الدعم الخارجي بدل السعي للاكتفاء الذاتي عبر إدارة الموارد واستثمارها بالشكل الصحيح؛ أثرٌ كبير في فشل الحالة الإدارية ومنجزات الثورة عموماً.

٩- انفصال السلطة عن الخبرة:

كان ذوو الخبرة بلا سلطة للإنجاز، وأصحاب السلطة بلا خبرة؛ إذ لم تستقطب هذه المؤسسات ذوي الخبرات، ولم يتم الاستفادة من الخبراء الذين ابتعدوا أو انشقوا عن النظام، مما أجبرهم لاحقاً على الالتحاق بأعمال فردية بحثاً عن سبل البقاء والحصول على لقمة العيش في بلاد الهجرة، وبعضهم اضطر للسفر والهجرة بحثاً عن حق اللجوء في بعض الدول التي تمنحه.

١٠- غياب الرقابة والمحاسبة:

لقد كان لغياب الرقابة أثرٌ كبير في انفلات المؤسسات، إذ المخطئ يحتاج من يردعه ويوقفه عند حده، ومن المعلوم ضرورة في كل النظم الإدارية أن مراقبة الأداء ومحاسبة المقصر من أهم أسباب النجاح والتقدم المؤسسي.

الأسباب الخارجية:

بعد ذكر أبرز الأسباب الذاتية الداخلية للفشل التنظيمي والإداري سأذكر أبرز الأسباب الخارجية... وأقصد بالأسباب الخارجية ما كان خارج المناطق المحررة

أو مناطق سيطرة المعارضة، أو ما كان خارج قدرة قوى الثورة والمعارضة، وليس خارج سوريا فقط، وهذه الأسباب كثيرة أيضاً، وسأقتصر على ذكر أهمها، وهي:

١- القصف المستمر:

القصف المستمر من قبل النظام وحلفائه بأسلحة ذات قدرة تدميرية عالية، ومنها ما هو محظور دولياً، مما جعل العمل في ظل هذه الأجواء خطراً للغاية، فكانت حالة اللجوء والنزوح الداخلي حالة مستمرة لم تتوقف إلى يومنا هذا، لكن تختلف صعوداً وهبوطاً حسب الأوضاع المتقلبة.

٢- عدم وجود حكومة موحدة:

لقد تم طرح تشكيل حكومة مؤقتة في المناطق المحررة، لكن لم يكن موقف أصدقاء الشعب السوري واحداً تجاهها، فكانت هناك تباينات من الدفع بها والتردد بدعمها والتعامل معها أو الاعتراف بها، نظراً لعدم تحقيقها لمصالحهم الخاصة، وعندما تم تشكيل حكومة مؤقتة في الخارج سعت كثير من الدول لوضع أسباب فشلها، إذ لم تشكل من القوى الحقيقية الممثلة للشعب السوري، مما أضعف فاعليتها، ولا سيما أنها لم تستوعب الداخل المحرر، فبقيت حالة مُشكلة من ضمن الحالات الكثيرة خصوصاً الجناح العسكري لها، مما أبقاها متناثرة تدار من قبل مدنيين عاديين، لا خبرة لهم ولا سلطة على الأرض، فبقي دورها جزئياً، أو بالأحرى بقيت بلا دور حقيقي في الواقع.

٣- اختلاف الرؤى والأهداف لدى دول الأصدقاء:

وكان هذا من أسباب إفشال الحالة التنظيمية للمناطق المحررة، إذ لم يكن الحرص الخارجي -ممن سُموا أصدقاء الشعب السوري- على التعامل مع

وبسبب احتداد الصراع، اضطّر كثير من السوريين لمغادرة بلادهم إلى مخيمات اللجوء في البلدان المجاورة، أو السعي للهجرة إلى أوروبا، فظهرت بأثر ذلك حقول دلالية جديدة، انتشرت بقوة بين السوريين، فبرزت لفظة «المهْرَب» بظلال جديدة، غير تلك المرسومة في الذهنية السورية، فهـ «المهْرَب» الجديد: هو ذاك الذي يتكفل بنقلك عبر ممرات آمنة بعيدة عن درك الحدود في الدول المجاورة، أو يؤمّن لك وسيلة الوصول إلى أوروبا عبر ممرات مائية معروفة، وقد ذاع صيت الـ «بَلَم» بشكل غير مسبوق بين أوساط الشباب، وكل الطامعين بالوصول إلى بر الأمان الأوروبي، للدلالة على القارب المطاطي الذي يذهبون به إلى دول أوروبا.

ومن الملاحظ أيضًا أن كثرة «المعارضات» وتشتّتها في البلاد خلق تصنيفات جديدة لها، فظهر لدينا مصطلح «معارضة الداخل» ومعارضة «الخارج»، وأسهمت الآلة الإعلامية للنظام ومؤيديه بنشر هذه التقسيمات وتسويقها عالميًا بهدف خلخلة جبهة المعارضة، وإظهارها منقسمة متباينة في مقابل تماسك جبهة النظام وتآلف مكوناتها، وخاصة بعد انطلاق مسيرة المفاوضات.. ويمكننا أن نسلّك في هذا الحقل الدلالي أيضًا مصطلحان آخران، وهما: «ثَوَارُ الخَنَادِقِ» و«ثَوَارُ الفَنَادِقِ»، وأزعم أن هذين المصطلحين ما برزا إلا في ظل التراشق الكلامي بين الفصائل العسكرية المرابطة على الأرض، والاتّلاف والحكومة المؤقتة في الخارج.

وقد كان للحضور اللافت للمقاتلين والمجاهدين من غير السوريين حضور بارز وفاعل في كثير من الأحيان، وقد توزع هؤلاء على طرفي الصراع، فحمل كل فصيل أو جماعة من هؤلاء أسماء كثيرة، اكتظت بهم الساحة السورية، ورفرت راياتهم وأعلامهم في كل مكان، ولم يكتف هؤلاء بالتأثير في الأرض فحسب، بل نقلوا بعض لسانهم وأهازيجهم وأغانيتهم وعاداتهم في الملبس والمأكّل والمشرب، وبسبب يعود إلى قوة هؤلاء الأغراب، وشدة تأثيرهم في القرارات العسكرية للطرفين، فقد تسللت بعض ألفاظهم ومفرداتهم إلى لغة السوريين، تجد ذلك في مثل: «الأفغاني»، وهو الزي المنتشر في أفغانستان، وربما أطلق عليه «الشيشاني»، وأحياناً يذكرونه بصيغة التأنيث: الأفغانية، والشيشانية... وقد انتقل بشكل ملموس إلى بعض المجاهدين العرب المتشبهين بهم، وأصبحت لفظة «الأفغاني» دارجة بينهم كانتشار الزي نفسه، وقد تباين موقف السوريين من هؤلاء القادمين إليها بهدف الجهاد تبايناً شديداً، فأطلق عليهم بعضهم لقب «المُهاجرين» تكريماً لهم، وتقديرًا لجهادهم، ولكن بعد مرور الوقت وتكشف بعض حقائق «المُلتجئين» منهم، بدأ بعض الناس يرتابون فيهم، ويتوجسون منهم، و«الملثمون» مصطلح أخذ يروج كثيرًا في

وهي كلمة «الْمُنْجِبُكِيَّة»، وهي منحوتة من قول السوريين: «مِنْجَبُك» أي: «نحن نجبك»، وكان المعارضون يسمون بها المؤيدين.

وتأتي عبارة (الله يَظْفِيهَا بنوره) مصطلحًا يندرج كذلك في مساق الفرز الحاد بين السوريين، ويطلق هذا المصطلح عادة على جماعة هي أقرب إلى الرماديين الذين أثروا عدم الاصطفاف إلى أحد فريقَي الصراع، وإن كان جمهور المعارضين يعدّون هذه الفئة مؤيِّدة صامتة.

أما كلمة «الْمُنْشَقُّ»، فقد ظهرت في بداية عسكرة الثورة، حيث بدأ بعض ضباط الجيش ينشقون عن المؤسسة العسكرية، وينضمون لجموع المعارضة، مشكلين نواة لما أطلق عليه آنذاك مصطلح «الجيش الحر».

وقد تكون كلمة «الشَّيْبَح» أشهر المفردات التي درجت على الألسنة، وتعني المؤيد المتشدد في تأييده، أو ذاك الذي يقدم خدمات موازية لأعمال جيش النظام، -ومثلها ما أطلق عليه: قوات الدفاع الوطني- وقد صرّف السوريون هذه المفردة، فاستعملوا منها المصدر، وهو الشَّيْبَح، والماضي والمضارع والأمر، فقالوا: شَبَّحَ - يُشَبِّحُ، وهكذا، والتشبيح ليس جديدًا في سوريا، بل له جذور ترجع إلى أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات عندما كان «التَّهْرِب» مقصورًا على فئة من فئات المجتمع، تستحوذ على هذه التجارة المحرمة، والتي تدر عليهم أموالًا طائلة في جميع المحافظات، وقد كان هؤلاء المهربون يستخدمون سيارات المرسيدس «الشَّيْبَح» المظلمة، ومن كلمة «الشبح» هذه جاء مصطلح التشبيح.

وبعد اشتداد الصراع، استخدم جيش النظام كل أنواع الأسلحة التقليدية المعروفة بأسمائها، ولكن سلاحًا جديدًا استعمله، سلاح الجو، فقد فكك بالشعب فكًا عظيمًا، ودَمَّر البيوت وأحرق الأخضر واليابس، ذاك هو «البراميل المتفجرة»، وهو مصطلح جديد نسبيًا، وقد ذاع صيته بين السوريين؛ لما كان له من قوة تدميرية غير منضبطة أو مركزة، وبالمقابل حاولت فصائل المعارضة المسلحة أن ترد بما توفر لديها من أدوات، يمكن استخدامها في الرد، فابتكرت ما أطلق عليه: «مَدَافِع جَهَنَّم»، وهي عبارة عن أسطوانة غاز، يقذفها مدفع معد لهذا الشأن.

وخلال سيطرة هذا الفريق أو ذاك على الجغرافيا السورية أصبح الرمز بالألوان دلالة واضحة على القوى الفاعلة على الأرض، فاللون الأحمر يرمز للنظام، والأخضر للمعارضة، والأسود لداعش، والأصفر للفصائل الكردية، وأضحى وصف الأرض بـ«العدوّ» و«الصادق» إشارة لتبادل السيطرة على هذه المنطقة أو تلك، وتختلف الرؤية هنا باختلاف المتحدثين.



حُقُولٌ دَلَالِيَّةٌ اسْتَحْدَثَتْهَا الثَّوْرَةُ السُّورِيَّةُ

الدكتور عبد السميع مصطفى الأحمد
باحث وأكاديمي سوري



ومن المفردات المستحدثة أيضًا كلمة: «العَرَاعِيرُ»، وهي جمع لكلمة «عَرُور»، ويقصدون به الشيخ عدنان عرور، الذي كان من المجيشين للثورة في بدايتها، وتشبه مفردة العراعر المفردين، وهي في الأصل نسبة لمؤسس جيش الإسلام، زُهران علوش، وقد أصبحت مفردتا «العراعر» و«العلاليش» تطلقان -تهكمًا واستهزاء- على إسلاميي المجاهدين كلهم.

أما النوع الثاني من النقل والتوسع في الحقول الدلالية فكثير جدًا، وتأتي في مقدمة هذا النوع مفردة «الحَرِّيَّة» ومشتقاتها التي أصبحت ملازمة لكل ما يتصل بالمعارضة الثائرة، مثل: الجيش الحر، وأحرار الشام، ومجلس حلب الحرة، واتحاد كتاب سوريا الأحرار، وهكذا..

وتكاد تكون كلمتا «المُنْدَس» و«الرجل البخاخ» من أوليات هذه المفردات التي راجت في الأيام الأولى للثورة، أما «الرجل البخاخ» فهو ذلك الحر -رجلاً كان أو امرأة، شاباً أو فتاة- الذي يقتنص فرصة الظلام وانسدال الليل على البيوت، فيتطوع بالخروج متنكرًا في غفلة من العيون، لكتابة عبارات تدعو للحرية والانتفاضة والثورة على جدران المدارس وأفواه الأسواق والمباني الرسمية... وأما لفظة «المنندس» فقد استعملها إعلام النظام بقوة في الأيام الأولى للحراك الثوري في سوريا؛ للتهوين من شأن هذا المسار، والتقليل من أعداد المنادين بالحرية، وتقزيم الزخم المعارض آنذاك، وظلت أبواق النظام تَصِرُّ -ببلاهة وصلف- على هذا «الاندساس» حتى بعد أن ملأت أعداد الثائرين الساحات وأغلقت الشوارع، مما أثار موجة من التفكك والتندر بين الجماهير.

وبعد كلمة «المنندسين» تجيء كلمات: «المؤيدين» والمعارضين والرماديين» بعدها فرزًا طبيعيًا للشعب السوري وموقف أفرادها من الثورة، ويمكننا كذلك أن نسلك في هذا السياق أيضًا مفردة أخرى تدور في فلك هذا الحقل الدلالي،

غالبًا ما يصاحب الأحداث الجلى تغييرات كثيرة على مستويات متنوعة في مسيرة الدول والأمم، ومن شأن المختصين والمراقبين على اختلاف اهتماماتهم استجلاء هذه التطورات ورصدها ومراقبتها في المجتمعات التي تتعرض لمثل هذه التغيرات، واللغة بعدها كائنًا اجتماعيًا متطورًا تمثل أحد هذه المنحنيات القابلة للتغيير والتطور بوتائر متفاوتة، من لغة إلى أخرى، ومن أمة إلى أمة، ومن مجتمع إلى آخر، بحسب قوة هذا الحدث، وشدة تأثيره في الأفراد.

ومما لا شك فيه أن الثورة السورية تعد نموذجًا حيًا لدراسة مثل هذا التطور؛ لما حفلت به من أحداث، وحملته من عظام، وصاحبها من مأس.

وقد حاولت تتبع تأثير الثورة السورية في اللغة، فوجدت أن جُلَّ ذلك ينصب بشكل كبير على استحداث ألفاظ جديدة، ونقل الحقل الدلالي، وتكاد تكون معظم التحولات اللغوية منضوية تحت هذا السبب الأخير.

فمن النوع الأول؛ وهو الاستحداث، نجد مثلًا كلمات جديدة لم تكن مستعملة في اللغة الفصحى والعامية السورية، ومن ذلك: «دَاعِش»، و«هَيْش»، و«قَسْد...»، وهذه تعد من المصطلحات التي تقوم على النحت، وهو ضم حروف كلمات معينة لإنتاج لفظة واحدة من أوائل هذه الكلمات، أو أواخرها مثلًا، وهي طريقة مألوفة في العربية، وإن كانت اللغات الأخرى أكثر استعمالًا لهذا النوع من التطوير، ومن المصطلحات الشهيرة في ذلك «حماس» و«فتح»، ف«حماس» مثلًا مؤلفة من أوائل الكلمات التالية: حركة المقاومة الإسلامية، وأما كلمة «فتح» فجاءت من معكوس كلمات: حركة التحرير الفلسطينية.

وإذا عدنا إلى ألفاظ الثورة السورية نجد مثلًا أن «دَاعِش» جاءت اختصارًا للأحرف الأولى من كلمات: الدولة الإسلامية في العراق والشام. وجاءت «هَيْش» من حروف: هيئة تحرير الشام، كما جاءت «قَسْد» من: قوات سوريا الديمقراطية.



الأستاذ نبيل شبيب
كاتب وإعلامي سوري

حرية القلم الإعلامي في وسيلة إعلام إسلامية

الانفصام بين ما نصنع ونتوقع..
وما ينبغي أن نصنع ونتوقع

والتضحيات والإخفاقات، مرة بعد مرة، ومن ذلك ما واكب مسارات أحداث طاحنة، أثناء تدفق أمواج مقاومة الغزاة، والانتفاضات التحريرية، ثم الثورات الشعبية العربية، وما قابلها من سيول التحرك الجارف المضاد محليا وإقليميا وعالميا.

يكفي هذا -وبعضنا يؤكد ضرورة «المراجعات» عموما- لبيان أهمية النظر في معنى ما بدأ به هذا المقال من ادعاء وجود انفصام في الإعلام الإسلامي بين ما نصنع ونتوقع فعلاً.. وما ينبغي أن نصنع ونتوقع، ولا ينفصل المطلوب هنا عن نسيج جهود كبرى ضرورية للارتقاء إلى مستوى وجودنا أمام بوابة دورة حضارية جديدة، نزع من أننا نحمل قسطا كبيرا من المسؤولية عن الدفع بعجلاتها في الاتجاه الصحيح.

ولا يكفي للنظر فيما سبق سبك «مقال».. وإن قيل إن البلاغة في الإيجاز، وكان الحديث مقتضرا على قسط محدود من جانب جزئي يشير إليه مطلع المقال، من أصل قضية أكبر وأوسع، تتطلب دراسات محكمة وبحوثا استقصائية وإبداعا في التفكير والتحليل والاستنتاج وصياغة اقتراحات ومبادرات عملية.

ومن الضروري الإشارة إلى أن الفقرات الآتية تحت عنوان (حرية القلم الإعلامي في وسيلة إعلام إسلامية) لا تتعرض:

- لإجازة نشر المواد في نطاق إعلام تخصصي عبر آلية منهجية علمية دون إفسادها بخلط المعايير العلمية بموقف

مقدمات

قبل الدخول في صلب الموضوع، نرصد أن الإعلام لم يعد كما كان.. ولا العمل للإسلام كما كان.. ولا واقع العالم والعصر كما كان.. ولكن ما نزال، أو ما يزال كثير منا، يتعامل مع الإعلام، باسم العمل للإسلام ودعوته، بأساليب متخلفة (معذرة) نخطئ إذا اعتبرناها مستمدة من الإسلام نفسه.

ينعكس ذلك في صورتين متقابلتين:

(١) ممارسات إعلامية (حرّية.. أو متعدّية على المهنة!) تحمل عناوين إسلامية، فقدت مفعولها وضعف تأثيرها في الفئات المستهدفة؛ إذ لا تنسجم مع رسالة «الإعلام العام» وأهدافه المتنامية، ومتغيرات الظروف المحيطة به، ولا ترقى إلى مستوى طموحات ما ينبغي أن يصنعه من يعمل للإسلام في عالمنا هذا وعصرنا هذا.

(٢) توقعات غير موضوعية تقيس العطاء الإعلامي تحت عنوان إسلامي بتطلعات تعجيزية، أو لا تندرج في قائمة أهداف وسيلة «إعلامية إسلامية» بعينها، فتخيب آمال أصحاب تلك التوقعات وتنتشر الانتقادات، ناهيك عن انتقادات «جاهزة» ينشرها من لا يقرأ ولا يطّلع ولا يتابع أصلا.

هذا.. ونؤكد جميعا «أهمية الإعلام العام».. ونعلم ما يعنيه وبأدواره المؤثرة في صناعة الحدث.. إيجاباً وسلباً، وهذا ما أصبحنا شهودا عليه، وذقنا طعمه بنكهة الدماء والآلام،

كينائيًا، وعلامة مسجلة في الأيام القادمة - هي لفظة: «ضفدع»، و«الصفادع»، ويكني بها السوريون عن تلك الخلايا النائمة، أو العملاء المندسين من رجالات النظام في مناطق المعارضة، وقد جاءت اللفظة من شخصية الشيخ «بسام ضفدع» الذي ظل مقيمًا في بعض مناطق الغوطة الشرقية، حتى حاصرها جيش النظام، فأعلن حقيقته وحمل السلاح مع تلامذته وقام بطعن الجيش الحر في ظهره.

ومن المصطلحات العلمية الكبيرة التي تمخضت عنها الثورة السورية كذلك: مصطلح «الإعلام البديل»، وهو يقدم نفسه للجمهور بعده بديلاً لإعلام النظام، وفرنًا طبيعيًا لما تمخض من حراك إعلامي يناصر الثورة ويدعو للتحرر، ويطالب بحقوق الشعب المسلوبة منذ سنين... وقد نشأ هذا الإعلام ردًا على آلة النظام الإعلامية التي احتكرت الفضاء، وسيطرت على الحرف والكلمة المكتوبة أو المسموعة أو المرئية^(٢).

ويظل - في الختام - مصطلح «القُبَعَاتُ البَيْضَاءُ» أجمل المصطلحات التي أفرزتها الثورة، وأنقاها وأطهرها، فالدفاع المدني السوري - ويعرف أيضًا باسم الخُوذُ البيضاء - منظمة دفاع مدنيّة تطوعية تعمل في مناطق سيطرة المعارضة في سوريا، وقد تأسست عام ٢٠١٣م، وتتألف من ثلاثة آلاف متطوع سوري مدني تقريبًا، وتهدف إلى إغاثة المتضررين جراء الحرب، وتعدّ المنظمة نفسها حيادية وغير منحازة، ولا تتعهد بالولاء لأي حزب أو جماعة سياسية^(٣).

وبعد، فهذا أسّ بحث صغير، هدفه التأريخ اللغوي لحقبة تاريخية مفصلية، ومنعطف زمني مهم من أخطر المنعطفات في تاريخ سوريا الحديثة والمنطقة برمتها، والتأريخ اللغوي ليس منفصلًا عن المجتمع، ولا معزولًا عن البيئة، بل هو وثيق الصلة بالامة وهموم أبنائها، يعبر تعبيرًا صادقًا عن عاطفة الشعوب ونبض وجدانها، ويمثل تمثيلًا دقيقًا آلامها وآمالها.

ولا أدعي أنني استوفيت كل ما استحدثته الثورة السورية في هذا البحث الصغير من ألفاظ ومفردات ومصطلحات، وأنى لي ذلك؟ بل هو - كما أسلفت - أسّ بحث، يمكن تطويره وتوسيعه والبناء عليه، عبر إضافة مفردات لم نتطرق لها، وحقول دلالية لم نمرّ عليها، ويمكن للباحثين والمهتمين بتأريخ رحلة اللغات واللهجات أن يبنوا على مثل هذا البحث، أو يطوروا هذه الدراسة، لعلها تكون لبنة في مداميك لغة الثورة، وتاريخًا لهذه الحقبة المفصلية في تاريخ سوريا الحديث^(٤).

المناطق المحررة، وهو وإن لم يكن مختصًا بالمهاجرين، غير أنهم يشكلون نسبة لا بأس بها بينهم، وقد ظهر موازيًا لهذه الحقبة أيضًا مصطلح آخر، وهو مصطلح «الإخوة»، ويبدو أنه كان شبه محصور تقريبًا في الفصائل ذات التوجه الإسلامي، وقد كانت ردة فعل عموم السوريين بعد انكشاف حقيقة داعش وأفرادها الذين كانوا يتخذون الدين مطية لتنفيذ مآرب أخرى أن أطلقوا على هؤلاء مصطلح: «خَوَارِجُ العَصْرِ»، وهو مصطلح يذكرنا بتلك الجماعة التي برزت في آخرّة من العصر الراشدي، وكان لها تأثير سلبي دموي في غالب الأحيان.

ومن المفردات الغريبة التي وجدت طريقها إلى المجتمع السوري، وتعبّر بمرارة عن واقع أليم تعرض له السوريون في ظل غياب الأمن، وظهور عصابات مارس كل أنواع الجريمة، كلمة «التَّشْوِيل»، بشين ثقيلة (ch - ق) والشوال - باللهجة الحلبية - هو الشوال أو الجوال في غيرها، وهو كيس من الخيش، معدّ في الأصل لتعبئة الجبوب وغيرها، ولكن أصبح لهذه المفردة في ظل هذه الظروف حقل دلاليّ جديد، إذ يقصدون بها ما يقوم به بعض الشبيحة والعصابات، وربما بعض الفصائل المقاتلة التي تسيطر على الأرض كذلك... و«تجويل» أو «تشويل» شخص ما؛ يعني اعتقاله في النهاية، بأي طريقة أو كيفية تم ذلك الاعتقال، وقد اشتق من هذه الكلمة الجامدة تصرفات متعددة، كالفعل الماضي والمضارع وفعل الأمر.

أما كلمة «التَّعْفِيش» فقد تحدثت عنها مرة في تغريدة، فقلت: تأتي كلمة «عَفَش» في اللغة العربية بمعنى «جمع»^(٥). ويبدو أن كلمة «العَفَش» جاءت من هذا المعنى، وقد استعمل لغويو الثورة السورية هذا الفعل بالتضعيف «عَفَش» بمعنى: «أزال العفش»، ومثله «قَشَر»: أي: أزال القشر، وقد انتشر مصطلح «التعفيش» بمعنى سرقة عفش بيوت المهجرين من قبل جيش النظام وعناصر الميليشيات المساندة له بعد اضطراب سكان المناطق التي يسيطرون عليها لمغادرة منازلهم وبيوتهم.

ولأنني أتحدث عن تهجير سكان المناطق التي يسيطر عليها النظام، فإن هناك مصطلحًا آخر انتشر انتشارًا واسعًا في هذا الصدد، وهو «الباصاتُ الخُضْرُ»، وهو مصطلح راج في أوساط النظام ومؤيديه بعد أن بدأت كفة المواجهات تميل لصالحهم، ويريدون به تلك الحافلات التي تُقلّ المهجرين وعائلاتهم من مناطقهم التي كانوا يعيشون فيها ويسيطرون عليها، إلى مناطق جديدة ما زالت تحت قبضة المعارضة، وغالبًا ما تكون في الشمال السوري.

وتأتي أحدث مفردات الثورة السورية التي أخذت طريقها للبروز منذ فترة قصيرة، -ومن المؤكد أنها ستصبح رمزًا

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة «عفش».

(٢) ينظر: SUEMds7/y1.tib//:spth

(٣) ينظر: gro.aidepikiw.m.ra//:spth

(٤) سأكون شاكرًا لكل من يتواصل معي لتقديم الجديد النافع في هذا المجال من خلال البريد الإلكتروني،

أو صفحتي في فيسبوك، (moc.liamtoh@3mas-a)

الأساسية تجاه منظومات الاستبداد والهيمنة محلياً وعالمياً، وهو أحد جوانب تميّز الوجه «الأصيل» لمشاركة الدعوة الإسلامية القويمة في مسلسل المقاومة والانتفاضات والثورات في بلادنا وعالمنا المعاصر، مقابل ما كان من وجوه «دخيلة» هجينة ومستهجنة.

علاوة على ذلك:

لو اتسع المجال لدراسة أو أكثر، فيؤمل أن يصل فريق «اندماجي» من الخبراء المتخصصين في علوم الشريعة وعلوم الإعلام والنشر، مع من يرفدوهم بتخصصات تكميلية مساعدة، إلى ما يثبت، وفق المعايير العلمية، أن مثل هذه «الرقابة المسبقة» لم يكن لها أي وجود نظري أو تطبيقي في العهد النبوي الأول في التعامل مع ما يمكن اعتباره -مع مراعاة اختلاف العصر والمعطيات والظروف والوسائل- صيغة من صيغ الإعلام والنشر.

بل لعلنا نجد في ذلك العهد شواهد من أحداث السيرة تنقض ممارسات الرقابة المسبقة.. أو الحظر والحجر المسبق عمومًا، ومن ذلك تنويهاً دون تفصيل:

- اعتراض «المجادلة» وخوضها دفاعاً عن حقها في الجدل «العلني» مع من لا ينطق عن الهوى..

- الاعتراض «العلني» أيضاً من فتاة لم تُسأل مسبقاً بشأن تزويجها بمن طلب يدها..

- شتيمة «يا ابن السوداء» بحضور كرام الصحابة، ثم عدم تلقي عقوبة «شرعية» على ذلك الخطأ في التفكير والتعبير، والاكتفاء في توصيف السبب بأسلوب تربوي، أنه «خصلة من الجاهلية»..

- الامتناع عن ممارسة العقوبة المستحقة، حتى على منافق تطاول على المقام النبوي وابتغى الفتنة في المدينة المنورة وهو يتوعد بأن «يخرج الأعزّ منها الأذل» بعد معركة أحد..

إن الحديث عن ذلك في نطاق مقال قصير هنا لا يقطع باعتبار الشواهد «ممارسات إعلامية» أم لا، بل المرجو منه محض الإشارة إلى أمثلة تسمح بدراسة قد تصل إلى نتيجة ينطلق منها كاتب هذه السطور، ومؤداها:

لم يعرف العهد النبوي وجود ما يحظر التعبير بحرية عما يراه الفرد ولو جانبه الصواب، أما إن أخطأ في استخدام هذه الحرية فتعدّى حدودها إلى المساس بحق فرد آخر أو حقوق المجتمع، فآنذاك يسري في التعامل مع ارتكاب الخطأ: العفو التربوي قدر الإمكان، أو العقوبة المشروعة بقدر الضرورة وفي حدود ما يتناسب مع درجة ذلك الخطأ وضرره.

ينتزعون لأنفسهم حرية الكلمة الإعلامية انتزاعاً، من محترفين وهواة، كما ارتكبت جرائم تدمير وسائل التعبير والنشر «المتمردة» قصفاً مباشراً أو خنقاً مادياً وحصاراً.. ولكن بات مسلسل هذه الجرائم يؤدي إلى نقيض المقصود منه، فهي تضاعف أعداد «الإعلاميين المتمردين» وتثير مزيداً من «الإعلام» حول قضية «الحرية الإعلامية» التي دفعت الرغبة في وأدّها إلى ارتكاب تلك الجرائم.

لم تعد حتى الجرائم المباشرة قادرة على «وقف» مسيرة تحرر الإعلام من قيود الحظر بمختلف أشكالها:

- قيود تقليدية من جانب السلطات في كيانات مارقة تسمي نفسه «دولاً» أو في دول تزعم احتكارها هي لتطبيق الحريات الإعلامية ثم لا تتردد عن تقييدها وتوجيهها بأساليب الهيمنة المادية..

- وقيود غير تقليدية أخطر شأنًا؛ إذ يستخدمها كل ذي سلطة ما، وتعتمد على توظيف آليات «حريرية الملمس»، تزرد شبكات حديدية من رقابة ذاتية، أو من مبررات مبتكرة، لعمل «مقص الرقيب» فتلتقي في نهاية المطاف مع ممارسات السلطات الاستبدادية وأغراضها.

المقصود هنا هو الاستناد في أي عملية حظر إلى ممارسة الوصاية على أفكار.. وعادات.. ومعتقدات.. ومسلمات وبدهيات موهومة.. تقديساً أو تدنيساً.

إن الرقابة المسبقة لحظر حرية الممارسة الإعلامية تعايش على أرض الواقع انهيار دعائمتها، رغم ما نشرته من أجواء الرعب من المهرجات ومناهات التضليل في حمأة المبررات، وقد فقدت تلك الرقابة المسبقة جدواها، إن لم نقل انعكس مفعولها.. ولهذا على الأقل:

لا ينبغي أن ينزلق أي عمل إعلامي رصين يحمل عنوان «الإسلام» إلى ممارسة ما لا جدوى منه، وما أصبح ضرره أكبر من نفعه.

للتذكير مرة أخرى.. المقصود هنا هو «الرقابة المسبقة» وليس معايير مدروسة وآليات فاعلة، تنطوي على قدر كافٍ من ضمانات النزاهة والعدالة، للمتابعة ثم المحاسبة لأي عطاء إعلامي بعد نشره.

المؤشر الثاني:

الإعلام تحت عنوان إسلامي، الحريص على الكلمة الطيبة.. السديدة.. الصالحة.. الخيرة.. الصادقة.. الهادفة.. الملتزمة.. أحق من سواه بالعمل من أجل إنهاء مختلف أساليب الرقابة المسبقة على النشر في الإعلام العام، فهذا أحد المطالب

ذاقي تجاه «رأي» مخالف تشمله المواد المعنية..

- أو لاعتبارات استثنائية لشخصية طبيعية أو اعتبارية تشغل موقع الناطق الرسمي باسم جهة سياسية أو تجارية أو ما شابه ذلك..

- ولا تتعرض لما يسمى «ميثاق شرف» إعلامي بنود قيمية وأخلاقية..

لجميع ذلك وأشباهه قواعد دقيقة ليست موضع الحديث هنا بصيغة خواطر معدودة تتناول إجازة المعلومة العامة والرأي العام في وسيلة إعلامية عامة، ذات عنوان إسلامي، والسؤال:

كم ذانعلن من منطلق إسلامي رفض تقييد الإعلام في بلادنا خصوصاً عبر مقص الرقيب ووسائل أخرى، ومن دواعي المصادقية القول: إن الرقابة المسبقة على حرية الكلمة في إنتاج إعلام إسلامي موجودة، فكيف نلغيها ليكون إسلامياً فعلاً، ويكون إعلاماً بحق؟

أين الخلل؟

يعتذر كاتب هذه السطور إن أطال في المقدمات.. ولكن يوجد ما يدفع إلى ذلك من احتمالات «سوء فهم أو سوء تفاهم أو حساسيات ما» فيحاول وضع إطار دقيق قدر الإمكان، ومن ذلك الإقرار أن السؤال المطروح يتجاوز مسائل تسبقه موضوعياً وتحتاج إلى إجابات، مثل البحث عن مقارنة فيما يطرح من صياغات مختلفة لتعريف المفردات الواردة «الرقابة، حرية الكلمة، الإعلام، الإعلام الإسلامي»، وأهم من ذلك:

ما الذي يصلح لترجيح الأصح في تعريف هذه المفردات وتطبيقها، بمعيار ما هو أقرب إلى الصواب موضوعياً وأكثر إقناعاً على أرض الواقع؟

هل يصلح لذلك الاعتماد على المتخصص بالشريعة أو المتخصص بالإعلام؟ وعبر الاستشارة أم القرار؟ ولئن اجتمع الطرفان على أمر، ما الذي نحتاج إليه في رد الموضوع من خارج إطار تخصصات الشريعة والإعلام، أي من قطاعات التربية والسياسة وعلم النفس والاجتماع وفنون الإنتاج الإعلامي وملحقاته وتقنياتها، وما شابه ذلك، فنحن نعلم أن عالمنا تتداخل فيه التخصصات وتكامل، مضموناً ومفعولاً!

إذا تجاوزنا مسألة حق كل وسيلة إعلامية أن تستكتب من تريد وأن تعاقده تحريرياً مع من تريد، فإننا نعلم بوجود رقابة مسبقة على هؤلاء أيضاً، وحدها الأدنى هو تنفيذ قرار يجري اتخاذه من جانب جهة معتمدة لذلك، تحكم على تعبير إعلامي مكتوب أو مصور قبل نشره (للتذكير: الحديث هنا

عن إعلام الرأي).

من جوانب الإشكالية أن غالبنا لا يدرك أو لا يتبنى قاعدة تقول باستحالة انفراد «شخص» أو «مجموعة» أو «تخصص» بعينه في احتكار صواب الحكم على قضية ما (والإنتاج الإعلامي العام يشمل مختلف القضايا) بعد أن تحول عالمنا إلى «قرية صغيرة» في دنيا الاتصالات، وإلى «دار مشتركة» تجمع بين أبعادها الستة ما لا يُحصى من التخصصات المتفرعة والمتشابهة.

قد يكون «محتكر الصواب» محققاً من الناحية الشكلية، أي داخل نطاق زاوية تخصصه وفضاء تواضعه، ولكن لا يفيد ذلك ما دام الموضوع المعني أوسع نطاقاً بمضمونه وتأثيره من أن يُحبس وراء جدران تخصص بعينه.

” الرقابة المسبقة لحظر حرية

الممارسة الإعلامية تعايش على أرض

الواقع انهيار دعائمتها، رغم ما نشرته

من أجواء الرعب من المرهبات ومتاهات

التضليل

هذا مجال يحتاج للتأمل بما يتجاوز المطلوب في هذه الخواطر، وهو محض لفت الأنظار إلى مؤشرين اثنين بمنزلة «التمهيد» لمن يُرجى أن يعملوا على استنباط محددات مدروسة لإلغاء الرقابة المسبقة على حرية الكلمة في إنتاج إعلامي إسلامي، ليكون إعلاماً بحق، ويكون إسلامياً فعلاً.

المؤشر الأول:

نعايش على أرض الواقع أن أصناف الرقابة المسبقة -ومن أدواتها: السماح.. والحظر.. والتعديل.. والحذف- قد فقدت مغزاها وجدواها، وأخفقت وسائلها التقليدية وغير التقليدية، الشديدة والناعمة، المتبعة عموماً قبل انطلاق الثورات الكبرى المتتالية في عالم الاتصالات والتواصل، ثم ما أضيف إليها حتى اليوم.

بتعبير آخر؛ لم يعد يوجد في عالمنا وعصرنا أي جدار يمكن اعتماده لمنع تحليل «الكلمة» فوق الأسوار أو منع تناقل «التعبير» عموماً، بالكلمة والصورة والسلوك.

بل ارتكبت جرائم الاستئصال بالقتل أحياناً، وبالاعتقال والتعذيب والتشريد أحياناً أخرى، واستهدفت كثيراً ممن

الفارابي عن أفلوطين، وهو تصور محض خرافة وجهل بالله ومخلوقات الله، وإن نبوغ اليونانيين في الرياضيات أو الطب أو علم الفلك لا يعني أنهم كذلك في الإلهيات^(٨)، بل هم أجهل الناس بالإلهيات التي يجب أن تتلقى عن الأنبياء، والحقيقة أن الفلسفة التي تسمى (إسلامية) استجلبت نظاماً كاملاً من المفاهيم الأجنبية لا شأن لها أصلاً باللغة العربية أو برؤية الإسلام للعالم، ولما أراد هؤلاء الفلاسفة التوفيق بين الدين والفلسفة وإيجاد مصطلحات مناسبة لذلك -مع أن المفاهيم أجنبية- حدث التناقض والتشويش، لأنه من الصعب إيجاد مقابل تام في اللغة العربية لمصطلح يوناني، وقديماً اشتكى الخطيب الروماني الشهير (شيشرون)^(٩) من صعوبة التعبير باللاتينية عن المفاهيم الإغريقية.

ولعل من الآثار السلبية لنقل المصطلحات بلا تتبع مصدرها وسبب نشأتها -بحسب رأي البعض- ما وقع للمسلمين من استعمال المصطلحات الإغريقية التي تفسر الوجود كله في إطار (الجواهر والأعراض) وما يعرض لها من حالات، واستخدام هذه المصطلحات في علم الكلام.

النقل والترجمة في العصر الحديث:

إننا إذا ما انتقلنا إلى العصر الحديث فسوف نجد أن المشكلة تتكرر -وربما بشكل أوسع- ودون أن ننتبه إلى ما تلقي الكلمة المستوردة من ظلال على واقعنا اللغوي والمعرفي، وما المفاهيم الكامنة وراءها، وما لها من معان عند القوم غير موجودة في ثقافتنا.

ثم زدنا على ذلك فقمننا بترجمة المصطلحات الأجنبية ترجمة حرفية، فمصطلح (الأصولية) الذي شاع أخيراً في الصحافة والإعلام وعند بعض الكتاب؛ إنما هو ترجمة حرفية لكلمة (Fundamentalism)، التي تشير في المعجم الغربي بالدرجة الأولى إلى التفسيرات الحرفية البروتستانتية للعهد القديم والعهد الجديد، وهكذا نجد أن الأصولية والحرفية مترادفتان في المفهوم الغربي، أما في السياق العربي الإسلامي فلا أمر مختلف جداً، فالحرفية تعني عدم إعمال العقل أو الاجتهاد، وهذا النمط غير معروف في الفكر الإسلامي، ويقال في التراث الإسلامي (أصولي) ويعنون بذلك المتمكن من علوم أصول الفقه، والأصول عندنا هو إطار علمي دقيق لعملية اجتهاد مستمر.

إن مصطلح (Religion) أي الدين عند الغرب يعني: التوجه الروحي للأفراد، أي أن الدين لا يتدخل في حياة الإنسان الدنيوية: السياسية والاقتصادية والحياة الاجتماعية، ويقال: إن

يُحاسب عليه، ولكن قد يُجبل على خلق معين كما في حديث وفد عبد القيس حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم لرئيس الوفد: «يَا أَشْجُ إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُجِبُهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، الْحِلْمُ وَالتَّوَدُّةُ» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْيَاءُ جُبِلْتُ عَلَيْهِ، أَمْ شَيْءٌ حَدَّثَ لِي؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ شَيْءٌ جُبِلْتَ عَلَيْهِ»^(١٠)، ولأنه قد تطلق الألفاظ وهي تحمل حقاً وباطلاً، فإذا نُفِيت فهذا يعني نفي ما فيها من الحق، وإذا أُثبتت فهذا إثبات ما فيها من الباطل، ولذلك لا بد من تحريرها، وإدراك ما تحمله من معانٍ، ومعرفة المقصود منها..

النقل والترجمة عن اللغات:

إن لكل أمة أوضاعاً ومصطلحات خاصة في لغتها، ولما كانت اليونانية قديماً لغة العلم، كما هو حال اللغة الإنجليزية اليوم، وكانتا مختلفتين تماماً عن العربية؛ وجب ترجمة معاني مفرداتهما ومصطلحاتهما العلمية ترجمة دقيقة لمعرفة ماذا يقصدون بهذه المفردة في ثقافتهم؟ وكيف نشأت؟ ولماذا؟ (فإنه عندما يفهم المرء المعنى الدقيق لكلمة ما؛ فإنه يفهم في غالب الأحيان كذلك الإشكالات التي تكون لها علاقة بهذه الكلمة)^(١١) يقول الدكتور زكي نجيب محمود: (قل أي جملة شئت، مهما بلغت بساطة مضمونها، ثم انقل هذا المضمون إلى لغة أخرى تجدك قد اضطررت إلى نقص هنا وزيادة هناك مما تقتضيه ثقافة تلك اللغة الأخرى)^(١٢).

وإذا كان العلماء والمفسرون قد كفونا مؤونة شرح بعض المصطلحات القرآنية المهمة وتحديداتها، مثل: (الجاهلية، الأمة، الحكم، الهجرة، الجهاد)؛ فإن عصر الترجمة في العصر العباسي الأول أدخل عبارات ومصطلحات هي نتاج ثقافة أخرى ولغة أخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها لفظ (العقل).

إن مصطلح (العقل) عند اليونانيين القدماء الذين تُرجمت كتبهم إلى العربية مغايراً لمعناه في القرآن الكريم، فإنهم يعنون بالعقل جوهرًا قائمًا بنفسه، ولكنه في المصطلح القرآني: إجراء ذهني يساعد على السيطرة وال ضبط والتحديد، وهو عملية رُشد وتمييز بين الهدى والضلال، ولذلك ورد ذكره في القرآن بصيغة الفعل (تعقلون) أي الممارسة لعملية التفكير والمقارنة، والعقل عند بعض الفلاسفة اليونانيين، وحسب نظرية (الفيض) عند أفلوطين -وليس أفلاطون- تعني التدرج من المصدر الأول (الإلهي) نزولاً إلى العقل الإنساني وهي عشرة عقول، ولها تعلق بالأجرام السماوية، وهذه النظرية أخذها

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في سننه، باب الحلم، رقم (٨٧١٤) بترقيم الأرنؤوط، وله رواية قريبة عند أبي داود، وجزءه الأول مروي في صحيح مسلم وغيره.
(٦) أريك فروم: حب الحياة، نصوص مختارة (١٨).
(٧) في حياتنا العقلية (٢٣١).

(٨) كمن يظن أن تقدم الغرب في العلوم المادية يجعله الحكم في العلوم التي تحل مشاكل الإنسان.
(٩) ماركوس تيلوس شيشرون خطيب وسياسي روماني ولد (٦٠١ ق.م) وتوفي (٣٤ ق.م).



المُصْطَلَحَاتُ وأثرها في الفكر الإسلامي

الدكتور محمد العبدية - عضو المجلس الإسلامي السوري



مقدمة

لا شك أن الخطوة الأولى في مسيرة الفكر السليم هي العناية باللغة تحديداً وفهماً وسياقاً؛ حتى يقوم البحث أو الحوار والتفاهم على أسس علمية واضحة جليّة، وحتى لا تنقلب الأمور إلى أضدادها ويستغلها صاحب الهوى (فإن ظلم الكلمات بتغيير دلالتها كظلم الأحياء بتشويه خلقتهم، كلاهما منكر وكلاهما قبيح)^(١)، ذلك لأن الألفاظ المبهمة الغامضة تربك الذهن وتشوش الفكر.. وإن من البلاغة أن تبين عن قصدك بالشكل الذي يجعل القارئ أو السامع يتفهم ما تريد، وعن أهمية الكلمة ووضوحها يقول الدكتور زكي نجيب محمود: (قد تكون الكلمة واضحة حين تجري في سياقها، لكنك إذا عزلتها وحدها ووضعتها في مخبر التحليل ألفتيتها تقاوم وتراوغ، فكانما اللفظة من هذه الألفاظ كائنٌ حي بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، تنصاع لفهمك إذا جعلتها جزءاً من عبارة، وكأنها وسيلة تتعاون مع غيرها على أداء معنى)^(٢).

لقد أدان القرآن الكريم محاولات أناس يلجؤون إلى الخداع اللفظي أو تعمد الغموض واللبس ليتسنى لهم تفسير اللفظة حسب أهوائهم وحسب الأوجه التي تناسبهم، فقال تعالى مخاطباً بني إسرائيل ناهياً إياهم عن الخلط والخداع الذي اتصفوا به: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ٤٢] وقال عنهم: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [سورة النساء: آية ٤٦] وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن لا يستعملوا كلماتٍ فيها خلط وفيها باطل مثل كلمة (راعنا) وأن يقولوا عوضاً عنها (أنظرنا) ذلك لأن اليهود كانوا يستعملون كلمة راعنا بطريقة ملتوية خبيثة، يقصدون بها قصداً سيئاً في مخاطبة الرسول صلى الله

عليه وسلم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: آية ١٠٤].

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين ليكون ذلك حماية له من التحريفات أو التأويلات الباطلة، فإن للغة العربية قدرة فائقة على تحديد المعاني بطريقة واضحة جازمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الزخرف: آية ٣] قال الشيخ ابن عاشور: (لأن أهل تلك اللغة أفهم لدقائقها، واصطفى رسوله من أهل تلك اللغة لتتظاهر وسائل الدلالة والفهم، فيكونوا المبلغين مراد الله إلى الأمم)^(٣)، وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَئِيِّنَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [سورة الزخرف: آية ٦٣] (والتبين هو تجلية المعاني الخفية لغموض أو سوء تأويل)^(٤)، وقد وصف القرآن الكريم أشرف الخلق محمداً صلى الله عليه وسلم بالعبودية فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [سورة الإسراء: آية ١] وذلك حتى لا يكون هناك أي التباس أو أوهم من بنوة أو أبوة كما وقع للنصارى في عيسى عليه السلام.

سوء التعامل مع الألفاظ:

إنه من الملاحظ أن كثيراً من التفرق والتحزب الذي وقع في الأمة إنما هو ناشئ عن سوء التعامل مع الألفاظ والمصطلحات، ولهذا منع العلماء من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة المشبهة، فعندما شاع مذهب الجبرية أنكر العلماء هذا المصطلح وقالوا: لا يجبر الإنسان على شيء ثم

(٣) التحرير والتنوير (١٠١/١٦١).

(٤) المصدر السابق، تفسير سورة الزخرف.

(١) البشير الإبراهيمي: الآثار الكاملة (٣/٨١).

(٢) ثقافتنا في مواجهة العصر (٢٩١).

تعني الخضوع لله مع المحبة، ولذلك وُصف أشرف الخلق في القرآن الكريم بصفة العبودية، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [سورة الإسراء: آية ١].

ومثل العبودية مصطلح (الهجرة) في الشرع، فهل يمكن ترجمته إلى الإنجليزية بكلمة (Immigration)، التي تعني الانتقال من مكان إلى آخر؟ لا شك في أن ذلك ليس ممكنًا في ظل دلالة الكلمة الإنجليزية على الانتقال الطبيعي من مكان لآخر، والذي يختلف تمام الاختلاف عن مصطلح الهجرة الشرعي؛ الذي يعني الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، أو من بلد لا يسمح للمسلم بإقامة شعائر دينه إلى بلد يسمح له بذلك.

وقل مثل ذلك في مصطلح (الجهاد)، فليس هو كما يترجم في الإنجليزية بتعبير (Holy war) الذي يعني الحرب المقدسة، فالجهاد في الإسلام يجب أن يكون في سبيل الله، وهو مصطلح شرعي له مفهومه الخاص وآدابه وشروطه، وعندما يترجم بـ (الحرب المقدسة) يفقد معناه وروحه، كما هو الحال في ترجمة الهجرة أو العبودية، فإنه إن لم يترجم المصطلح حسب ما عُرف في لغته الأصلية وما تأسس له من معنى كمصطلح قرآني في منهجية الإسلام العقائدية؛ فإنه سيفقد ما وضع له ويُعطي صورة مشوهة أو غير دقيقة للغير.

وقاعدة العلاج للخلل الغربي في نقل المصطلحات من لغة إلى أخرى (هي أن يُدرَس المصطلح الغربي الذي يشير إلى ظاهرة ما من خلال سياقه الأصلي دراسة جيدة، نعرف مدلولاته معرفة جيدة، ونحاول توليد مصطلح من داخل المعجم العربي بحيث لا يكون ترجمة حرفية، وإنما تسمية للظاهرة من وجهة نظرنا، وقد أدمنا عملية نقل المصطلحات بلا إعمال فكر أو اجتهاد، ومن غير إدراك للمفاهيم المتحيزة الكامنة)^(١٠).

وأخيرا علينا أن نعلم أن تقريب مصطلحاتنا إلى المفاهيم الغربية يعقد مشكلة النهضة والإصلاح التي نسعى إليها، ويوقعنا في حالة الاستتباع والانبهار، يقول الإمام الشافعي رحمه الله: (مَا جَهَلَ النَّاسُ وَلَا اخْتَلَفُوا، إِلَّا لِتَرْكِهِمْ لِسَانَ الْعَرَبِ، وَمِيلِهِمْ إِلَى لِسَانِ أَرَسْطَاطَالِيْسٍ)^(١١).

إن مصطلح (المواطنة) هو انتساب جغرافي، فهل يتعارض مع (الهوية)؟

إن الناس لا بد لهم من هوية هي نظام حياتهم وعلاقاتهم، وإذا كانت هوية الأكثرية هي الغالبة، وهي التي تدعم الاستقرار والأمن، والمخالفون في الهوية لهم حقوقهم وواجباتهم، وخاصة في الأشياء العامة المطلوبة من كل مواطن - فإذا كان الأمر كذلك فهذا هو الشيء الطبيعي في الدول والحضارات، وهو الذي يساعد على التفاهم والتعايش.

وأما مصطلح (الديمقراطية) الذي قامت حوله المعارك الكلامية، فهو ليس مصطلحًا وحسب، بل هو نظام معين، سواء من حيث الشكل أو المضمون، وقد تدرج وتأصل في الغرب في العصر الحديث، وله آلياته وثقافته، ويعني حكم الأكثرية من خلال الانتخابات - ولو كانت أكثرية ضئيلة - وقد تقدم الغرب سياسيًا بسبب هذا النظام رغم عيوبه ونقائصه التي يتكلم عنها كتاب الغرب أنفسهم، فهل نقول: إنه هو نظام الشورى الموجود عند المسلمين، أي نحرف الكلمات!.

لا شك في أن هناك خلافا أساسيًا بين الديمقراطية والشورى، وليس هنا مجال التفصيل في هذا الموضوع، فهذا له بحث طويل عريض؛ إذ النظام الإسلامي يختلف تمامًا عن كل الأوضاع البشرية الأخرى، فلا هو ديمقراطي ولا ثيوقراطي ولا أوليرشي (حكم الأقلية) ولا منوقراطي (قانوني حربي)، فهل من المعقول أن ننقل نظامًا نشأ في الغرب وتطور ضمن بيئة وثقافة معينة وأصبح ثقافة لعامة الشعب، إلى بيئة وثقافة أخرى في دين أبنائها أساسيات مختلفة للحكم والسياسة؟ هل ننقل مثل هذا النظام بعجره وبجره، بلا مراعاة للظروف وأسلوب الحياة؟

إن ما أقوله هنا لا يعني أبدًا القبول بالنظم الاستبدادية، كما لا يعني الانغلاق عن قبول أي شيء مفيد، ومن أي جهة كان.. ولكن يجب أن نعلم أن أسوأ السرقات هي سرقة الهوية، والقبول بسذاجة تعريف الآخرين لما يجب أن نسير عليه.

مصطلحات إسلامية خاصة:

وفي مقابل ما سبق ذكره؛ فإن هناك مصطلحات إسلامية ذات دلالة خاصة ليس لها مرادف في اللغات الأجنبية، ولا يمكن أن تترجم حرفيًا، وإلا فسيضيع معناها ومغزاها.

إن من المصطلحات الإسلامية الخاصة (العبودية) أو (عبدًا لله) فهل يمكن ترجمة هذا التعبير بكلمة (slave) الإنجليزية، والتي تعني العبد المملوك، أم هل يمكن ترجمتها بـ (servant of Gad) التي تعني الخادم لله؟ والحقيقة أن كلا التعبيرين لا يمكن استخدامهما بمعنى العبودية في المصطلح القرآني، والتي

(١٠) عبد الوهاب المسيري: حوارات (١/ ٢٠٥٣).
(١١) سير أعلام النبلاء، طبعة مؤسسة الرسالة (٩١/ ٧٥).

بلدان الشعوب الأخرى (الاستعمار) و(عصر الاكتشافات) وكأنه أعمر بلدانا كانت خراباً، أو اكتشف قارة ليس بها أحد، وما ذلك إلا لأنه يرى أن هذه الشعوب المستعمرة لا تستحق الحياة.. وهو يسمي المنطقة العربية الإسلامية: (الشرق الأوسط) وذلك لإبعادها عن هويتها الإسلامية، فهي بنظره جزء جغرافي من الشرق، فهناك شرق أدنى وشرق أوسط وشرق أقصى.

فإذا ما أتينا إلى المصطلحات التي كثر الحديث عنها في مجتمعاتنا المسلمة اليوم مثل: الدولة المدنية، المواطنة، الديمقراطية... إلخ، نجدها أشد اشتباهاً مما سبق الحديث عنه، وإن الأصل والواجب علينا أن نعود إلى أصل المصطلح لنعرف أين نشأ وما هو مفهومه عند من أنشأه.

إن مصطلح (الدولة المدنية) مثلاً، نشأ من خلال صراع أوروبا مع الكنيسة وتسلطها، حين كان ملوك أوروبا - بحصولهم على تأييد القسس والرهبان ومباركتهم - يحكمون شعوبهم باسم الإله، وهو ما يُسمى بالنظام الثيوقراطي، أو الدولة الدينية، فالدولة المدنية باصطلاحهم هي مقابل الدولة الدينية، وليس عندنا في الإسلام شيء اسمه دولة دينية، ولكن عندنا دولة تحكمها الشريعة الإسلامية ونظم منبثقة عن هذه الشريعة، ولا يحكمها طبقة اسمها (رجال الدين)؛ إذ ليس في الإسلام طبقة اسمها (رجال الدين)، ومفهوم (الثيوقراطية) بعيد جداً عن شكل النظام الإسلامي الذي له أسسه ونظراته الخاصة في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فكيف نأتي بمصطلح نشأ في أوروبا نتيجة صراع طويل بين الشعب والسلطة الطاغية للملوك والرهبان؛ ونطبقه على واقعنا الإسلامي الذي لا يحمل أيًا من ملامسات ظهور هذا المصطلح في التاريخ السياسي الأوروبي؟

إن الدولة المدنية في الغرب تعني (الدولة العلمانية) حيث يُشرع الإنسان ويضع القوانين التي تنظم حياته، ويكون الشعب فيها مصدر السلطة وصاحب الحق في التشريع، إذ هو أعرف بأمور دنياه، -كما ورد في برامج بعض الأحزاب العربية (الوسطية)- وأما الدين عند هؤلاء فإنه يقتصر على ممارسة الشعائر التعبدية.

وأما الذين يقولون: نقصد بالدولة المدنية أنها ليست دولة عسكرية، فإن كلامهم لا يعدو المغالطة والخداع، فالغرب عندما أطلق هذا المصطلح لم يكن تحت حكم عسكري، ويريد إزاحته بدولة مدنية.. وأما الذين يقولون: لا مشاحة في الاصطلاح إذا اتفقتنا على المضمون الذي نريده لشكل الحكم؛ فيقال لهم: لماذا لا نبتعد عن المصطلحات الغامضة التي لها جذور علمانية، ويكون لنا مصطلحاتنا البريئة من هذه العيوب؟

هذا المصطلح مأخوذ من كلمة Relation التي تعني العلاقة.

وأما مفهوم (الدين) عند المسلمين فهو نمط حياة شامل لكل شؤون الحياة، وقد عرّفه العلماء بأنه: (وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير باطنًا وظاهرًا)، فالمراد من الدين هو حفظ نظام العالم وصلاح أحوال أهله، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النحل: آية ٩٧]، ولذلك أطلق الغربيون -عن عمد أو عن جهل- مصطلح (الإسلام السياسي) وتلقفه المقلدون عندنا، وهو مصطلح غير صحيح، لأن معناه أن هناك إسلامًا غير سياسي ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [سورة الحجر: آية ٩١].

إن كلمة (Faith) الإنجليزية، تترجم إلى العربية بمعنى الإيمان، ولكننا نلاحظ الفرق الكبير بين مصطلح (الإيمان) القرآني وهذه الكلمة في الثقافة الغربية؛ إذ تعني عندهم الثقة بشيء ما، وتعني الاعتقاد بأي شيء كان، كما تعني الإيمان بالله والدين على أساس الفهم والتخوف الروحاني غير المعتمد على برهان أو دليل.. أما الإيمان بالمصطلح الإسلامي فإنه تصديق جازم مبني على الدليل والبرهان يشمل اعتقادات القلب وعمل الجوارح، وهو اليقين دون شك أو ريب.

كما تُترجم كلمة (nation) بمعنى (الأمة) ولكنها عند أصحابها تعني شعباً ضمن حدود جغرافية، أي هي قومية معينة، والأمة بالمصطلح الإسلامي قائمة على رباط عقدي سياسي، لا تزال تجمع المسلمين دون حواجز اللغة أو العرق أو اللون.

ونستخدم مصطلح (التقدم) دون أن نحدد مضمونه، هل هو إقامة العدل وتحقيق إنسانية الإنسان، أم هو الإنتاج المادي والاستهلاك والرفاهية؟

إن الغربي ينظر إلى الوراء، إلى القرون الوسطى وكيف كانت أوروبا، ثم ينظر إلى ما هو عليه الآن، من بداية النهضة ثم التقدم العلمي والصناعي، فإذا سمع مصطلحاً يوحى بالرجوع إلى العصور السابقة، فإن هذا يفزع، ولذلك كان لمصطلح (التقدم) سحر خاص لديه.. ولكن هذا لا ينطبق على كل شعوب الأرض، وإنه من غير المقبول أن يفرضوا نظرتهم إلى التاريخ على سائر البشرية، كما فعل (ماركس) إذ رأى أن المجتمعات البشرية تطورت من شيوعية بدائية إلى عبودية وإقطاع ثم الرأسمالية ثم الاشتراكية العلمية (الشيوعية) وهي نهاية المطاف، وهي الأمل والمثل الأعلى، وإن كان هذا التطور ينطبق على أوروبا مثلاً؛ فإنه لا ينطبق على المجتمعات الأخرى، أو على تاريخ البشرية كلها.

يتقن الغرب تحريف الكلمات وإعطاءها مدلولاً يناسبها، كما حكى القرآن الكريم عن بني إسرائيل، فالغرب يسمي احتلال

ولو في قضية واحدة، سوى ألق رموزها، وقد كان خداعاً وكاذباً.

الزمن الثاني - ويتمثل بمرحلة ما بعد الاستقلال، وبدقة من ١٩٤٦م إلى انقلاب الثامن من آذار سنة ١٩٦٣م، ويشمل على وجه الخصوص (أسس نشأة الجيش السوري وتكوينه)، و(الأسباب التي أدت إلى أن يكون زيدا أو عبيداً رئيساً للجمهورية، أو للوزراء من أمثال (شكري القوتلي، وناظم القدسي، وخالد العظم، وجميل مردم)، و(الانقلابات العسكرية)، وقد كثرت وتعددت أسبابها وبواعثها، و(الاغتيالات)، وقد تعددت أيضاً، و(عهدي الوحدة والانفصال) اللذين أدخلوا البلاد في أرجوحة اللامستقر، حتى أسلموها طوعية للطائفيين.

الزمن الثالث - يتمثل بحكم الطائفيين، وبالنظام الطائفي، وبدقة من ١٩٦٣م إلى ٢٠١١م. ويشمل أربع مراحل:

الأولى - تتمثل بحكم (أمين الحافظ)، أو ما يسمى بالقيادة القومية. وتمتد من ١٩٦٣م إلى ١٩٦٦م وفيها تمّ التخلص من الضباط السنة (الكبار حصراً)، ومن السياسيين التقليديين الذين حال قانون العزل السياسي -الذي أعلنوه بعد الانقلاب- بينهم وبين أن يتولوا الوظائف الكبرى في الدولة، وقد شهدت هذه الحقبة (صراعات وتصرفات) كان الخاسر فيها السنة، والرابع الطائفيون الذين خرجوا منها، وهم أكثر قوة.

الثانية - تتمثل بسيادة اليسار، وبطرح الاشتراكية العلمية منهجاً وأسلوباً. وتمتد من سنة ١٩٦٦م إلى ١٩٧٠م، وفيها زهقت الأنفس، وقد أصبح الطرح الاشتراكي من المسلم به جداً - طوعاً أو كرهاً - (وأصبح الاشتراكيون سادة الموقف، وقد استطاعوا التسلل إلى حزب البعث والسيطرة على مصدر القرار فيه، وهو أمر دفعهم إلى الغلو في الطرح، مما جعل الناس أكثر نفرة منهم واستهجاناً لما يقولونه أو يفعلونه، بعد أن كان كثير منهم يصفقون لهم.

والموقف منهم، إلا أن يتداعوا لدراسة هذا المستجد الصعب، الذي تمخضت عنه السنوات السبع، قصد التوصل لفهم مشترك للقضية السورية، ولمعرفة الأسباب المباشرة وغير المباشرة، التي أوصلت السوريين إلى هذا المستوى من التشرذم، ومن العدوان الواسع المقنن دولياً، الذي تشارك فيه الدول الكبرى والصغرى، وجماعات وأحزاب من منطلق عدواني بحث!!!

وفي تقديرنا أنه من أجل ذلك لا بدّ من جدول أعمال يتمثل بمحورين رئيسيين:

المحور الأول - يتمثل بالخارج الإقليمي والدولي؛ بما كان من سياساته، ومن مواقفه تجاه القضية السورية خاصة.

المحور الثاني - يتمثل بالداخل السوري، وبما كان من عدوان عليه، طال البشر والحجر، وحتى الحيوانات الأليفة والمتوحشة، ولم يستثن.. وأطال حلب الشهباء وأريافها وهي شاخصة، تشهد على وحشية ذلك العدوان، وعلى مدى ما كان عليه من جريمة.

ومع أن جدول الأعمال، مما يجب أن يضعه الخبراء والمختصون، إلا أننا نقدم بين أيديهم رؤية متواضعة، هي بمنزلة إضاءات على ما التبس أو أبهم، أو خفي عن الأعين، وهذه الرؤية بمنزلة دراسة أولية للقضية السورية، وهي تتجاوز (الحديث) وتتخطاه إلى ما هو (أقدم) وذلك من واقع أزمنة ثلاثة:

الزمن الأول - يتمثل بما يتعلق بالقضية السورية منذ العهد العثماني، وإلى نهاية الحقبة الاستعمارية، ويشمل على وجه الخصوص: (ورقة هرتزل)، و(اتفاقية سايكس بيكو)، و(وعد بلفور)، و(سياسات غورو في سورية)، ومنها تقسيمها إلى دويلات، وإنشاؤه (قوات الشرق الخاصة) ذات الصفة الطائفية، وأخيراً: (الكتلة الوطنية السورية) التي تغوّلت على نفسها فيما بعد، ولم تغلح

قدم فيها؛ كالروس والأمريكان. ومع ذلك لم تتوقف المشكلة السورية عند حدود الأعداء الخارجيين، بل الذي زاد الطين بلة الإقليميون، الذين أجادوا اللعب على الحبال والقفز والجمز، في تعاملهم مع القضية السورية! فكانوا (مّع) و(ضد) في آن واحد، وقد أجادوا الاصطفاف في خانتني الأعداء والأصدقاء، وبعضهم لم يتوان لحظة عن الكيد للقضية السورية، أو للاجئين الذين اندفعوا عبر الحدود يبحثون عن ملجأ آمن، فعاملهم كغرباء، وقاسمهم السلة الغذائية هضمًا لهم!!

أما الداخل السوري الذي كُتب عليه أن يبرز تحت نير نظام مثاله يؤمن بالحلول، أي: أن يحل الإله في الجسد البشري، فقد سام الناس خلال أكثر من ستين عاماً بخساً. وقد كتب على أناس الداخل بعامة أن يواجهوه بالمعارضة السلمية والمسلحة، وكان أشهرها ما عرف بـ(ثورة الإخوان) في ثمانينات القرن الماضي، وبالثورة الشعبية السلمية والمسلحة التي اندلعت بشكل بركاني مع مستهل ٢٠١١م، ولا تزال قائمة إلى اليوم، وقد ووجهت بأقصى ما ووجهت به ثورة في التاريخ، واستخدمت فيها البراميل المتفجرة التي توصف بالعمياء أو الشبيحة التي توصف بأنها أكثر عمى من البراميل، واستخدم الذكاء المخبراتي المجنون، من أجل إدارة الصراع مع المعارضين الذين أسقطتهم خلافاتهم وتشرذمهم، وتآمر الغريب والقريب عليهم، وحال بينهم وبين أن يكونوا على مستوى القضية فهما وأسلوباً وتضحية ما هم فيه من شقاق ومن خلافات تدمي القلوب، وقد استعصت على الحل ولا سيما بعد أن كثر أمراء الحرب فيها، حتى صعب معرفة عددهم، وبعضهم وللأسف الشديد لبس لبوس الإسلام، وطرح الشعارات الإسلامية، والإسلام منه بريء.

وفي تقديرنا مع هذا الموقف الجلل، ليس على المفكرين السوريين وأصحاب الرأي

الدعوة المفتوحة من أجل عمل مشترك يجمع السوريين من أجل خلاصهم

أ.د. عبد العزيز الحاج مصطفى

عضو رابطة العلماء السوريين



في كثير من الأحيان يصعب الحصول على الحقائق المجردة، وذلك لأسباب كثيرة، منها: أنها قد لا تكون مكشوفة، أو لا تكون معروفة، أو لا تتوافر لها الأدلة الكافية. وسورية بعد مئة عام من الانفصال عن الدولة العثمانية، دخلت في هذه الدائرة، والذي أدخلها فيها السوريون أنفسهم!! وسبب ذلك: يعود لشتاتهم الفكري والثقافي، ولضعف خزينهم المعرفي، ولابتعادهم أكثر عن قضيتهم المركزية، وانشغالهم بسواها من القضايا الأخرى، التي تتضاد مع قضيتهم!! وهو انشغال آذاهم، وآذى قضيتهم، وآذى الأمة كذلك!! فمن المسلّم به جدلاً:

أولاً - أن التوازن الدولي قد انفرط عقده، وأن سياسة القطب الواحد وهي منحازة للصهيونية، قد باتت هي المهيمنة على السياسة الدولية، ومعنى ذلك أن خلافاً كبيراً أصاب التوازن العام في صميمه، وأن العالم الإسلامي يتحمل الجزء الأكبر منه.

ثانياً - أن الحروب الصليبية التي عرفها العالم في العصور الوسطى، لم تكن قد انتهت حقيقة!! وأن القوم امتلكوا ناصية القوة، ويريدون أن يصفوا حساباتهم مع المسلمين!! وهذه المسألة يمكن أن تقرراً في وقائع الحياة اليومية، وهي ملحوظة!! وسياسة الكيل بمكيالين، أو السياسة ذات

كما أنها أتاحت الفرصة للمرتزقة أن يتوافدوا إليها بشكل عصابي، من دول شتى، وغضت الطرف عما يفعلون، وفي مقابل ذلك أثارت حول الفصائل المقاتلة زوابع إعلامية قصد شيطنتها، ثم عملت على شقها، وشرذمتها، وتشويه سمعتها، والدفع بها تجاه ما هو أسوأ بالنسبة لها، حتى غدت سورية حمى مستباحاً من قبل المرتزقة والموتورين، وفي مقابل ذلك غدت المسألة السورية - وكجزء من الالتفاف على المسألة - قصد الإحباط والتضليل - مما يجب أن تثار في كل محفل ذراً للرماد في العيون، وخداعاً للعاملين، فكانت جنيف واحد، ثم امتدت إلى جنيف ثمانية، ثم كانت أستانا واحدة، ثم امتدت إلى أستانات متعددة، أما الوسطاء الدوليون من أمثال: مصطفى الدابي، وكوفي عنان، والأخضر الإبراهيمي، ودي ميستورا فقد رتّعوا فيها! والحقيقة أن الجميع أدخلوها في عنق زجاجة، ثم أحكموا سدها وإغلاقها، بعد أن تنصلوا من تبعاتها، وكل ذلك يمكن أن يكون وزيادة، فلا حدود لما يفعله الأعداء ولا سيما إذا كانوا كأعداء الشعب السوري، ينطوون على حقد وضغينة، وعلى تارات قديمة، وعلى رغبة بقتلهم وتدميرهم خدمة للصهيونية، أو لأرباب المصالح، ممن يسيل لعابهم تجاه موضع

الوجهين أكثر من ملحوظة أيضاً! ثالثاً - أن (المستجد الحديث في المنطقة) وسورية تضطلع اليوم بكفل منه؛ يكاد يكون تشاركياً بينهم! وقد وزعوا أدوارهم، من حيث التعامل معه بشكل تحاصصي، وتبعاً لمصالحهم وحجوماتهم. وسبع السنوات التي مرت على سورية؛ الوقائع والأحداث فيها تثبت صحة ذلك؛ وقد قطعوا أوصالها وانتهكوا حرماها ودمروا بناها التحتية والفوقية!! والتحالف الدولي الذي يشمل (٦٨) دولة، يتولّى كبر المسألة فيها، وهو يومياً يشرّق ويغرب في الأجواء السورية، وعلى الأرض السورية، وقد عدمت سورية الموقف المسعف من أصدقائها، أو المنصف من البشر الذين لما يزل لديهم بقية من ضمير. فناءت بكبر ذلك فكان على شعبها الأعزل - زيادة على ما يقترفه ضده النظام من موبقات - أن يواجه حرباً عالمية معلنة عليه من طرف واحد!! وأن يتحمل تبعات تلك الحرب، بالرغم مما اتسمت به من جبروت وقوة، ومن أدوات خسيصة وخبيثة، وبعضها دون المستوى الأدنى، في شراستها، ووحشيتها وأساليبها غير المشروعة، وقد استهدفت على وجه الخصوص الأسواق العامة، والمدارس، والمستشفيات، والتجمعات. وقد عملت ولا تزال على التهجير القسري والطوعي؛



د. محمد أيمن الجمال

أستاذ مشارك في جامعة السلطان

محمد الفاتح الوقفية

المفسدون في الأرض والحج

يخالف فيها مجتهد في عصر من العصور، فضلاً عن أن يخالف فيها أحد من جماهير الناس، بل جاء اليوم من يزعم تحديثاً وتطويراً وتجديداً فلم يكتف بالكلام عن تلك المسلمات، -وهي موضع نوع من الإجماع- بل نال من فرض الصوم والصلاة، وفرق بين الشعائر والشرائع وأبطل وجوب الزكاة وأراد تعطيل الحج، كل ذلك تحت ستار من التنوير والتطوير والتجديد والحداثة!

الظني والقطعي في الشرع:

إن مساحة الظنيات كبيرة في الفقه الإسلامي، بل لعل لها النصيب الأوفى من الأحكام الفقهية، وليس من مصلحة أحد من الفقهاء توسيع دائرة القطعيّات، لأن الاجتهاد عملية متجددة بالنظر إلى تغير الواقع، وتغير تصور المسائل! فإن عُدّت المسألة في القطعيّات ضاق على الفقيه أصل تناولها بالبحث! ولذلك فإن الفقهاء تجنبوا قدر الإمكان الزعم بأن هذه المسألة من مسائل الإجماع الذي يكفر منكره، ويُفسد تاركها، كما تجنبوا الحكم على المسألة بالقطعية بناء على الأصول التي جعلوها مبيّنة لحد القطعي!

ولا ريب أن تحديد المسافة بين الظني والقطعي ليست واضحة المعالم في كتب الفقه والأصول، لكن قواعد عملية الفرز وأصولها حاضرة في أذهان الفقهاء والمجتهدين.

واحتمالاً لذلك فقد استعملوا عبارات من مثل: لا يعذر مسلم بجهله، معلوم من الدين بالضرورة، ما لا ينكره مسلم، ما لا

في عصرنا بات اسم التنوير والحداثة والتجديد -حتى الإصلاح- مصطلحاً يُقصد به التغيير الشامل للشرعية، والتعدي على الأصول والثوابت، بل صار كثير ممن يزعم الإصلاح هم المفسدون حقاً، يقول تعالى واصفاً حال هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ [سورة البقرة: آية: ١١-١٢] وهو ما يجعل الانتساب إليهم موضع تهمة في زماننا، ومشاركتهم الجزئية في بعض طروحاتهم محل اشتباه!

فالتجديد الذي ينادي به أمثال ميزو وشحرور وعدنان إبراهيم وتيزيني والجابري وأركون وغيرهم يفرغ الإسلام من الإسلام ويحرف العقيدة ويهدم الثوابت، وهو تجديد هدفه الهدم وليس البناء، وحين نتكلم عن الهدم فنحن نعني هدم الثوابت قبل المتغيرات، وهدم القطعي قبل الظني، أما الإصلاحيون الحقيقيون فإنهم يختلفون عن الهدامين الذين يسعون لإصابة الأمة في مقاتلتها، ولا يمنعهم من ذلك ركوب الكذب ولا الافتراء ولا التدليس!

إن فعل هؤلاء هو ما بات يُعرف اليوم باسم (التجديد)، والحداثة، والإصلاح!

حينما نتحدث عن مهاجمة القطعيّات فنحن نتحدث عن مهاجمة شعائر الأمة ومحكمات دينها، رأيت الحجاب وحد الردّة وأحكام العبيد وأحكام الإمامة العظمى وأحكام الميراث؟ كلّها تناقلها أهل العلم بالتسليم والقبول، ولم

الثالثة - تتمثل بسيادة المنهج الطائفي الذي كان بطله وزعيمه حافظ الأسد الذي طوى صفحة الاشتراكية العلمية، ليستعير عنها بانتخابات وديمقراطيات وطدت أركان النظام، وكانت من دعائمه القوية.

والوقوف على ما فعله حافظ الأسد في سورية ضرورة تحتمها المواقف المستجدة كافة، على امتداد ذلك التاريخ الذي عاشه حافظ الأسد، والذي كان بعضاً من سيرته الذاتية التي تتوزع على أربع مراحل:

المرحلة الأولى - توصف بـ (مرحلة البروز الذاتي)، حين استطاع هو ومحمد عمران وصلاح جديد تأسيس ما يسمى بـ (اللجنة العسكرية) ذات الصفة الطائفية، ووقتها برز بين الطائفيين وكأنه أحد رموزهم.

المرحلة الثانية - توصف بـ (المرحلة الاعتبارية) على مستوى الدولة السورية، وقد أصبح بعد انقلاب ١٩٦٣م قائداً للطيران، وأحد المسؤولين الكبار في التنظيم الحزبي؛ إذ استطاع هو وزميله صلاح جديد تسريع العدد الأكبر من الضباط السنة من الجيش والقوات المسلحة، وخوض الصراع مع الحافظ ورفاقه، والذي انتهى بسيطرتهما على الدولة والحزب وذلك بعد انقلاب ١٩٦٦م.

المرحلة الثالثة - توصف بـ (بروزه زعيماً وقائداً) للجيش والقوات المسلحة، فهو بعد حدث شباط استطاع أن يحتل منصب وزير الدفاع، وخلال الحقبة من ١٩٦٦م إلى ١٩٧٠م استطاع أن يحكم قبضته الطائفية على الجيش والقوات المسلحة، وأن يخوض حرب ١٩٦٧م ويخرج منها منتصراً بالرغم من سقوط الجولان وهزيمة الجيش السوري، ومما تنوّل عن بيعه الجولان وعن انسحاباته الكيفية التي عدت وصمة عار في جبينه.

المرحلة الرابعة - توصف بـ (مرحلة

الهيمنة المطلقة وقد أصبح رئيساً للجمهورية)، وفيها انقلب على شركائه في الطائفة، وعلى زملائه في الحزب، وقد امتدت هذه المرحلة من ١٦ تشرين الثاني من ١٩٧٠م إلى ٢٠٠١م وقد انتهت بموته، وتمتاز هذه المرحلة بسمات أربع:

السمة الأولى - بـ (القفز إلى منصب رئيس الجمهورية) وتهيئة الظروف المساعدة، لجعلها وراثية في عقبه.

السمة الثانية - باعتماده (شكلاً من الديمقراطية ومن البرلمان) يخدم نظامه ويساعده من أجل تحقيق أهدافه.

السمة الثالثة - بصراعه (مع الإخوان المسلمين، وبارتكابه مجزرة حماة التي راح ضحيتها أكثر من أربعين ألفاً من الشهداء)، ووقتها كشف عن وجهه الطائفي بعد أن كان مقنعاً بالحزب والدولة.

السمة الرابعة - بتصفية معارضيه من الطائفة ومن غيرها بـ (تهيئة الحزب والدولة بما في ذلك القوات المسلحة لقبول وراثته منصب رئيس الجمهورية لولده من بعده).

الرابعة - مرحلة بشار الأسد الذي خلف والده في رئاسة الجمهورية، ابتداء من سنة ٢٠٠١م ولم يزل على كرسي الحكم إلى اليوم، وقد كان أشد خطراً من والده، أو أكثر منه ضرراً في المسائل العامة والخاصة، وقد اتسم حكمه بظواهر ثلاث:

أولاًها - تمثل بمد النفوذ الإيراني إلى سورية، أو تمكين الإيرانيين من أن يكونوا أكثر تسلطاً على البلاد والعباد، والسماح لهم بالإقامة والتملك، وبالعامل على افتتاح الحسينيات، والمدارس الشيعية التي تعمل على تشييع السوريين، وكذلك على إنشاء المنظمات والهيئات الداعمة لها، وتعد جمعية المرتضى التي كان يتولى أمرها جميل الأسد الأخ الشقيق لحافظ الأسد المثال الدال على ذلك.

ثانيها - إطلاق يد رموز النظام في الكسب غير المشروع؛ ولا سيما من العائلة الحاكمة وأنسبائها وأقربائها، وتعد ظاهرة (رفعت الأسد) ومن بعده (رامي مخلوف) المثال الأكثر دلالة على ذلك.

ثالثها - استقدام الأجنيبي إلى البلاد ليستقوي به، ومن هؤلاء الروس الذين أصبحوا محتلين حقيقيين لسورية، والميليشيات الرافضة التي جاءت من أقطار شتى، وكل ذلك قصد التغيير الديمغرافي الشامل والكامل لسورية كلها، وهو أمر يُعد اليوم قيد التحقيق، ولا يماري به إلا عميل أو ضال.

إن كل ذلك في رأينا، وحسب تقديرنا، يوجب علينا أن نعمل مجتمعين، من أجل تقرير صيغة ما لعمل مشترك فيه إنقاذ السوريين مما هم فيه من واقع لا يحسدون عليه، من أجل خلاصهم من محتتهم التي طالت وامتدت، حتى كادت تكون الظاهرة الأكثر خطورة خلال القرنين (العشرين) و(الواحد والعشرين)، وتجاه ذلك فإننا نتوجه بدعوتنا المفتوحة إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى - فئة العلماء والعاملين، كلا منهم حسب علمه وفهمه ودرجته العلمية.

الفئة الثانية - فئة الخبراء والمختصين، من إعلاميين وسياسيين وعسكريين محترفين، واقتصاديين حاذقين، ومن مهتمين بالمشهد السوري عامة.

الفئة الثالثة - فئة الأدباء والكتاب، من أصحاب الأقلام الرفيعة ممن يكتبون ويبحثون ويدرسون ويفكرون بطريقة سليمة.

نقول ذلك ونحن نتمثل الحكمة القائلة: «إذا لم يكن بإمكانك أن تشعل شمعة فليس أقل من أن تلعن الظلام».

مقاربات

جاءت إحداهما بلفظ: ﴿أَيَّامَ مَعْلُومَاتٍ﴾ والأخرى ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: آية ١٩٧] وفي قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْبَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: آية ٢٨]، فها هنا يُسمَّى الله سبحانه الأيام بالمعلومات، وفي آية التعجيل يُسمِّيها بالمعدودات! فهل الحج أشهر أم أيام؟ وهل الأيام معلومات أم معدودات؟

يزعم هؤلاء أنه أشهر، ومن حقَّ الناس أن يحجَّوا في أيَّ أيام السنة شاؤوا! ويتناسون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعمل لفظ (خذوا، فخذوه، لتأخذوا) القرآني ذاته من قول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [سورة الحشر: آية ٧] فقال: ((لتأخذوا عني مناسككم))^(٢).

وقد فرَّق العلماء بين الأشهر المعلومات والأيام المعدودات أمَّا الأشهر فهي للإحرام بالحجَّ والعزم عليه وعدم الرفث والفسوق في أشهره بطولها، وقد كان أمرًا طبيعيًّا بسبب مسيرة الحياة وطبيعة التنقل، وأمَّا الذكر فهو في الأيام المعدودات (وهي أيام أداء المناسك!) كما يقول الفقهاء.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقَى اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٠٣] فالتعجيل في يومين لأداء شعائر الحج، وهي تلك الأيام التي توارثت الأمة فيها الحجَّ وعرفت وقته من المنقول متواترًا بنقل الكافة عن الكافة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الوحيد المكلف ببيان ما أنزل لا غيره من المدَّعين للبيان بأهوائهم في عصرنا.

أوليس فهمُ شحورٍ وأمثاله فهمًا بشريًّا غير معصوم؟ فلم يُرتجى منا تصديقه والتسليم له؟ ثم ألا يحقُّ لنا أن نعدَّ كلام شحور وغيره من المفسدين بعد سنين من قولهم له: من التراث الذي ينبغي أن نُورشفه كما يريدون لثرائنا وكتب فقهاءنا؟

وهل يمكن للمهندس شحور وغيره ممن يريد نسف السنة والتاريخ والفقهاء أن يُعلِّمنا من القرآن وليس من اجتهاداته ما هي الأشهر المعلومات؟ وكيف صارت معلومة بالنسبة له إلا من التراث؟

تضليل الجمهور من خلال الهجوم على المرجعيَّات

(٢) (مسلم: كتاب الحج، باب استحباب رمي جمره العقبة يوم النحر وراكبا، ١٢٩٧).

إغفالهم قواعد التعامل مع الألفاظ عند ورودها، ومن ذلك مثلاً أن اللفظ العام قد يُطلق ويراد به الخصوص، وقد يُطلق ويراد به الفرد الواحد، وهذا ورد في القرآن الكريم مرارًا، ومن أبرز الأمثلة التي يسوقها الأصوليون عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٧٣] ف (الناس) هنا تعني شخصًا واحدًا هو نعيم الأشجعي، فقد جاء في تفسير الرازي ما نصّه: (هذه الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى، روى ابن عباس أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة، نادى: يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى فقتلت بها إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام لعمر: قل بيننا وبينك ذلك إن شاء الله تعالى، فلما حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمصر الظهران، وألقى الله تعالى الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قديم نعيم معتمرًا، فقال: يا نعيم إني وعدت محمدًا أن نلتقي بموسم بدر، وإن هذا عامٌ جذب ولا يصلحنا إلا عامٌ نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن أرجع، ولكن إن خرج محمدٌ ولم أخرج زاد بذلك جراءة، فذهب إلى المدينة فبَطَّطهم ولك عندي عشرة من الإبل، فخرج نعيم فوجد المسلمين يتجهزون؛ فقال لهم: ما هذا بالرأي، أتوكم في دياركم وقتلوا أكثركم فإن ذهبت إليهم لم يرجع منكم أحد، فوقَّع هذا الكلام في قلوب قوم منهم، فلما عرف الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك قال: ((والذي نفس محمد بيده لأخرجن إليهم ولو وحدي))، ثم خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه نحو سبعين رجلاً فيهم ابن مسعود، وذهبوا إلى أن وصلوا إلى بدر الصغرى، وهي ماء لبني كنانة، وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام، ولم يلتق رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه أحدًا من المشركين، ووافقوا السوق، وكانت معهم نفقات وتجارات، فباعوا واشتروا آدمًا وزبيبا وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين، ورجع أبو سفيان إلى مكة فسمَّى أهل مكة جيشه جيش السوق، وقالوا: إنما خرجتم لتشربوا السويق) فالناس في الآية الكريمة لفظ عامٌ استعمل في معنى الخاص، بل بمعنى شخص واحد وهو نعيم بن مسعود.

إغفالهم مبادئ النظر في النصوص والآيات عمومًا، وتجاوزهم فهم السابقين، بزعم أن التراث ينبغي إعادة فترته، وأنه فهم بشري، ومن ذلك مثلاً عدم ردِّهم محكم النصوص إلى متشابهها، وعدم محاولة الجمع بينها قبل ترجيح على قواعد الأئمة، وعدم اعتبارهم أسباب النزول، وعدم النظر في وقت النزول لمعرفة الناسخ من المنسوخ، ومن الأمثلة على ذلك قولهم في آيتي وقت الحجَّ اللتين

يُعلم فيه خلاف، اتفق عليه الفقهاء.

الإجماع من القطعيّات:

والذي يُعدّ قطعياً أحد ثلاثة: نصّ لا يقبل الاحتمال وحديث متواتر وإجماع منقطع. كما يقول الإمام الجويني في البرهان: (وأدلة الفقه هي الأدلة السمعية، وأقسامها: نصّ الكتاب، ونصّ السنة المتواترة، والإجماع)^(١)

فأمّا النصّ الذي لا يقبل الاحتمال أو التأويل فهو نادر، وكذلك المتواتر من الحديث، والمنازعة فيهما ممّا لا تخفى، والذي يظهر من هذه الأمور التي يعدّونها في القطعيّات قطعيتها من وجه دون وجه، وهذا الوجه الذي صارت منه قطعية يكفي لبناء الأحكام عليها، لكنّ ما هو أكثر يقيناً من الكتاب والسنة في القطعية هو الإجماع، لأنّه إجماع على عين المسألة، وليس فيه خلاف في فهم النصّ المنقول أصلاً، ولذلك فإنّ محطّ اهتمام الفقهاء والمشتغلين بالشريعة هو الإجماع، الذي يقسمه الأصوليون إلى قسمين: صريح يظهر كلّ واحد من المجتهدين فيه رأيه صراحةً، وسكوتي يصريح بالحكم بعضهم ويسكت آخرون، وجعله بعضهم حجة ظنية موجبة للعمل دون العلم.

نقل الكافة عن الكافة:

وأرى أنّ لنوعيّ الإجماع قسماً لا يقلّ أهميّة عنهما، بل لعله يفوقهما أهميّة من حيث إثبات القطعيّات المنقولة به، وهو ما أجمعت عليه الأئمة، وتناقلته بنقل الكافة عن الكافة، فنقله جماهير عريضة من الأئمة وجموع غفيرة من الأئمة ممّن سبقهم حتّى نقل عن جيل الصحابة بكافّة، وهو أعظم منزلة من نقل أعداد محدودة من الفقهاء وإن كانوا من مجتهدي الأئمة.

قال الجويني في البرهان (١/٤٣٦): (والإجماع عصام الشريعة، وعمادها، وإليه استنادها).

وحدّ الإجماع الاصطلاحيّ في كتب الأصول صريحاً أو سكوتياً يشمل المعلوم من الدين بالضرورة وما لا يُعذر مسلمٌ بجهله، وجملته ما يتمّ التعديّ عليه من الحدائين أدعياء الإصلاح من هذه الباب.

ومهما يكن فهمنا لمصطلح الإصلاح والتجديد فإنّ استعماله اليوم لا يعدو هذه السقطات الشنيعة التي تدلّ بما يبدو من بغضاء متفوّهيهما على ما تخفيه صدورهم.

على أن تناول بعض الأحكام الثابتة بالتطبيق قد يحتاج اجتهاداً جديداً، فكيّفيّات التنفيذ قد تُراعى فيها الحداثة في

الأساليب، وتطبيق الحكم قد يوقف بتقدير الحاكم المجتهد في بعض الظروف، والتغيير ضمن الضوابط قد يكون مقبولاً في كثير من الصور، وذلك لأنّ التعامل مع الاجتهاد بالتقديس مرفوض، لكنّ تناول الفريق المدّعيّ للتحديث والتصحيح والتجديد دفع إلى ردّة فعل عنيفة لم تُورث عند جماهير عريضة من طلاب العلم إلا جموداً في محراب التراث! وهجرًا للتطوير والتجديد المشروعين.

نعم، قد يواجه المصلح الحقيقيّ بسوء الفهم أو سوء الظن! لكنّ هذا لا ينبغي أن يكون دافعاً له إلى الانجرار خلف التنويريين والحدائين والتجديديين من أعداء الأديان والمجتمعات، ولا مسوّغاً للتفوق على الذات والتحقّر عند المنقول، ممّا يؤدي إلى مخالفة المنهج الشرعيّ الصحيح للتعامل مع مستجدات الواقع.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾:

ذلك كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أمر الله تعالى بحجّ بيته الحرام، وجعل الطلب عامّاً للناس كلّهم، لكنّ هذا كان قبل وجود أمة مسلمة!

وقد أمر سبحانه بشهود المنافع فيه، قبل أن يأمر بذكر اسم الله تعالى فيه، فحثّ عليها أولاً في قوله: ﴿لْيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [سورة الحج: آية ٢٨] فكان الحجّ لشهود المنافع قبل أن يكون للذكر.

وظف كثيرٌ من أدعياء الإصلاح ذلك الخطاب الربّانيّ للناس بالحجّ في سبيل هدم الثوابت، وتغيير المنقول المتواتر، ومن ذلك قولهم إن الحجّ للناس كلّهم، وإن تقييده بالمسلمين لا يجوز، وقولهم: إن الحجّ للمنافع لا للطقوس، وقولهم: إن السعي بين الصفا والمروة نوعٌ من السياحة فمن أحبّ أن يفعل فليفعله، وهو ليس لازماً في شيء من العبادات، أو: هو ليس عبادة أصلاً، مع تعمدهم الاستهزاء بالشعيرة، وانتقاصهم من حرمة المشاعر وقديسيّتها، ونيلهم من ملايين المسلمين الذين توارثوها عن أسلافهم إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلّم، إلى غير ذلك من أقوالهم التي لا يتسع المجال لذكرها.

والناظر في جملة ما قالوه يرى أنّهم يُغفلون عند الحديث عن هذه الأمور جملةً من أساسيات استنباط الأحكام في التشريع الإسلاميّ، ويسعون نحو هدفٍ بارزٍ واضحٍ لا مشاحة فيه، إلى هدم الثوابت، وتحطيم الرموز.

وإن من أبرز ما اخترقه أولئك من أساسيات الاستنباط، وما يقومون به من التأثير في الجمهور:

(١) البرهان (١/٨).



المجلس الإسلامي السوري

SURIYELI ISLAM KONSEYI | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيد آخر شهد عام ٢٠١١ مبادرات لإيجاد كيان جامع موجد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان ٢٠١٤، ليعلموا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قراراً مشتركاً يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا .

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياها، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.

والتجديد ليسئوا إلى المسلمين من خلال الاعتراض على شعائرهم وشرائعهم.

يشارك دعاة الإصلاح والتجديد مع النصارى واليهود الذين يهاجمون الأمة المسلمة بأفكارها وعقائدها، بل تكاد تتطابق أقوالهم مع أقوال الملاحدة واللا دينيين، الذين لم يحاربوا يوماً إلا الإسلام الصافي الصحيح.

ختاماً:

لعلّ من الملاحظ أنّ المسلم الباحث عن الحقّ، المنصف في إعمال العقل، الذي لم يُعطِ عقله منحةً للمتخلفين والمفسدين ليصيغوه بحسب مقاسهم؛ لا يجد مادةً فكريةً تُغنيه عند التعامل مع هؤلاء، نعم قد أفاض بعض المعاصرين في مناقشة تلك الأطروحات المفسدة في كتب مطوّلة فما نالت موقعها في مكتبات الناس ولا في عقولهم، ولا استطاعوا أن يُفرّغوا لها من أوقاتهم لفهمها وتلقّي أجمل ما فيها من ردودٍ مفحمةٍ ومناقشاتٍ قاتلةٍ لشرور ولغيره من المفسدين.

ولعلّ من أوجب الواجبات على طلاب العلم اليوم أن يجتهدوا في بيان ضلال أولئك من خلال كلمات قليلة ومقاطع صوتية قصيرة تغني وتفيد وتحقّق المراد منها عند جماهير الناس، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الفكرية للأمة وجعلها في مقابلة القرآن (الدين عندهم)، وهذا الهدم للمرجعيّات يهدف إلى خلق فراغ فكريّ يملأونه بقيحهم الذي يملأون به (الإنترنت) الفضاء الرحب المفتوح، ولا يجدون حسيباً ولا رقيباً يردهم، ويسهم معهم في دعم مشروعهم الهدميّ عشرات القنوات الفضائية التي تعيد تشكيل الرأي العام بما يتفق مع رؤية هؤلاء الهدامين.

إيهام الناس أن بإمكانهم استنباط الأحكام من النصوص مباشرة، مع كونهم يُفلسفون النصوص إلى درجة يصعب معها على العلماء أن يفهموا فلسفتهم، ولكنهم يُشيعون ثقافة التفكير الحرّ كما يزعمون، وهم يسعون إلى السيطرة على العقل الجمعي للأمة، وتغيير آليات التفكير السليمة، ومنهجيّات محاكمة الأخبار المسموعة والنصوص، إلى منهجيّات توافق شذوذاتهم، وتجعل الجمهور ينصاع لهم من غير أن ينبس ببنت شفة.

التعامل (المادّي الدينيّ) مع الأحكام الشرعية، وإغفال الجانب (الروحيّ الأخرويّ) الذي يحقّق التوازن في تلك الأحكام أصلاً، وهذا يظهر جلياً في أحكام الحجّ التي كان من حكم فرضها أصلاً أن تحقّق جوانب روحية تصل الأمة الواحدة التي سمّاها أبوها إبراهيم (مسلمين) بأطرافها وأواسطها، وتجعل التوازن متجلياً بصورته المثلى في هذه الأحكام. إنّ إغفال الجانب الروحيّ عند التعامل مع أحكام الحجّ يُسبّب ثغرة كبيرة في النظرة إليه يُنفذ منها أدياء الإصلاح





مُقَارِنَات

مجلة فصلية
أبحاث ومقالات في
التاريخ والفكر والحضارة



المجلس الإسلامي السوري
SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

info@sy-sic.com

www.sy-sic.com syrian_ic

f syrianislamiccouncil